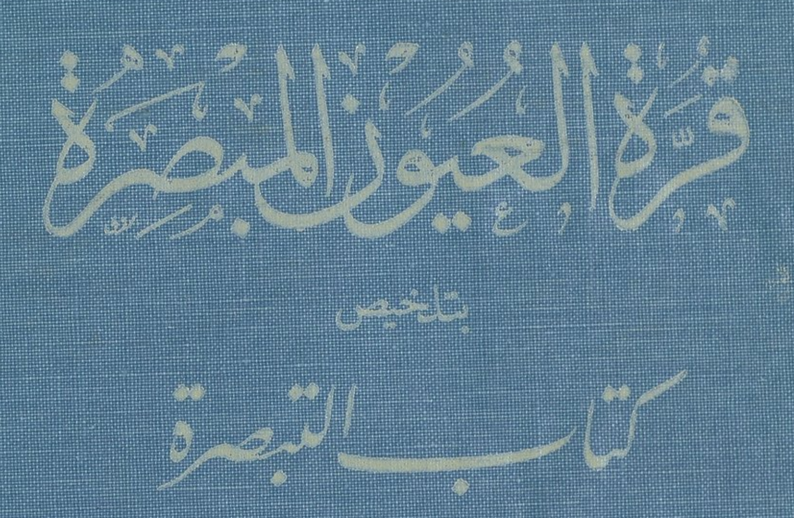


تأليف

الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفي الإحسائي

طبع على نفقة
صاحب السمو العالم الجليل الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني حفظه الله

منشورات المكتب الإسلامي بدمشق


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR
32101 017153469

قرة العيون المبصرة

بتلخيص

كتاب التبصرة

تأليف

الشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفي الاحسائي

طبع على نفقة صاحب السمو

الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

حفظه الله

منشورات المكتب الاسلامي

بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفّق من شاء من عباده ، للتنبّه للاستعداد ليوم معاده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي بالحكمة ، والموعظة الحسنة إلى سبيل رشاده ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأجناده.

وبعد : فقد كنت لخصت ما وجدته من كتاب « التبصرة » المنسوب للعلامة الفهامة أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي ، تغمده الله تعالى برحمته ، وأسكنه بحبوح جنته ، ليسهل على الواعظين تحصيله وتناوله ، ويكثر فيما بين الراغبين تداوله ، وقد أحببت اختصاره ثانياً ، لقصد حذف ما سنح لي حذفه ، وزدته بأدعية جامعة في آخر كل مجلس منه ليعم نفعه ، وسميته « قرّة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة » وأنا أسأل الله الكريم المنّان أن يجعله لوجهه خالصاً ، وأن ينفع به من اعتنى بقراءته وسماعه مخلصاً ، وبالله تعالى التوفيق ، والهداية إلى أقوم طريق .

المجلس الاول

في ذكر آدم عليه السلام

الحمد لله الذي سيّر بقدرته الفُلك والفَلك ، ودبر بصنعته النور والحلك ، اختار آدم فحسده الشيطان وغبطه الملَك ، وافتخروا بالتسبيح والتقديس فأما إبليس فهلك ، (قالوا أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويسفكُ الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) البقرة : ٢٩ . أحمده ، وهو بالحمد جدير ، وأقر بأنه مالك التصوير والتصيير ، تعالى عن نظير ، وتنزه عن وزير ، قبِل من خلقه اليسير ، وأعطى من رزقه الكثير ، أنشأ السحاب يحمل الماء النمير ، ليعم عباده بالخير ويمير ، فكلما قصّر القطر في الوقع صاح الرعد بصوت الأمير ، وكلما أظلمت مسالك الغيث لاح البرق يوضح وينير ، فقامت الوُرق على الورق تصدح وتمدح على جنبات الغدير ، فالجماد ينطق بلسان حاله ، والنبات يتكلم بحركاته وأشكاله ، والكل إلى التوحيد يشير . (ليس كمِثله شيءٌ وهو السميع البصير) الشورى : ٤٢ . وأصلي على رسوله محمدٍ البشير النذير ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الكبير ، وعلى عمر ذي العدل الغزير ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة في الزمان العسير ، وعلى علي المخصوص بالموالاة يوم الغدير ، وعلى سائر آله وأصحابه أولي العزم والتشمير ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) البقرة : ٢١ .

روى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدرها ، جاء منهم الأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك » .

قال العلماء : خلق الله آدم يوم الجمعة ، وكان طوله ستين ذراعاً ، وعرضه سبعة أذرع ، ثم أمر الله الملائكة بالسجود له ، فسجدوا إلا إبليس .

قوله تعالى: (اسكن أنت وزوجُك الجنَّة) البقرة: ٣٥. زوجه: حوّاء خلقت من ضلعه وهو في الجنة. وقوله: (فأزلَّهما الشيطان) البقرة: ٣٦. أي: حملهما على الزلل.

قال السُّدّي: دخل في فم الحية. وقال الحسن: ناداهما من باب الجنة. وقوله تعالى: (وقلنا اهبِطوا) البقرة: ٣٦. قال ابن عباس: أُهبط آدم وابليس وحواء والحية، فأهبط آدم على جبل بالهند، يقال له: داسم، وحواء بجُدة، وأُهبطت الحية بنصيبين، وابليس بالأبُلَّة، وكان مكث آدم في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة وهو خمسمائة سنة، وأُنزل معه الحجر الأسود، وعصى موسى، وكانت من آس الجنة، وأمره الله أن يذبح كبشاً من الضأن مما أُنزل إليه، فذبحه، ثم أخذ صوفه، فغزلته حواء، فنسج لنفسه جبَّة، ولحواء درعاً وخماراً، وعُلِّم الزراعة، فزرع فنبت في الحال فحصد، وأكل ولم يزل في البكاء.

قال وهب بن منبه: سجد على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب، فأنبت الله تعالى بذلك الوادي من دموعه الدارصيني والقرنفل، وجعل طير ذلك الوادي الطواويس، ثم جاءه جبريل، فقال: ارفع رأسك، فقد غُفر لك، فرفع رأسه، وأتى الكعبة، فطاف أسبوعاً[1]، فما أتمه حتى خاض في دموعه. روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، بينما آدم يبكي جاءه جبريل، فسلم عليه، فبكى آدم، فبكى جبريل لبكائه، وقال: يا آدم ماهذا البكاء؟ قال: ياجبريل وكيف لا أبكي، وقد حولني ربي من السماء إلى الأرض، ومن دار النعمة إلى دار البؤس؟ فانطلق جبريل بمقالة آدم، فقال الله عز وجل: ياجبريل انطلق إليه، فقل: يا آدم ألم أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أُسجد لك ملائكتي؟ ألم أُسكنك جنتي؟ ألم آمرك فعصيتني؟ وعزتي وجلالي لو أن ملء الأرض رجالاً مثلك، ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، غير أنه يا آدم سبقت رحمتي غضبي، وقد سمعت تضرعك، ورحمت بكاءك، وأقلت عثرتك.

وقد حذرت قصة آدم من الذنوب، وخوفت عواقبها، وكان بعض السلف يقول: غرقت السفينة، ونحن نيام، آدم لم يسامَح بلقمة، ولا داود بنظرة، ونحن على مانحن فيه.

---

(١) أي سبعة اشواط.

يا ناظراً يرنو بعينَيْ راقد — ومشاهداً للأمر غير مشاهد
منَّيت نفسك ضلةً وأبحتها — طرق الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي — درج الجنان بها وفوز العابد
ونسيتَ أن الله أخرج آدماً — منها إلى الدنيا بذنب واحد

طوبى لمن قرن ذنبه بالاعتذار ، وملأ بكثرة الاستغفار آناء الليل والنهار ، والويل كل الويل لمن أحكم عقد الإصرار . أيها العاصي تفكر في حال أبيك ، وتذكر ماجرى له ويكفيك ، أُبعِد بعد القرب من ربه ، وأهبط من الجنة لشؤم ذنبه ، فأسره العدو بخديعته في حربه ، وهاهو يسعى في هلاكك فاعتبر به ، فرحم الله عبداً تأهب لمحاربة عدوه ، في رواحه وغدوّه ، فإنه يراصده في القول والعمل ، ويحسّن له بالمكر التسويف والأمل ، ويذكره الهوى وينسيه الأجل ، فليلبس أحصن الدروع من الوجل ، فالرامي يطلب الخلل .

اصبر لمُرّ حوادث الدهر — فلتحمدن مغبة الصبر
وامهد لنفسك قبل ميتتها — واذخر ليوم تفاضل الذّخر
فكأن أهلك قد دعوك فلم — تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد قلّبوك على — ظهر السرير وأنت لاتدري
ياليت شعري كيف أنت إذا — وضع الكتاب صبيحة الحشر

يا مضيع الزمان ، فيما ينقص الإيمان ، يامعرضاً عن الأرباح ، متعرضاً للخسران ، متى تنتبه من رقادك أيها الوسنان ؟ متى تفيق لنفسك ؟ أما حُقّ أما آن ؟ إلى متى ترفض قول الناصح ، وقد أتاك بأمر واضح ؟ أترضى بالشين والقبائح ؟ كأني بك قد نقلت إلى بطون الصفائح ، وبقيت محبوساً إلى الحشر تحت الضرائح ، وختم الكتاب على آفات وفضائح . من رأيت من آفات الدنيا سليم ؟ ومن شاهدت صحيحاً وماسقم؟ وأي حياة بالموت لم تنختم؟ وأي عمر بالساعات لم ينصرم ؟ إن الدنيا لغرور حائل ، وسرور إلى الشرور آيل ، تردي مستزيدها ، وتؤذي مستفيدها ، بينا طالبُها يضحك أبكته ، ويفرح

بسلامته أهلكته ، فندم على زلله ، إذ قدم على عمله ، وبقي رهين خوفه ووجله ، وودّ أن لو زيد ساعةً في أجله ، فما هو إلا أسير في حفرته ، وحسير في سفرته .

سبيلك في الدنيا سبيلُ مسافر ... ولابد من زادٍ لكل مسافر

ولابد للانسان من حمل عُدَّةٍ ... ولاسيما ان خفت صولة قاهر

وطُرقك طرق ليس تسلك دائماً ... وفيها عقاب بعد صعب القناطر

يروى أن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء ، عليها من كل زينةٍ ، فقال لها : كم تزوجت ؟ فقالت : لا أُحصيهم . قال : فكلهم مات عنك ، أو كلهم طلقك؟ فقالت : بل كلهم قتلت . فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ؟!

لقد أبانت الدنيا للنواظر عيوبها ، وكشفت للبصائر غيوبها ، وعددت على السامع ذنوبها ، وما مرت حتى أمرَّت مشروبها ، فلذتها مثل لمعان برقٍ ، ومصيبتها واسعة الخرق ، سوَّت عواقبها بين سلطان الغرب والشرق ، وبين عبدٍ قِنٍّ ولا فرق ، فما نجا منها ذو عدد ولا سلم منها صاحب عدد ، مزقت والله الكل بكف البدد ، ثم ولَّت وما ألوت على أحد .

إلامَ تغرُّ بالأمل الطويل ... وليس إلى إلا قامة من سبيل

فدع عنك التعلُّل بالأماني ... فما بعد المشيب سوى الرحيل

أترجو أن تدوم لك الليالي ... وكم أفنين قبلك من خليل

وما زالت بنات الدهر تفني ... بني الأيام جيلًا بعد جيل

فصـــل

في قوله تعالى : (التائبون العابدون) التوبة : ١١٢ قد أمر الله عز وجل بالتوبة ، فقال : (وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) النور : ٣١ ووعد القبول عليها ، فقال : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) الشورى : ٢٥ وفتح باب الرجاء ، فقال : (ولا تقنطوا من رحمة الله) االزمر : ٥٣ . أخرج مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس توبوا الى ربكم فإني أتوب اليه في اليوم مائة مرة » وفي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل بأرض دوّيةٍ مهلكةٍ ، معه راحلته ، فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا أدركه الموت ، قال : أرجع الى مكاني الذي أضللتها فيه فأموت فيه ، فأتى مكانه ، فغلبته عينه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده ، وما يصلحه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً الي ، وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود : هذه ارادتي في المدبرين عني ، فكيف ارادتي في المقبلين عليّ .

إخواني طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن خطاياه قبل فوت الأوبة ، وبادر الممكن قبل أن لا يمكن . لله درّ أقوام تركوا فأصابوا ، وسمعوا منادي الله يدعو فأجابوا ، وحضروا مشاهد التقى فما غابوا ، واعتذروا مع التحقيق ، ثم تابوا ، وقصدوا باب مولاهم فما ردوا ولا خابوا .

روي عن منصور بن عمار قال : خرجت ليلة وظننت أني أصبحت ، وإذا عليّ ليل ، فقعدت عند باب صغير ، فإذا بصوت شاب يبكي ، ويقول : وعزتك وجلالك ماأردت بمعصيتي مخالفتك ، وقد عصيتك حين عصيتك ، وما أنا بنكالك جاهلاً ، ولا لعقوبتك متعرضاً ، ولا بنظرك مستخفاً ، ولكن سولت لي نفسي ، وغلبتني شقوتي ، وغرني سترك المرخى علي ، فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه من أيامي في معصية ربي ، يا ويلي كم أتوب ، وكم أعود ، وقد حان لي أن أستحي من ربي . قال منصور : فلما سمعت كلامه ؛ قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) التحريم : الآية ٦ . فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً ، ومضيت لحاجتي ، فلما

أصبحنا رجعت ، وإذا أنا بجنازة على الباب ، وعجوز تذهب وتجيء ، فقلت لها : من الميت ؟ فقالت : إليك عني لا تجدد علي أحزاني ، فقلت : إني رجل غريب ، فقالت : هذا ولدي مر بنا البارحة رجل لا جزاه الله خيراً ، فقرأ آية فيها ذكر النار ، فلم يزل ولدي يضطرب ، ويبكي حتى مات . قال منصور : هكذا والله صفة الخائفين .

يا ابن عمار ، يا صاحب الخطايا ، أين الدموع الجارية ؟ يا أسير المعاصي ابك على الذنوب الماضية ، يا مبارزاً بالقبيح أتصبر على الهاوية ؟ يا ناسياً ذنوبه ، والصحف لها حاوية ، يا كثير الشقاق ، يا قليل الوفاق ، يا قبيح الأخلاق ، يا عظيم التواني قد سار الرفاق ، يا شديد التمادي قد صعب اللحاق ، معاصيك في ازدياد والعمر في انمحاق ، وساعي الأجل مجدٌ كأنه في سباق ، لا الوعظ يزجرك ، ولا الموت ينذرك ما تطاق ، أسفاً لك إن جاء الموت وما أنبت ، وحسرة لك إذا دعيت إلى التوبة فما أجبت ، كيف تصنع إن نودي بالرحيل وما تأهبت ؟

قد مضى في اللهو عمري وتناهى بي أمري
شمَّر الأكياس والتفريـط قد شتت فكري
بان ربح الناس دوني ولحيني بان خسري
ليتني أقبل وعظي ليتني أسمع زجري
كل يوم أنا رهن بين آثامي ووزري
ليت شعري هل أرى لي همة في فكِّ أسري
ويح قلبي من تناسيه مقامي يوم حشري
واشتغالي عن خطايا أثقلت مني ظهري

سبحان من وفق للتوبة أقواماً ، وثبت لهم على صراطها أقداماً ، كفُّوا الأكفَّ عن المحارم احتراماً ، وأتعبوا في استدراك الفارط عظاماً ، فكفَّر عنهم ذنوباً كانت عظاماً ، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلاماً ، فهم على رياض المدائح بترك القبائح يتقلبون التائبون العابدون . كشف لهم سجف الدنيا فرأوا عيوبها ، وألاح لهم الأخرى فتلمحوا غيوبها ، وبادروا شمس الحياة ، يخافون غروبها ، واشتغلوا بالطاعات فحصلوا مرغوبها ،

وحثهم الإيمان على الخوف فما يأمنون ، التائبون العابدون . ندموا على الذنوب فندبوا ، وسافروا إلى المطلوب فاغتربوا ، فإذا أقلقهم الحذر طاشوا وهربوا ، وإذا هب عليهم نسيم الرجاء عاشوا وطربوا ، فتأمل أرباحهم ، وتلمح ما اكتسبوا ، واعلم أن نيل النصيب بالنصيب يكون . التـــائبون العابدون . نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار ، فعلموا أنها لا تصلح للقرار ، وتأملوا أساسها فإذا هو على شفا جرفٍ هارٍ ، فرفضوا بالصيام لذةالهوى بالنهار ، وبالأسحار هم يستغفرون . التائبون العابدون . هجروا المنازل الأنيقة ، وفصموا عرى الهوى الوثيقة ، وباعوا الفاني بالباقي و كتبوا وثيقة ، وطـــلبوا الآخرة والله على الحقيقة ، هكذا يكون التائبون العابدون .

أبدانهم تلقى من الجوع الضرر ، وأجفانهم قد حالفت في الليل السهر ، ودموعهم تجري دائمة كما يجري المطر ، والقوم قد تأهبوا فهم على أقدام السفر ، عبروا عليـــكم ومروا لديكم وماعندكم خبر ، وترنمت حداتهم لو أنكم تسمعون التائبون العابدون .

اللهم سر بنا في سرب النجابة ، ووفقنا للتوبة والإنابة ، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة . يا من إذا سأله المضطر أجابه ، يامن يقول للشيء كن فيكون .

اللهم وسلمنا من كل الأسوى ، ولا تجعلنا محلاً للبلوى ، وطهر أسرارنا من الشكوى ، وألسنتنا من الدعوى .

اللهم محّص ذنوبنا بظهور اسمك الغفار ، وامح من ديوان الأشقياء شقاءنا ، واكتبه عندك في عنوان الأخيار .

اللهم أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن ، أنت قلت (أُدعوني أَستجب لـكم) غافر : ٦٠ . فها نحن متوجهون إليك بكليّتنا ، فلا تردّنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

اللهم تب علينا توبة نصوحاً لا ننقض عهدها أبداً ، واحفظنا في ذلك لنكون بها من جملة السعداء ، وردّنا برداء من عندك حتى نحتجب به عن وصول أيدي العداء .

اللهم جئناك بجمعنا متوسلين إليك في قبولنا ، متشفعين إليك في غفران ذنوبنا ، فلا تردنا خائبين ياسند المستندين وياجار المستجيرين .

اللهم ألهمنا القيام بحقك ، وبارك لنا في الحلال من رزقك ، ولاتفضحنا بين خلقك ، ياخير من دعاه داعٍ ، وأفضل من رجاه راجٍ ، ياقاضي الحاجات ، يامجيب الدعوات ، هب لنا ماسألناه ، وحقق رجانا فيما تمنيناه ، يامن يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمائر الصامتين ، أذقنا برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك ، يا أرحم الراحمين آمين .

المجلس الثاني

في قصة قابيل وهابيل

الحمد لله الذي نصب من كل كائن على وحدانيته برهاناً ، وتصرّف في خليقته كما شاء عزاً وسلطاناً ، واختار المتقين فوهب لهم أمناً وإيماناً ، وعم المذنبين بحلمه ورحمته عفواً وغفراناً ، ولم يقطع أهل معصيته جوداً وامتناناً ، وأعاد شؤم الحسد على الحاسد ، لأنه ارتكب عدواناً (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قربانا) المائدة : ٢٧ روّح أهل الإخلاص بنسيم قربه ، وحذّر يوم القصاص بجسيم كربه ، وحفظ السالك نحو رضاه في سربه ، وأكرم المؤمن به إذ كتب الإيمان في قلبه . حكم بربيته ، فأمر ونهى ، وأقام بمعونته ما ضعف ووهى ، وأيقظ بموعظته من غفل وسها ، ودعا المذنب إلى توبته لغفران ذنبه . رد عيون العقل عن صفته وأغشاها . وأنذر بيوم محاسبته من يخشاها ، وخلق لآدم حواء (فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به) الأعراف : ١٨٩ ليس بجسم فيشبه الأجسام ، ولا بمتجوّف فيحتاج إلى الشراب والطعام ، ولا تحدث له صفة فيتطرق عليها انعدام ، بل نصفه بالنقل من غير كيف والسلام ، ولعن الله الجهميّ والمشبه .

أحمده حمد عبد لربه ، معتذراً لله من ذنبه ، وأقر بتوحيده إقرار مخلص من قلبه ، وأصلي على رسوله محمد وصحبه ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق ضجيعه في تربه ، وعلى عمر الذي لا يسير الشيطان في سربه ، وعلى عثمان الشهيد لا في صف حربه ، وعلى علي معينه ومغيثه في كربه ، وعلى سائر آله وحزبه وسلم تسليما .

اللهم ارحم كلاً منا بإصلاح قلبه ، وأنعم عليه بغفران ذنبه ، وانفعني وكل حاضر بجسده ولبه .

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) المائدة : ٢٧ ولدت حواء لآدم أربعين بطناً ، وكانت لا تلد إلا توأماً ذكرا وأنثى ، وأول الأولاد قابيل ؛ وتوأمته إقليما ، وجاء هابيل ، وتوأمته ليوذا ، وقابيل وهابيل هما المراد بقوله تعالى (ابني آدم) .

روى السدي عن أشياخه : أن آدم كان يزوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر وجارية هذا البطن غلام ذاك البطن الآخر ، فولد له قابيل وهابيل ، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل ، فطلب هابيل أن ينكح أخت قابيل ، فأبى عليه فقرّبا قرباناً ليقبل من أحقها بالمستحسنة ، فقرب هابيل جذعة سمينة ، وقرب قابيل حزمة سنبل ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فغضب ، وقال : لأقتلنك .

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه لما قتله حمله على عاتقه مائة سنة ، وإذا مشى تخط رجلاه الأرض ، وإذا قعد وضعه الى جنبه الى أن رأى غرابين اقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، ثم بحث الأرض فواراه ، فقال حينئذ: ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ، فأصبح من النادمين على حمله لا على قتله . فلما قتله هرب إلى اليمن ، وحزن آدم على هابيل ، فمكث مائة سنة لا يضحك ، وقال شعراً :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح
تغير كل ذي لون وطعم وقلّ بشاشة الوجه المليح

قال مجاهد : قال عبد الله بن عمرو : إنا لنحدث أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب قسمة صحيحة ، عليه شطر عذابهم . ويشهد لهذا القول ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » أخرجه البخاري ومسلم في « الصحيحين » .

وقد حذرت هذه القصة من الحسد ، فإنه أخرج قابيل الى القتل كما أخرج إبليس الى الكفر ، والقتل أمر عظيم ، ففي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : قال « أول ما يقضي الله بين الناس يوم القيامة في الدماء » وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « لن يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً» أخرجه البخاري .

وعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ، قال « لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا » وفي حديث آخر : « من أعان على قتل امرئ مسلم ولو بشطر كلمة لقي الله ، مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » :

أخي إنما الدنيا محلّة نغصةٍ ... ودار غرورٍ آذنت بفراق
تزوّد أخي من قبل أن تمكن الثرى ... ويلتف ساق للممات بساق

أين آباؤك الذين مروا وسلفوا ؟ أين أقرانك أما رحلوا وانصرفوا ؟ أين أرباب القصور أقاموا في القبور وعكفوا ؟ أين الأحباب هجرهم المحبون وصدفوا ؟ فانتبه لنفسك فالمتيقظون قد عرفوا ، فسيحملك الأهل إلى القبر ، وربما مروا فانحرفوا .

نادت بوشك رحيلك الأيام ... أفأنت تسمع أم بك استصمام
تأتي الخطوب وأنت منتبه [لها] ... فإذا مضت فكأنها أحلام

يا غافلاً مايفيق ، ياحاملاً مالايطيق ، ألست الذي بارزت بالذنوب مولاك ؟ ألست الذي عصيته وهو يراك ؟ أسفاً لك ما الذي دهاك ؟ حتى بعت هُداك بهواك . ياليت عينك أبصرت ذُل الخطايا قد علاك . كان محمد السماك يقول : يا ابن آدم أنت في حبس مذ كنت . أنت محبوس في الصلب ، ثم في البطن ، ثم في القماط ، ثم في المكتب ، ثم تصير محبوساً في الكدّ على العيال ، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت ، لئلا تكون في حبس أيضاً . وكان أبو حازم يقول : انظر كل عمل كرهت الموت لأجله فاتركه ، ولايضرك متى مُت . يارضيع الهوى وقد آن فطامه ، ياطالب الدنيا وقد حان حمامه ، ألـلدنيا خلقت ؟ أم بجمعها أمرت ؟ يامن لايتعظ بأبيه ولابابنه ، يامؤثر الفاني على جودة ذهنه ، يامتعوّضاً عن فرح ساعة بطول حزنه ، يامسخطاً للخالق لأجل المخلوق ضلالاً لإفنيه . أمالك عبرة فيمن ضعضع مشيد ركنه ؟ أما رأيت راحلاً عن الدنيا يوم ظعنه ؟ أما تصرفت في ماله أكفّ غيره من غير إذنه ؟ أما انصرف الأحباب عن قبره حين دفنه ؟ أما

تخلى بمكتسبه في ضيق سجنه ؟ تنبه والله من وسنه بقرع سنه ، ولقي في وطنه مالم يخطر على ظنه ، ياذلة مقتول هواه ، ياخسران عبد بطنه .

ياليت شعري ما ادخرت ليوم بؤسك وافتقارك
فلتنزلن بمنزل تحتاج فيه إلى ادّخارك
فلو اعتبرت بمن مضى لكفاك علماً باعتبارك
لك ساعة تأتيك من ساعات ليلك أو نهارك
فتصير محتضراً بها فتهي من قبل احتضارك
من قبل أن تُلقى وتُقصى ثم تخرج من ديارك
من قبل أن يتشاغل الزوار عنك وعن مزارك

قال رجل لداود الطائي : أوصني . فدمعت عيناه ، وقال : ياأخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس ، مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي ذلك إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم زاداً لما بين يديك فافعل ، فإن انقطاع السفر عن قريب ، والامر أعجل من ذلك ، فتزود لنفسك ، واقض ماأنت قاضٍ ، فكأنك بالأمر وقد بغتك . إني أقول لك هذا ، وما أعلم أحداً أشد تقصيراً مني ، ثم قام وتركني .

يالاهياً بالمنى قد غرّه الأمل وأنت عماقليل سوف ترتحل
تبغي اللحوق بلا زاد تقدمه إن المخفّين لما شمروا وصلوا
لاتركنن إلى الدنيا وزينتها فأنت من عاجل الدنيا ستنتقل
أصبحت ترجو غداً يأتي وبعد غدٍ
ورب ذي أمل قد خانه الأجل
ماذا التعلل بالدنيا وقدنشرت لأهلها صحة في طيّها علل

فصل

في قوله تعالى (وسارِعوا إلى مغفرة من ربّكم) سورة آل عمران : الآية ١٣٣ .

لقد دعاكم إلى البدار مولاكم ، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم ، ودلكم على منافعكم

وهداكم ، فالتفتوا عن الهوى فقد أرداكم ، وحتّوا جرم جرمكم ، وصبّوا ذنوب الحزن على ذنبكم ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم . بابه مفتوح للطالبين ، وفضله مبذول للراغبين ، فاخرجوا من دائرة المذنبين ، وبادروا مبادرة التائبين ، وتعرضوا لسمات الرحمة ، تخلصوا من كربكم ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم .

كم اشتغلتم بالمعاصي فذهب الفرض ، وبارزتم بالخطايا ونسيتم العرض ، وطالت آمالكم بعد أن ذهب الشباب الغض ، ورأيتم سلب القُرناء وقد أنذر البعض البعض ، ففِروا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرض ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . لله در أقوام بادروا الأوقات ، واستدركوا الهفوات ، فالعين مشغولة بالدموع عن المحرمات ، واللسان محبوس في سجن الصمت عن الهلكات ، والكف قد كُفت بالخوف عن الشهوات ، والقدم قد قيّدت بقيد المحاسبات ، والليل لذّتهم يجأرون فيه بالأصوات ، فإذا جاء النهار قطعوه بمقاطعة اللذات ، فكم من شهوة مابلغوها حتى الممات . فتيقظ للحاقهم من هذه الرقدات ، ولا تطمعن في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات ، ولاتؤملن النجاة وأنت مقيم على الموبقات (أم حسِب الذين اجترَحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الجاثية: ٤٥ .

دارِك فما أمرك بالواني ... ولا تثق بالعمر الفاني
يأتي لك اليوم بما تشتهي ... فيه ولا يأتي لك الثاني
ويأمل الباني بقاء الذي ... يبني وقد يُختلس الباني
تصبح في شأن بما تقتضي ... الآمال والأيام في شان
فانظر بعين الحق مستبصراً ... إن كنت ذا عقل وعرفان
هل نال من جمّع أمواله ... يوماً سوى قبر وأكفان
أليس كسرى بعدما ناله ... زُحزح عن قصرٍ وإيوان
وعاد في حفرته خالياً ... بتربة تُبلي وديدان
كم تلعب الدنيا بأبنائها ... تلاعب الخمر بنشوان
والناس في صحبتها ضحكة ... قد رفضوا الباقي بالفاني
وهم نيام عن ملمّاتها ... تبصرهم في زيّ يقظان

لما علم الصالحون قصر العمر ، وحثهم حادي (وسارِعوا) طووا مراحل الليل مع النهار انتهاباً للأوقات . كان في مسجد أبي مسلم الخولاني سوط يخوف بـه نفسه ، فإذا فترت ضربها بالسوط . وكان مصلى وهب بن منبه فراشه أربعين سنة ، وبقي عشرين سنة يصلي الفجر بوضوء العشاء . وكان أويس القرني يقول : لأعبدن الله عبادة الملائكة ، فيقطع ليلةً قائماً ، وليلةً راكعاً ، وليلةً ساجداً . وكان علي بن عبد الله بن العباس يسجد كل يوم ألف سجدة ، فسمي السجاد . وكان كرز بن وَبرة يعصّب رجليه بالخرق ، لكثرة صلواته .

هـذه والله صفات المجتهدين ، وهذه خصال المبادرين ، فاعلموا ياجاهلـين ، وانتبهوا ياغافلين ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين .

قوله تعالى : (الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء) سورة آل عمران : ١٣٤ . أي في العسر واليسر . (والـكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) . الكظم : هو الإمساك عما في النفس .

روي عن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفّذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيّره أي الحور العين شاء » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تجرّع عبدٌ جرعـة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجهه » وروى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » وشتم رجل الشعبيَّ ، فجعل يقول : أنت كذا ، أنت كذا ، فقال الشعبي : إن كنت صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وقيل للفضل بن بردان : إن فلانا يشتمك ، فقال : لأغيظن من أمره ، يغفر الله لنا وله . وقيل : من أمره . قال الشيطان . قوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله) آل عمران : ١٣٥ الفاحشة : القبيحة ، وهي الكبائر . والاستغفار يمحو أثر الذنوب . أسفاً لعبد كلما كبرت أوزاره قل استغفاره ، وكلما قرب من القبور ، قوي عنده الفتور .

يامُدمن الذنب أما تستحي ... اللهُ في الخلوة ثانيكما
غرك من ربك إمهاله ... وستره طول مساويكما

فرحم الله عبداً اقترف فاعترف ، ووجل فعمل ، وحاذر فبادر ، وعُمِّر فاعتبر ، وأجاب فأناب ، وراجع فتاب ، وتزود لرحيله ، وتأهب لسبيله ، قبل ظهور العجائب ، ومشيب الذوائب ، وقدوم الغائب . فهل ينتظر أهل نضارة الشباب إلا الهرم؟ وأهل بضاضة الصحة إلا السقم؟ وأهل طول البقاء إلا مفاجآت الفناء واقتراب الفوت ونزول الموت ، وأزف الانتقال ، وإشفاء الزوال ، وحفز الأنين ، ورشح الجبين ، وعلن القلق ، وقنَط الرمق .

اللهم اجعلنا ممن أفاق لنفسه ، وفاق بالتحفظ أبناء جنسه ، وأعد عدة تصلح لرمسه ، واستدرك في يومه ماضي أمسه . اللهم إنا قد أمسينا لانملك دفعاً ، ولارفعاً ولا ضراً ولا نفعاً ، فقراء لاشيء لنا ، ضعفاء لاقوة لنا ، والخير كله بيديك ، وأمر كل شيء راجع إليك . اللهم فقوّنا على ماأمرتنا ، وأعنا على ما كلفتنا . اللهم إنك قد سألتنا من أنفسنا مالانملكه إلا بك . اللهم فهب لنا منها مايرضيك عنا . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أنت ربنا ، ونحن عبيدك ، ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا ، فاغفر لنا ذنوبنا جميعاً إنه لايغفر الذنوب إلا أنت . اللهم خذ بأيدينا إليك ، أخذ الكرام عليك ، وقوّمنا إذا اعوججنا ، وأعنا إذا استقمنا ، وكن لنا حيث كنا . اللهم أعطنا من الخير فوق مانرجو ، واصرف عنا من السوء فوق مانحذر ، فإنك تمحو ماتشاء وتثبت وعندك أمُّ الكتاب . اللهم بروح منك أيدنا ، ومن علمك المكنون علمنا ، وعلى دينك الذي رضيته ثبّتنا ، واجعلنا ممن سبقت لهم منك الحسنى . اللهم أحينا في الدنيا مؤمنين طائعين ، وتوفّنا مسلمين تائبين ، واجعلنا عند السؤال ثابتين ، واجعلنا ممن يأخذ الكتاب باليمين ، واجعلنا يوم الفزع الأكبر آمنين ، وأوصلنا برحمتك وكرمك إلى جنات النعيم ، ونجّنا بعفوك وحلمك من العذاب الأليم ، يابرُّ يارحيم يا كريم ، آمين .

المجلس الثالث

في ذكر ادريس عليه السلام

الحمد لله الذي لم يزل عليماً عظيماً علياً ، جباراً قهاراً قادراً قوياً ، رفع سقف السماء بصنعته فاستوى مبنياً ، وسطح المهاد بقدرته وسقاه كلما عطش ريّاً ، وأخرج صنوف النبات ، وكسا كل نبت زياً ، قسم الخلائق سعيداً وشقياً ، والرزق بينهم فترى فقيراً وغنياً . ألهم إدريس الاحتيال على جنته ، فهو يتناول لذاتها ويلبس حليّاً (واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صديقاً نبياً) مريم : ٥٦ . فهو الذي جاد على أوليائه بإسعاده ، وبيّن لهم منهاج الهدى بفضله وإرشاده ، ورمى المخالفين بطرده وإبعاده ، وأجرى البرايا على مشيئته ومراده ، واطلع على سر العبد وقلبه وفؤاده ، وقدّر صلاحه وقضى عليه بفساده فهو الباطن والظاهر ، وهو القاهر فوق عباده .

أحمده حمد معترف بإنشائه وإيجاده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تجلو قلب قائلها من رَين سواده ، وأن محمداً عبده ورسوله الى جميع خلقه في كل بلاده ، وعلى صاحبه أبي بكر حارس الإسلام يوم الردة عن ارتداده ، وعلى عمر الذي نطق القرآن بمراده ، وعلى عثمان مشتري سلع السهَر بنقد رقاده ، وعلى علي قامع أعدائه ومهلك أضداده ، وعلى سائر صحبه وأحفاده ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى عز وجل (واذكر في الكتاب ادريس إنه كان صدّيقاً نبياً)

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو أول نبي بُعث بعد آدم ، وكان يصعد له من العمل في اليوم مالايصعد لبني آدم في السنة ، فحسده إبليس ، وعصاه قومه ، فرفعه الله مكاناً علياً ، وأدخله الجنة .

قيل : وهو أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ورفع وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة في السماء الرابعة ، وسبب صعوده الى السماء أنه كان يصعد له من العمل بمثل

مايصعد لجميع بني آدم ، فأحبه ملك الموت فاستأذن الله تعالى في خلته ، فأذن له فهبط إليه في صورة آدمي ، وكان يصحبه ، فلما عرفه قال : إني أسألك حاجة . قال : ماهي قال : تذيقني الموت ، فلعلي أعلم شدته ، فأكون له أشد استعداداً . فأوحى الله إليه أن اقبض روحه ساعة ، ثم أرسله ففعل ، ثم قال : كيف رأيت ؟ قال : كان أشد مما بلغني عنه ، وأحب أن تريني النار ، فحمله فأراه إياها . قال : إني أحب أن تريني الجنة فأراه إياها ، فلما دخلها ، وطاف فيها ، قال له ملك الموت : اخرج ، فقال : والله لاأخرج حتى يكون الله عز وجل يخرجني ، فبعث الله عز وجل ملكاً يحكم بينهما ، فقال : ماتقول ياملك الموت؟ فقص عليه ماجرى . فقال : ماتقول ياإدريس؟ قال : إن الله تعالى يقول : (كل نفس ذائقة الموت) آل عمران : ١٨٥ . وقد ذقته . وقال : (وإن منكم إلا واردها) مريم : ٧١ . وقد وردت . وقال لأهل الجنة (وماهم منهابمخرجين) الحجر: ٤٨ . فوالله لاأخرج حتى يكون الله تعال يخرجني ، فسمع هاتفاً من فوقه يقول : بإذني دخل ، وبإذني فعل . فخلّى سبيله . هذا معنى مارواه زيد بن أسلم مرفوعاً الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال علماء السير : وكان إدريس قد وصّى قبل رفعه الى السماء الى ولده متوشلخ ، وكان ولداً صالحاً ، وولد لمتوشلخ لمك ، وولد للمك نوح عليه السلام .

حقيق بالتواضع من يموت   وحسب المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا اهتمام   وحزن لاتقوم له النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب   الى قوم كلامهم السكوت

بادر أيها الشاب قبل الهرم ، واغتنم أيها الصحيح قبل السقم ، قبل أن يتمكن من بدنك الألم ، ويقول لسان العتاب : ألم أقل لك ألم؟ .

قال نبينا ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

وقال عيسى عليه السلام : لاينتظر امرؤ بتوبته غداً ، فإن بينه وبين غدٍ يوماً وليلة وأمر الله غادٍ ورائح .

فيامن يرجو الثواب بغير عمل ، ويرجّي التوبة بطول الأمل ، تقول في الدنيا قول الزاهدين ، وتعمل فيها عمل الراغبين ، لابقليل منها تقنع ، ولا بكثير فيها تشبع ، تكره الموت لأجل ذنوبك ، وتقيم على ماتكره الموت له من عيوبك، تغلبك نفسك على ماتظن ، ولاتغلبها على ماتستيقن ، ماتثق من الرزق بما ضمن لك ، ولا تعمل من العمل مافرض عليك ، تستكثر من معصية غيرك ، ماتحتقره من نفسك .

أما تعلم أن الدنيا كالحية ليّن مسها ، والسم الناقع في جوفها ، يُهوي اليها الصبي الجاهل ، ويحذرها اللبيب العاقل . كيف تقرُّ عين من عرفها؟ ومَاأبعد أن يفطم عنها من ألفها . فتفكروا إخواني في أهل الفساد ، وأهل الصلاح ، وميزوا أهل الخسران من أهل الأرباح . فياسرعان عمر يفنيه المساء والصباح ، فتأهبوا للرحيل فياقرب السراح ، وتفكروا فيمن غرّته أفراح الراح ، كيف راح عن الدنيا فارغ الراح ، فالهوى ليل مظلم ، والفكر مصباح .

روي عن أبي بكر العطار ، قال : حضرت الجنيد عند الموت أنا وجماعة من أصحابنا ، وكان قاعداً يصلي ، ويثني رجله إذا أراد أن يركع ويسجد ، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه ، فثقل عليه تحريكهما ، وكانت رجلاه قد تورمت ، فقال له بعض أصدقائه : ماهذا يا أبا القاسم؟ فقال : هذا نِعَم « الله أكبر » فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري : يا أبا القاسم لو اضطجعت ، فقال : يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ منه «الله أكبر» فلم يزل ذلك حاله حتى خرجت روحه .

وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر ، وحج ثمانين حجة . وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة ، وقام ليلها ، وكان يبكي طول الليل ، فتقول له أمه : يابني قتلت قتيلاً؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسي .

طوبى لمن تنبه من رقاده ، وبكى على ماضي فساده ، وخرج عن دار المعاصي إلى دائرة سداده ، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيح اقترافه ، قبل أن يقول فلا ينفع ، ويعتذر فلايسمع .

جنحت شمس حياتي وتدلت للغروب
وتولى ليل رأسي وبدا فجر المشيب
رب خلصني فقد لجت في بحر الذنوب
وأنلني العفو يا أقرب من كل قريب

فصل

في قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) يونس : ١٠

إخواني ؛ ليس المراد بالنظر الى مافي السماوات والأرض ملاحظته بالبصر ، وإنما المراد التفكر في قدرة الصانع سبحانه .

روي عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقيل لها: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت : التفكر . وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة . وقال الحسن رحمه الله تعالى : التفكر مرآة تريك حسناتك وسيآتك . وقال أيضاً : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكر فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو . وقال وهب بن منبه : ماطالت فكرة امرىء قط إلا علم ، ولا علم إلا عمل . بينا أبو شريح العابد يمشي ، جلس فتقنع بكسائه ، وجعل يبكي ، فقيل له : مايبكيك ؟ فقال : تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي .

واعلم أن التفكر ينقسم الى قسمين . أحدهما : يتعلق بالعبد ، والثاني بالمعبود . فأما المتعلق بالعبد ، فينبغي أن يتفكر هل هو على معصية أم لا؟ فإن رأى زلةً تدار كها بالتوبة والاستغفار ، ثم يتفكر في نقل الأعضاء من المعاصي الى الطاعات ، فيجعل شغل العين العبرة ، وشغل اللسان الذكر ، وكذلك سائر الأعضاء ، ثم يتفكر في الطاعات ، ليقوم بواجبها ، ويجبر واهيها ، ثم يتفكر في مبادرة الأوقات بالنوافل طلباً للأرباح ، ويتفكر في قصَر العمر ، فينتبه حذراً أن يقول غداً ياحسرتي على مافرطت ، ثم يتفكر في صفات باطنه فيقمع الخصال المذمومة ، كالكبر والعجب والبخل والحسد ، ويوالي الخصال

الممدوحة ، كالصدق والإخلاص والصبر والخوف ، وفي الجملة يتفكر في زوال الدنيا فيرفضها ، وفي بقاء الآخرة فيعمرها .

وأما المتعلق بالمعبود ، فقد منع الشرع من التفكر في ذات الله تعالى وصفاته ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تفكروا في خلق الله ولاتفكروا في الله ، فإنكم لن تقدروا قدره » فلم يبق إلا النظر في الآثار التي تدل على المؤثِّر ، وجميع الموجودات من آثار قدرته ، وأعجب آثاره الآدميُّ ، فإنك إذا فكرت في نفسك كفى ، وإذا نظرت في خلقك شفى . أليس قد فعل في قطرة ماء مالو انقضت الأعمار في شرح حكمته ماوفَّت؟ كانت النطفة مغموسة في دم الحيض ، ونقَّاش القدر يشق السمع والبصر ، خلق منها ثلاثمائة وستين عظماً ، وخمسمائة وتسعاً وعشرين عضلة ، كل شيء من ذلك تحته حكمة ، فالعين سبع طبقات ، وأربع وعشرون عضلة لتحريك حدقة العين وأجفانها ، لو نقصت منها واحدة لاختل الأمر ، وأظهر في سواد العين على صغره صورة السماء مع اتساعها ، وخالف بين أشكال الحناجر في الأصوات ، وسخر المعدة لإنضاج الغذاء ، والكبد لإحالته إلى الدم ، والطحال لجلب السوداء ، والمرارة لتناول الصفراء ، والعروق كالخدم للكبد تنفذ معها الدماء إلى أطراف البدن .

فيا أيها الغافل ماعندك خبر منك ، ولاتعرف من نفسك إلا أن تجوع ، فتأكل فتشبع فتنام ، وتغضب فتخاصم ، فبماذا تميَّزت عن البهائم ؟ واعجباً لك لو رأيت خطاً مستحسن الرقم لأورثك الدهش من حكمة الكاتب ، وأنت ترى رقوم القدرة ، ولاتعرف الصانع ، فإن لم تعرفه بتلك الصفة فتعجب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك .

عشتُ دهراً بالتمني ... هائماً في كل فنٍّ
قانعاً من أم دفر[1] ... بأباطيل التمني
أتّقيها وهي تصميني من تحت المجنّ
والمنى تدني إليها ... والمدى فوق المسنّ

---

(١) يقال للدنيا : أم دَفْرٍ .

ثم لا آخذ منها مثل ما تأخذ مني
أيها المعجل عنها وهو شبه المتأني
ليس للمزعج بالسير ركوب المطمئن
ليت شعري والفتى مغرى بأني ولو آني
أيُّ شيء صحّ منها للحريص المتعني ؟
أنا إذ أشكو فلا تسمع شكوى المتجني
كمجيب ظلّ يبكي للحمام المتغني

أيها العبد بعين فكرك وعقلك ، هل تجد سبيلاً لخلاص مثلك ؟ مع إقامتك على فعلك . أين اعتبارك بانطلاق أسلافك ؟ أين فكرك في فراق ألافك ؟ متى تنتقل عن قبح خلافك ؟

قل للمفرط يستعدّ ما من ورود الموت بُدّ
قد أخلق الدهر الشبا ب وما مضى لا يسترد
أوَ ما يخاف أخو المعا صي من له البطش الأشد
يوماً يعاين موقفاً فيه خطوب لا تحد
فإلام يشتغل الفتى في لهْوِهِ والأمر جدّ ؟
أبداً مواعيد الزمان لأهله تعب وكد
يا من يؤمّل أن يقيم به وحادي الموت يحدو
وتروح داعية المنون على مآملنا وتغدو
يختال في ترف النعيم ودونه قبر ولحد
والعمر يقصر كل يوم ثم في الآمال مد

سبحان من أظهر العجائب في مصنوعاته ، ودل على عظمته بمبدعاته ، وحثّ على تصفُّح عبره وآياته ، وأظهر قدرته في البناء والنقض (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) .

سَعِد من تدبّر ، وسلم من تفكر ، وفاز من نظر واستعبر ، ونجى من بحر الهوى من تصبّر ، وهلك كل الهلاك وأدبر ، من نسي الموت مع الشعر المبيض (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) يونس : ١٠١

يا أرباب الغفلة اذكروا ، ويا أهل الإعراض احضروا ، يا غافلين عن المنعم اشكروا ، يا أهل الهوى خلوا الهوى واصبروا ، فالدنيا قنطرة فجوزوا واعبروا ، وتأملوا هلال الهدى ، فإن غم عليكم فاقدروا ، فقد نادى منادي الصلاح : حي على الفلاح ، فأسمع أهل الطول والعرض (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) يونس : ١٠١

قوله تعالى (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) كيف تصلح الفكرة لقلب غافل ؟ وكيف تقع اليقظة لعقل ذاهل ؟ وكيف يحصل الفهم للبٍّ عاطل ؟ يا عجباً لمفرّط والأيام قلائل ، ولمائل الى ركن مائل ، لقد خاب الغافلون ، وفاز المتيقظون ، (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) من كتب عليه الشقاء كيف يسلم ؟ ومن عمي قلبه كيف يفهم ؟ ومن أمرضه طبيبه كيف لا يسقم ؟ ومنِ اعوجّ في أصل وضعه فبعيدٌ أن يتقوم . هيهات من خلق للشقاء فللشقاء يكون ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . كم عمل ردّ على عامله ، وكم أمل رجع بالخيبة على آمله ، وكم عامل بالغ في إتعاب مفاصله ، فهبت ريح الشقاء لتبديد حاصله ، لقد نودي على المطرودين ولكن ما يسمعون ، (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) يونس : ١٠١

اللهم أيقظنا من سنة الغفلة والجهالة ، وعافنا من داء الفتور والبطالة ، وارزقنا الاستعداد لما وعدتنا ، وأدم لنا فضلك وإحسانك كما عوّدتنا ، وامنن علينا بإتمام ما به أكرمتنا .

اللهم إنا نسألك ياذا الجلال والإكرام ، يا عزيزاً لا تحيط به الأوهام ، يا من لا غنى لشيء عنه ، ولا بد لكل شيء منه ، يا من رزق كل حي عليه ، ومصير كل شيء إليه ، يا من يعطي من لا يسأله ، ويجود على من لا يؤمله ، ها نحن عبيدك الخاضعون لهيبتك ، المتذللون لعزك وعظمتك ، الراجون لجميل رحمتك ، أمرتنا ففرطنا ولم تقطع عنا نعمك ،

ونهيتنا فعصينا ولم تحرمنا كرمك ، وظلمنا أنفسنا مع فقرنا إليك ، فلم تقطعنا مع غناك عنا يا كريم .

اللهم ردّنا إليك بفضلك ورحمتك ، ووفقنا للاقبال عليك . والاشتغال بخدمتك .

اللهم ارحمنا فإنك بنا عالم ، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر ، أنت البادي بالإحسان قبل توجه السائلين ، وأنت الجواد بالعطاء قبل طلب الراغبين ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، وكيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

اللهم اجعل في قلوبنا نوراً نهتدي به إليه ، وتولنا بحسن رعايتك حتى نتوكل عليك ، وارزقنا حلاوة التذلل بين يديك ، فالعزيز من لاذ بعزك ، والسعيد من التجأ إلى حماك وحرزك ، والذليل من لم تؤيده بعنايتك ، والشقي من رضي بالإعراض عن طاعتك ، الحكم حكمك فما تغني الحيل ، والأمر أمرك فإليك تحقيق الأمل .

اللهم نزه قلوبنا عن التعلق بمن دونك ، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الرابع

في ذكر نوح عليه السلام

الحمد لله الذي تسبح له البحار الطوافح ، والسحب السوافح ، والأبصار الطوامح والأفكار والقرائح ، العزيز في سلطانه ، الكريم في امتنانه ، ساتر المذنب في عصيانه ، رازق الصالح والطالح ، تقدس عن مثل وشبيه ، وتنزه عن نقص يعتريه ، يعلم خافية الصدر وما فيه ، من سرٍ أضمرته الجوانح ، لا يشغله شاغل ، ولا يبرمه سائل ، ولا ينقصه نائل ، تعالى عن الندّ المماثل ، والضد المكادح ، يسمع تغريد الورقاء على الغصن ، وماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ويتكلم وكلامه مكتوب في اللوح مسموع بالاذن ، بغير آلات ولا أدوات ولا جوارح ، موصوف بالسمع والبصر ، مرئي في الجنة كما يرى القمر ، من شبهه أو كيفه فقد كفر ، هذا مذهب أهل السنة والأثر ، ودليلهم جلي واضح ، ينجي من يشاء كما يشاء ويهلك ، فهو المسلّم للمسلِم ، والمسْلم والمهْلك ، لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الغرق لأنه مشرك . قال : (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) هود : ٤٦

أحمده على تسهيل المصالح ، وأشكره على ستر القبائح ، وأصلي على رسوله محمد غادٍ ورائح ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكرٍ ذي الفضل الراجح ، وعلى عمر العادل فلم يراقب ولم يسامح ، وعلى عثمان الذي بايع عنه الرسول فيالها صفقة رابح ، وعلى عليّ البحر الخضمّ الطافح ، وعلى جميع آله وأصحابه ذوي الرأي السديد ، والعمل الصالح .

قال الله تعالى : (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) هود : ٤١

ولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة ، ولما تمّ له خمسون سنة بعثه الله تعالى إلى قومه . وقيل : إنه بعث بعد اربعمائة سنة من عمره ، وكان الكفر قد عم ، فكان يدعو قومه ، فيضربونه حتى يغشى عليه . وأمره الله عز وجل أن يصنع سفينة

فغرس الساج ، فتكامل في أربعين سنة ، ثم قطعه وصنعها ، وأعانه أولاده ، وفجّر الله تعالى له عين القار ، فغلى غلياناً حتى طلاها ، وجعل لها ثلاثة بطون ، فحمل في البطن السُّفلى الوحوش والسباع والهوامّ ، وفي الوسطى الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه في البطن العليا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاثمائة ذراع وثلاثين ، وعلوها ثلاثة وثلاثين ذراعاً .

وفي رواية عنه : كان طولها ألفاً ومئتي ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، ثم ابتدا الماء بجنبات الأرض ، فدار حولها كالإكليل ، فجعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هرباً من الماء ، حتى اجتمعت عند السفينة ، فحمل من كلٍّ زوجين اثنين ، وقيل له : إذا فار التنور فاركب .

قوله تعالى : (بسم الله مجراها ومرساها) هود : ٤١ قال الزجاج : أمرهم أن يسموا وقت جريها ، ووقت استقرارها .

قوله تعالى : (وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال) هود : ٤٢ قيل: إن الماء ارتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً ، ونادى نوحٌ ابنه كنعان ، وكان في معزل ، أي : مكان منقطع ، وقيل : في معزل عن دين أبيه ، وكان ينافقه بإظهار الإيمان ، فدعاه إلى الركوب ظناً أنه مؤمن، فقال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء . أي : يمنعني. قال : لا عاصم اليوم من أمر الله . أي : لا معصوم إلا من رحم ، فإنه معصوم .

قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) هود : ٤٤ قال المفسرون : ابتلعت ما ظهر منها ، وبقي ماء السماء بحاراً وأنهاراً (ويا سماء أقلعي) هود : ٤٤ أي : أمسكي عن إنزال المطر (وغيضَ الماء) هود : ٤٤ أي : نقص (وقُضي الأمر) هود : ٤٤ بغرق القوم (واستوت) هود : ٤٤ يعني : السفينة (على الجودي) هود : ٤٤ وهو جبل بالموصل . وإنما قال نوح : (إن ابني من أهلي) هود : ٤٥ لأن الله تعالى وعده بنجاة أهله ، فقيل له : ليس من أهلك ، أي : من أهل دينك . وإنما قال تعالى : (وأهلك إلا من سبق عليه القول) هود : ٤٠

قوله تعالى : (إنه عملٌ غير صالح) هود : ٤٦ يعني : السؤال فيه .

روي عن وهيب بن الورد قال : لما عاتب الله تعالى نوحاً في ابنه ، فأنزل عليه : (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) هود : ٤٦ بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجداول ، ولما قُصَّت قِصة نوح على نبينا عليهما السلام ، قيل له فيها (فاصبر إن العاقبة للمتقين) هود : ٤٩ والمعنى : إصبر كما صبر نوح فإن الظفر والتمكين لمن يتقي الله . والمراد : سيحصل لك التمكين كما حصل لنوح ، ولبنيه المؤمنين .

عجباً لعيني كيف يطرقها الكرى ... ولحيرتي وقد انجلى عني المرا
كم قد سمعت وكم رأيت مواعظاً ... لو كنت أعقل حين أسمع أو أرى
أين الذين طغوا وجاروا واعتدوا ... وبغوا وطالوا واستخفوا بالورى؟
لو أخبروك بحالهم ومآلهم ... أبكاك دهرك ما عليهم قد جرى
فاصرف عن الدنيا طماعك إنما ... ميعادها أبداً حديث يفترى

يا حاملاً من الذنوب أثقالاً ثِقالا ، يا مرسلاً عنان لهوه في ميدان زهوه إرسالاً ، كأنك بجفنيك حين عُرض الكتاب قد سالا . أين المعترف بما جناه ؟ أين المعتذر إلى مولاه ؟ أين التائب من خطاياه ؟ أين الآيب من سفر هواه ؟ نيران الاعتراف تأكل حطب الاقتراف ، مجانيق الزفرات تهدم حصون السيئات ، مياه الحسرات تغسل أنجاس الخطيئات .

إخواني إنما مرض القلوب من الذنوب ، وأصل العافية أن تتوب ، دوام التخليط يوقع في صعاب العلل . أسمعت يا مريض الشَّره ، كم رأيت صريعاً للهوى ، ويحك اقرع باب الطبيب يصف لمرضك نسخة قبل أن تسري سكتة التفريط ، فتصيرك إلى موت الهلاك . تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ، ما يعمل العسل في علل الأجساد ، مواعظ القرآن لأمراض القلوب شافية ، وأدلة القرآن لطالب الهدى كافية . أين السالكون طريق السلامة والعافية ؟ مالي أرى السبل من القوم عافية ؟ يا طالب النجاة دُم على قرع الباب ، وزاحم أهل التقى وأولي الألباب ، ولا تبرح وإن لم يفتح لك الباب ، فربَّ

نجاح بعد اليأس ، وربّ غنىً بعد الإفلاس . قف وقوف المنكسرين وتبتل ، واستشعر الخضوع ، واستجلب الدموع واحتل ، واحذر سهم الغضب أن يصيب المقتل ، والجأ الى مولاك في خلاصك واسأل :

أيا سيدي ما هفوتي بغريبـــةٍ ... اليك ولا غفرانهــا بطريف

فإن تقبل العبد الضعيف تطولاً ... فإن رجائي فيك غير ضعيف

فصـــل

في قوله تعالى (يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً) آل عمران : ٣١

روي عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلم ربه تبارك وتعالى ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه ، وينظر عن أشأم منه ، فلا يرى إلا شيئاً قدمه ، وينظر أمامه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرةٍ فليفعل » .

وعن عتبة بن عبدٍ عن النبي ﷺ ، قال : « لو أن رجلاً يخر على وجهه من يوم ولد الى يوم يموت هرماً في مرضات الله لحقره يوم القيامة » .

يا له من يوم يقتصُ فيه للمظلوم من الظالم ، وتحيط بالظالم المظالم ، وتصعد القلوب الى الغلاصم ، وليس لمن لم يرحمه الإله عاصم .

قال عليه السلام : « لتؤدَّنَّ الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » يا كثير السيئات غداً ترى عملك يا هاتك الحرمات إلام تديم زللك أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك ؟ !أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك ؟ واعجباً لك من راحلٍ تركت الزاد في غير رحلك . أين فطنتك ويقظتك وتدبير عقلك ؟ أما بارزت بالقبيح فأين الحزن ؟ أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن ؟ ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن ، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن .

الى الله تب قبل انقضاء من العمر ... أخيّ ولا تأمن مُساورة الدهـر

لقد حدثتك الحادثات نزولهـا ... ونادتك إلا أن سمعـك ذو وقر

تنوح وتبكي للأحبة إن مضوا ... ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر

كَان داود عليه السلام إذا خرج يوم نياحته على ذنبه ، أقلع مجلسه عن ألوف ماتوا من الخوف عند ندبه .

وكان عمر بن الخطاب يمر بالآية في ورده ، فيبكي حتى يسقط ، ويبقى في البيت مريضاً يُعاد . وقرأ الحسن ليلةً عند إفطاره : (إن لدينا أنكالاً وجحيما وطعاماً ذا غُصَّةٍ) المزمل : ١٣ فبقي ثلاثاً لم يطعم . حقيق بمن عَلِمَ ما بين يديه ، وتيقن أن العمل يحصى عليه ، وأنه لا بدّ من الرحيل عما لديه ، إلى موقف صعب يساق إليه ، أن يتجافى عن مضجع البطالة بجنبيه .

قال حاتم الأصمّ : من خلا قلبه من ذكر أخطار أربعة ؛ فهو مغتر ، فلا يأمن الشقاء :

الأول : خطر يوم الميثاق حين قال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي ، فلا يعلم في أي الفريقين كان .

والثاني : حين خُلق في ظلمات ثلاث ، فنودي الملك بالشقاء والسعادة ، ولا يدري أمِنَ الأشقياء هو أم من السعداء ؟

والثالث : ذكر هول المطلع ، ولا يدري أيبشر برضى الله أو بسخطه ؟

والرابع : يوم يصدر الناس أشتاتاً ، ولا يدري أي الفريقين يسلك به ؟ فحقيق بصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزن قلبه . بكى عمر بن عبد العزيز ليلة ، فأطال فسئل عن بكائه ، فقال : ذكرت مصير القوم من بين يدي الله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم خر مغشياً عليه .

كم ذا أغالط أمري ... كأنني لست أدري
ولم أزل أتمادى ... حتى تصرّم دهري
من لي إذا صرت رهناً ... بالذنب في رمس قبري؟
بأي عذر ألاقي ... ربي ليقبل عذري؟
فليت شعري متى ... أدرك المنى ليت شعري؟

يا من قد وهى شبابه ، وامتلأ بالذلل كتابه ، أما بلغك أن الجلود إذا استشهدت

نطقت ؟ أما تعلم أن النار للعُصاة خلقت ؟ إنها لتحرق كل ما يلقى فيها ، ويصعب على خزنتها لقوتها تلافيها ، التوبة تحجب عنها ، والدمعة تطفئها .

قال عليه الصلاة والسلام : « لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في الأرض لامرّت على أهل الدنيا معيشتهم » فكيف بمن هو طعامه لا طعام له غيره . أسفاً لأهل النار ، لقد هلكوا وشقوا ، لايقدر الواصفُ أن يصفَ ما قد لقوا ، كلما عطشوا جيء بالحميم فسقوا ، هذا جزاؤهم إذ خرجوا من الطاعة وفسقوا ، قطعوا والله بالعذاب ومزقوا ، وأفرد كل منهم عن رفيقه وفرقوا ، فلو رأيتهم قد كبلوا في السلاسل وأوثقوا ، واشتد زفيرهم ، وتضرع أسيرهم ، وقلقوا ، وتمنوا أن لم يكونوا ، وودوا ما خلقوا ، وندموا إذ أعرضوا عن النصح وقد صدقوا ، فلا اعتذارهم يسمع ، ولا بكاؤهم ينفع ، ولا أعتقوا .

لو أبصرَت عيناك أهل الشقا — في النار قد غلّوا وقد أحرقوا!
تقول أولاهم لأُخراهم — في لجج المهل وقد أغرقوا
قد كنتم حذرتموا حرّها — لكن من النيران لم تفرقوا
وجيء بالنيران مزمومةً — شرارها من حولها محدق
وقيل للنيران أن أحرقي — وقيل للخزان أن أطبقوا
وأولياء الله في جنةٍ — قد توّجوا فيها وقد طوّقوا
تدبروا كم بينهم اخوتي — ثم أجيلوا فكركم واتقوا

يامن بين يديه يوم لاشك فيه ولا مرا ، يقع فيه الفراق وتنفصم فيه العرى ، تدبر أمرك قبل أن تحضر وترى ، وانظر لنفسك نظر من قد فهم ودرى ، قبل أن يغضب الحاكم رب الورى (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً) ، يوم يشيب فيه الأطفال ، يوم تسير فيه الجبال ، يوم يظهر فيه الوبال ، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال يوم لاتقال فيه العثار ، وكم أعذار تُقال ، فترى من قد افترى يقدم قدماً ، وأخرى إلى ورا . (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً) ينصب الصراط فناج وواقع ، ويوضع الميزان فتكثر فيه الوضائع ، وتفسر الكتب ، وتسيل المدامع ، وتظهر القبائح بين تلك المجامع ، ويؤلم العتاب ، ويملأ المسامع ، ويخسر العاصي ويربح الطائع ، فكم من غني قد عاد من الخير مقترا ، (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً) .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح ، ونبهنا من رقـدات الغفلات ، وسامحنا فأنت الحليم المسامح ، وانفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ماينفعنا ، فمنك الفضل والمنائح .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سِلماً لأوليائك ، وحرباً لأعدائك نُحب بحبك من أحبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك .

اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء .

اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت .

اللهم ارحمنا بترك المعاصي أبداً ماأبقيتنا ، وارحمنا أن نتكلف مالا يعنينـا ، وارزقنا حسن النظر فيما يرضيك عنا .

اللهم فارج الهم ، كاشف الغم ، مجيب دعوة المضطرين ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما ، فارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك .

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحوّل عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك .

اللهم احفظنا بالإسلام قائمين ، واحفظنا بالإسلام قاعدين ، واحفظنا بالاسلام راقدين ، ولا تشمت بنا الأعداء ولا الحاسدين .

اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وأعيننا من من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين ، وماتخفي الصدور .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا .

اللهم إنا نستغفرك لذنوبنا ، ونستهديك لمراشد أمورنا ، ونستجيرك من شرور أنفسنا ، ونتوب إليك فتب علينا ، إنك أنت ربنا . يامن أظهر الجميل ، وستر على القبيح ، يامن لايؤاخذ بالجريرة ، ولا يهتك الستر ، ياعظيم العفو ، ياحسن التجاوز ، ياواسع المغفرة ، ياباسط اليدين بالرحمة ، ياصاحب كل نجوى ، يامنتهى كل شكوى ، يا كريم الصفح ، ياعظيم المن ، يامبتدىء النعم قبل استحقاقها ، ياربنا وياسيدنا ويامولانا ، وياغاية رغبتنا ، نسألك اللهم أن تعافينا من محن الزمان ، وعوارض الفتن ، فإنا ضعفاء عن حملهـا ، وإن كنا أهلاً لها ، فعافيتك أوسع لنا ، ياواسع ياعليم ، واغفر لنا ولوالدينا ، ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين برحمتك ياأرحم الراحمين .

المجلس الخامس

في قصة عاد

الحمد لله المنزه عن الأشباه في الأسماء والأوصاف ، المقدس عن الجوارح والالات والأطراف ، خضعت لعزته الأكوان ، وأقرت عن اعتراف ، وانقادت له القلوب ، وهي في انقيادها تخاف ، أنزل القطر فمنه الدر تحويه الأصداف ، كشف للمتقين اليقين فشهدوا ، وأقامهم في الليل فسهروا ، وسهدوا ، وأراهم عيب الدنيا فرفضوا ، وزهدوا ، وقالوا : نحن أضياف ، وقضى على المخالفين بالبعاد ، وأفاتهم التوفيق والإسعاد ، فكلهم هام في الضلال وماعاد (واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف) ص: ٤٨ .

أحمده على ستر الخطايا والاقتراف ، واصلي على رسوله محمد الذي أُنزل عليه قاف ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكرٍ الذي أُمِنَ ببيعته الخلاف ، وعلى عمر صاحب العدل والإنصاف ، وعلى عثمان الصابر على الشهادة صبر النظاف ، وعلى علي بن أبي طالب محبوب أهل السنة الظراف ، وعلى سائر آله وأصحابه السادة الأشراف ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (واذكر أخا عادٍ إذ انذر قومه بالأحقاف) ص: ٤٨ . الإنذار : الإعلام مع تخويف . والأحقاف : الرمال العظام ، واحدها : حِقف .

قال ابن اسحاق : كانت منازلهم فيما بين عمان إلى حضرموت باليمن ، وكانوا قد فشوا في الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوّتهم ، وكانوا أصحاب أوثان .

قال مقاتل : كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً ، وقوم عاد هؤلاء هم أولاد عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، وهي عاد الأولى ، بعث الله تعالى إليهم هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد ، فدعاهم إلى التوحيد ، وكلما أنذرهم زاد طغيانهم ، فحبس الله تعالى عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وبعثوا إلى مكة وفداً يستسقي لهم يبلغون سبعين رجلاً ، منهم قَيل ولُقَيم وجلهمة ولقمان ومرثد بن سعد ، وكان مرثد مؤمناً

يكتم إيمانه ، وكان الناس مؤمنهم وكافرهم إذاجهدوا سألوا الله تعالى عند الكعبة ، فنزلوا على بكر بن معاوية ، وكان خارجاً من الحرم ، فأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، وكان سكان مكة العماليق ، فلما هموا بدخول الحرم ليستسقوا ، قال مرثد : إنكم والله لاتسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم سقيتم ، فقال جلهمة : احبسوا هذا عنا فلا يقدمنّ معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود ، ثم خرجوا يستسقون فنشأت سحائب ، وقيل للوفد : اختاروا ، فقال مرثد : يارب أعطني صدقاً وبرّاً فأُعطي ، وقال لقمان: أعطني عمُراً فاختار عمر سبعة نسور ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة ، ويأخذ الذكر لقوّته حتى إذا مات أخذ غيره إلى أن ماتت السبعة فمات ، ونشأت ثلاث سحائب بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم نودي منها : ياقيل اختر ، فاختار السوداء ، لانها أكثر ماء فساقها الله تعالى إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ يقال له مُغيث ، فلما رأوها استبشروا بها ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فكان أول من رأى مافيها امرأة منهم ، فصاحت وصعقت ، فقيل لها : مارأيت؟ قالت : ريحاً فيها كشهب النار ، وأمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عز وجل عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً ، أي : متتابعة ، ابتدأت غدوة الأربعاء آخر أربعاء في الشهر ، وسكنت آخر اليوم الثامن ، واعتزل هودومن معه من المؤمنين في حظيرة مايصيبهم منها إلا مايلين الجلود ، وتلتذ عليه النفوس ، فكانت الريح تقلع الشجر ، وتهدم البيوت ، وترفع الرجال والنساء بين السماء والأرض ، فتدق رقابهم ، فتبين الرأس عن الجسد ، فذلك معنى قوله تعالى : (كأنهم أعجاز نخل خاوية) الحاقة : ٧ . ثم تدمغهم بالحجارة .

وقال عمرو بن ميمون : كانت الريح تحمل الظعينة ، فترفعها حتى تُرى كأنهاجرادة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أول ماعرفوا أنه عذاب رأوا ماكان خارجاً من رجالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثل الريش ، فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح ، ففتحت أبوابهم ، وهالت عليهم بالرمل ، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام ، لهم أنين ، ثم قبضت أرواحهم ، ثم طرحتهم الريح في البحر ، فأصبحوا لايُرى إلا مساكنهم .

فانظروا رحمكم الله كيف أهلك الخلق العظيم بالريح التي هي من ألطف الأشياء ، ليبيّن أثر القدرة ، وكذلك يميت الخلق عند صيحة ، ويحييهم عند نفخة . فسبحان من بانت سطوته للمعاندين فقهرت ، وظهرت آثار قدرته للمتيقظين فبهرت ، كم عُذب مريض بريح في حشاه تختلف إلى أن تلف .

سلطانه في خلقه قاهر وأمره في ملكه باهر
سطوته باطشة بالورى في ذرة معجزها ظاهر
إذا تجلى في جلال العلى ذل له الأول والآخر
كن حاذراً من بطشه إنه في أمره وقهره قادر

أسفاً لمن ضيّع الأوقات وقد عرفها ، وسلك بنفسه طريق الهوى فأتلفها ، أنِسَ بالدنيا كأنه خلق فيها لها ، وأمله ما ينتهي وأجله قد انتهى ، سلّمت اليه بضائع العمر فلعب بها ، عجباً لعين أمست بالليل هاجعة ، ونسيت أهوال يوم الواقعة ، ولأذن تقرعها المواعظ ، فتصيخ لها سامعة ، ثم تعود الزواجر عندها ضائعة ، ولنفوس أصبحت في كرم الكريم طامعة ، وليست له في حال من الأحوال طائعة ، ولأقدام سعت بالهوى في طرق شاسعة ، بعد أن وضحت لها سبل قريبة واسعة ، ولهمم أسرعت في شوارع اللهو شارعة ، ثم لم تكن مواعظ الأقوال لها نافعة ، ولقلوب تضمر التوبة عند الزواجر الرائعة ، ثم تحل العزم بفعل ما يحل مراراً متتابعة ، أيها النائم وهو منتبه ، المتحير في أمر لا يشتبه ، يا من صاح به الموت في سلب صاحبه .

أين من كان قبلنا أين أينا من أناس كانوا جمالا وزينا؟
إن دهراً أتى عليهم فأفنى عدداً منهم سيأتي علينا
خدعتنا الآمال حتى جمعنا وطلبنا لغيرنا وسعينا
وابتغينا من المعاش فضولاً لو قنعنا بدونها لاكتفينا

ولعمري لنمضين ولا نمضي | بشيء منها إذا ما مضينا
كم رأينا من ميت كان حياً | ووشيكاً يرى بنا ما رأينا
ما لنا نأمن المنايا كأنا | لا نراهن يهتدين إلينا
عجباً لامرىء تيقن أن | الموت حق فقرَّ بالعيش عينا

كم يوم غابت شمسه وقلبك غائب ، وكم ظلام أسبل ستره وأنت في عجائب ، وكم أسبغت عليك نعمة وأنت للمعاصي تواثب ، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتب ، وكم ينذرك سلب رفيقك وأنت لاعب ، يا من يأمل الإقامة قد زمّت الركائب ، أفق من سكرتك قبل حسرتك على المعائب ، وتذكر نزول حفرتك ، وهجران الأقارب ، وبادر إلى تحصيل الفضائل قبل فوت المطالب ، فالسائق حثيث ، والحادي مجد ، والموت طالب .

يا واقفاً يسأل القبور أفق | فأهلك اليوم عنك قد شغلوا
قد هالهم منكر وصاحبه | وخوف ما قدموا وما عملوا
رهائن للثرى على مدر يسمع للدود بينهم زجل
سرى البلى في جسومهم فجرت | دماً وقيحاً وسالت المقل
ينتظرون النشور إذ تقف | الأملاك والأنبياء والرسل
يوماً ترى الصحف فيه طائرة | وكل قلب من هوله وجل
قد دنت الشمس من رؤوسهم | والنار قد برزت لها شعل
وأزلفت جنة النعيم فيا | طوبى لقوم بربعها نزلوا
أكوابهم عسجد يطاف بها | والخمر والسلسبيل والعسل
والحور تلقاهم وقد رفعت | عن الوجوه الأستار والكلل

فصل

في قوله تعالى : (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) ابراهيم : ٤٢ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم . وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وعن أبي موسى رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته » .

وقوله تعالى : (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ابراهيم : ٤٢ المعنى : نشخص أبصار الخلائق ، لظهور الأهوال ، فلا تغمض .

وقوله : (وانذر الناس) ابراهيم : ٤٤ . أي : خوفهم (يوم يأتيهم العذاب) . يعني : يوم القيامة (فيقول الذين ظلموا ربّنا أخّرنا الى أجل قريب) أي : أمهلنا مدة يسيرة ، وقال مقاتل : سألوا الرجوع إلى الدنيا . (نجب دعوتك) يعنون التوحيد ، فيقال لهم (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) ابراهيم : ٤٤ أي : حلفتم في الدنيا أنكم لا تبعثون (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) ابراهيم : ٤٤ ، ضروها بالكفر والمعصية (وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم) أي : كيف عذبناهم ، وكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن الخلاف (وضربنا لكم الأمثال) ابراهيم : ٤٥ أي : بينا لكم الأشباه (وقد مكروا مكرهم) ابراهيم : ٤٦ ، وفي المشار اليه أربعة أقوال :

أحدهما : أنه نُمرود ، قاله علي ابن أبي طالب ، كرم الله وجهه . قال نمرود : لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء ، فأمر بأربعة من النسور ، فربيت واستعلجت ، ثم أمر بتابوت ، فنحت ، ثم جعل في وسطه خشبة ، وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحمرة ، ثم جوعها ، وربط أرجلها بأوتاد إلى قوائم التابوت ، ودخل هو وصاحب له في التابوت ، وأغلق بابه ، ثم أرسلها ، فجعلت تريد اللحم ، فصعدت في السماء ما شاء الله ، ثم قال

لصاحبه : افتح فانظر ما ترى ؟ ففتح ، فقال: أرى الأرض كأنها الدخان ، فقال أغلق ، ثم صعد ما شاء الله ، قال : افتح ففتح ، فقال : ما أرى إلا السماء ، وما نزداد منها إلا بُعداً ، فقال : صوّب خشبتك فصوبها ، فانقضت النسور تريد اللحم فسمعت الجبال هدّتها ، فكادت تزول عن مواضعها .

والثاني أنه بختنصر . وأن هذه القصة له جرت ، وأن النسور لما ارتفعت نودي : يا أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق فنزل، فلما رأت الجبال ذلك ظنت أنه قيام الساعة ،فكادت تزول . وهذا قول مجاهد .

والثالث : أن الإشارة الى الأمم المتقدمة ، ومكرهم بشركهم . قاله ابن عباس .

والرابع : أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ حين هموا بقتله وإخراجه . ذكره بعض المفسرين .

الويل لأهل الظلم من ثقل الأوزار ، وذكرهم بالقبائح قد ملأ الاقطار ، يكفيهم أنهم قد وسموا بالأشرار ، ذهبت لذاتهم بما ظلموا وبقي العار ، داروا إلى دار العقاب ، وملك الغير الدار ، وخلوا بالعذاب في بطون تلك الأحجار ، ولا مغيث ولا أنيس ، ولا رفيق ولاجار ، ولاراحة لهم ولاسكون ولاقرار ، سالت دموع أسفهم على تخلفهم كالأنهار ، شيدوا بنيان الأمل فإذا به قد انهار ، أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار ، فاذا قاموا في القيامة زاد البلاء على المقدار (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) ابراهيم: ٥٠ لايغرّنك صفاء عيشهم كل الآخر أكدار ، (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ابراهيم : ٤٢ .

ناد القصور التي أقوت معالمها أين الجسوم التي طابت مطاعمها؟
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ألهاه ناضر دنياه وناعمُها؟
أين الجيوش التي كانت لو اعترضت لها العقاب لخانتها قوادمُها ؟
أين الذين لهَوا عما له خُلقوا كما لهت في مراعيها سوائمها ؟

أين البيوت التي من عسجد نسجت   هل الدنانير أغنت أم دراهمُها؟
أين العيون التي نامت فما انتبهت   واهاً لها نومة ماهب نائمهـا ؟

قوله تعالى : (هذا بلاغ للناس ولينذروا به) ابراهيم : ٥٢. يامشغولاً بذنوبه ، مغموراً بعيوبه ، غافلاً عن مطلوبه ، أما نهاه القرآن عن حوبه ؟ هذا بلاغ للناس ولينذروا به . أنسي العاصي قبيح مكتوبه ؟ لابد من سؤاله عن مطعومه ومشروبه ، وحركاته وخطواته في مرغوبه ، ألا يذكر في زمان راحته أحيان كروبه ؟ ألا يحذر من الأسد قبل وقت وثوبه ؟ ألا يتخذ تقاةً تقيه شر ذنوبه ؟ ألا يدخر من خصبه لأوان جدوبه ؟ ألا يتفكر في فراقه لمحبوبه ؟ ألا يتذكر النعش قبل ركوبه ؟ كيف يغفل من هو في صف حروبه ؟ رب إشراق لم يدرك زمن غروبه . الى متى في حرصه على الفاني ودربه ؟ متى يُرد يوسف على يعقوبه ؟ لقد وعظه الزمان بفنون ضروبه ، وحذّره استلابه بأنواع خطوبه ، ولقد زجره القرآن بتخويفه مع لذّات أسلوبه ، هـذا بلاغ للناس ولينذروا به .

اللهم أيقظنا من رقدات الغفلة ، ووفقنا للتزود قبل النقلة ، وألهمنا اغتنام الزمان ووقت المهلة .

اللهم إنا نستغفرك ونتوب اليك ، ونعتمد عليك ، ونسألك بنور وجهك الكريم ، وسلطانك العظيم ، توبة صادقةً ، وأوبة خالصة ، وإنابة كاملة ، ومحبة غالبةً ، وشوقاً إليك ، ورغبة فيما لديك ، وفرجاً عاجلاً ، ورزقاً حلالاً واسعاً .

اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك ، وقلباً منعماً بشكرك ، وبدناً هينـاً ليناً بطـاعتك ، وأعطنا مع ذلك مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللهم الطف بنا في قضائك ، وعافنا من بلائك ، وهَب لنا ماوهبتـه لاوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وتوفّنا وأنت راض عنا ، وقـد قبلت اليسير منا ، واجعلنا يامولانا من عبادك الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

اللهم أعصمنا من شر الفتن ، وعافنا من جميع المحن ، وأصلح منا ماظهر ومابطن ، ونق قلوبنا من الحقد والحسد ، ولاتجعل علينا تباعة لاحد .

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ، ونعوذ بك أن نقول زوراً ، أو نغشى فجوراً ، ونعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة ، وفجأة النقمة .

اللهم توفنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولانادمين ، ولامفتونين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . آمين .



المجلس السادس

في قصة ثمود

الحمد لله الذي مهد لطالبيه سبيلا واضحاً ، وكم ابتعث نبياً مرشداً وناصحا ، فأرسل آدم غادياً على بنيه بالتعليم ورائحاً ، فخلفه شيث وإدريس ، وجاء نوح نائحاً ، وأمرهودا بهداية عادٍ فلم يزل مكادحاً ، وإلى ثمود أخاهم صالحاً .

أحمده سابدا برق لائحاً ، وأصلي على رسوله محمد مادام الفلك سابحاً ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق ، وقل في الصديق مادحاً ، وعلى الفاروق الذي لم يزل بنور الحق لائحاً ، وعلى عثمان وأعجب بمثل دمه طائحاً ، وعلى علي وأعلن بفضله صائحاً ، وعلى سائر آله وأصحابه ماترنم طير على أفنانه صادحاً ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) الاعراف : ٧٣ . ثمود هو بن جابر بن إرم بن سام بن نوح . أرسل الله إلى أولاده صالح بن عبيد بن أنيف من أولاد ثمود أيضاً ، وإنما قال أخاهم ، لأنه من قبيلتهم (قال ياقوم اعبدوا الله) الاعراف : ٧٣ . أي : وحدوه فلم يزدهم دعاؤه إلا طغياناً (فقالوا ائتنا بآية) فاقترحوا عليه ناقة ، فأخرجهم الى صخرة ملساء ، فتمخضت تمخض الحامل ، ثم انفلقت عن ناقة على الصفة التي طلبوها ، ثم انفصل عنها فصيل ، فقال : ذروها تأكل في أرض الله ، أي : ليس عليكم مؤنتها ولا علفها ، ولاتمسوهـــا بسوء ، وهو العقر ، وكانت تشرب ماء الوادي كله في يوم ، وتسقيهم اللبن مكانه .

قال علماء السير : لم يلتفتوا إلى قول صالح ، واحتالوا على قتله ، فذلك قوله تعالى : (لنُبيتنَّه وأهلَه) النمل : ٤٩ . فقعدوا في أصل جبل ينتظرونه ، فوقع الجبل عليهم فهلكوا ، ثم أقبل قوم منهم يقصدون عقر الناقة ، فقال لهم صالح : (ناقة الله وسُقياها) الشمس : ١٣ . أي : احذروا ناقة الله ، وشربها من الماء ، فكمَن لها قاتلها واسمه قُدار

بن سالف في أصل شجرة ، فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شد عليها بالسيف فكسر عرقوبها ، ثم نحرها . وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا من العذاب ، فقال لهم :تمتعوا في داركم ثلاثة أيام .

قال المفسرون : لما عقروها صعد فصيلها الى الجبل ، ورغى ثلاث مرات ، فقال صالح لكل رغوة أجل يوم ٍ ألا ان اليوم الاول تصبح وجوهكم مصفرة ، واليوم الثاني محمرة ، واليوم الثالث مسودّة . فلما أصبحوا في اليوم الاول إذا وجوههم مصفرة ، فصاحوا وبكوا ، وعرفوا أنه العذاب . فلما أصبحوا في اليوم الثاني إذا وجوههم محمرّة فضجوا وبكوا . فلما أصبحوا في اليوم الثالث إذا وجوههم مسودّة كأنما طليت بالقار ، فصاحوا بأجمعهم : ألا قد حضركم العذاب ، فتكفنوا وألقوا أنفسهم بالأرض لايدرون من أين يأتيهم العذاب . فلما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة ، فتقطعت قلوبهم في صدورهم .

قال مقاتل : حفروا لأنفسهم قبوراً ، فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع ، ولم يأتهم العذاب ظنوا أن الله قد رحمهم ، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضاً ، فقام جبريل فوق المدينة ، فسد ضوء الشمس ، فدخلوا قبورهم ، فصاح بهم صيحة عظيمة : موتوا عليكم اللعنة ، فماتوا بأجمعهم ، وزلزلت بيوتهم ، فوقعت على قبورهم .

فاعتبروا إخواني بهؤلاء الهالكين ، وانظروا الى سوء تدبير الخاسرين ، لا بالناقة اعتبروا ، ولا بتعويضهم اللبن شكروا ، عتوا عن النعم وبطروا ، وعموا عن الكرم فما نظروا ، وعيدوا بالعذاب فما حذروا ، كلما رأوا آية من الآيات كفروا ، الطبع الخبيث لا يتغير ، والمقدر ضلاله لا يزال يتحير ، خرجت اليهم ناقة من أحسن النعم ، ودرّ لهم لبنها فتوفرت النعم ، فكفروا ، وما شكروا ، فأقبلت النقم ، أعاذنا الله وإياكم من الكفران ، وحفظنا من موجبات الخسران ، إنه اذا لطف صان وأعان :

أيها السكران بالآ — مال قد حان الرحيل
وبشيب الرأس والفو — دين للموت دليل

فانتبه من رقدة الغفلة فالعمر قليل
واطرح سوف وحتى فهما داء دخيل

يا من صبح مشيبه بعد ليل شبابه قد تبلج ، ونذيره قد حام حول حماه وعرّج ، كأنك بالموت قد أتى سريعاً وأزعج ، ونقلك عن دار أمنت مكرها مكرهاً وأخرج ، وحملك على خشونة النعش بعد لين الهودج . وأفقرك إلى قليل من الزاد وأحوج . فيالاهياً في دار البلاء ما أقبح فعلك وما أسمج ، ويا عالماً بنظر الناقد وبضاعته كلها بهرج ، ويا غافلاً عن رحيله سلب الأقران أنموذج .

سيقطع ريب الدهر بين القرينين لكل اجتماع فرقة بين يد البين؟
وكل يقضي ساعة بعد ساعة تخاتله عن نفسه ساعة الحين
أيا عجباً مني ومن طول غفلتي أآمل أن أبقى وفي؟ ومن أين

يامن يبارز مولاه بما يكره ، ويخالفه في أمره آمناً مكره ، وينعم عليه وهو ينسى شكره ، يامن قبائحه ترفع عشاءً وبكرة ، ياقليل الزاد وما أطول السفرة ، والنُّقلة قد دنت والمصير الحفرة ، متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ ؟ أما تحذر من أوعد وهدد؟ أما تخاف من أنذر وشدد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد ؟ متى تحذر يوماً فيه الجلود تشهد ؟ متى تترك مايفنى رغبةً فيما لاينفد ؟ البدار البدار إلى الفضائل ، والحذار الحذار من الرذائل ، فإنما هي أيام قلائل .

اغتنم في الفراغ فضل ركوعٍ فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه السليمة فلته

كتب زر بن حبيش إلى عبد الملك بن مروان : لايطمعنك في طول الحياة ماترى من صحة بدنك ، واذكر قول الأول :

إذا الرجال ولدت أولادها وبليت من كِبرٍ أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادُها تلك زروع قد دنا حصادها

وكان الربيع بن خثيم يقول: أما بعد فأعد زادك ، وخذ في جهازك ، وكن وصي نفسك . وكان إذا جن عليه الليل لاينام ، فتناديه أمه : ياربيع ألا تنام؟ فيقول: ياأماه من جن عليه الليل ، وهو يخاف البيات ، حُق له أن لاينام . وقالت له ابنته يا أبت ألا تنام ؟ فقال : إن جهنم لاتدعني أنام .

وحج مسروق رحمه الله فما نام إلا ساجداً .

وكان حجير بن الربيع يصلي حتى ما يأتي فراشه إلا حبواً .

اغتنم ركعتين زلفى الى الله ... إذا كنت فارغاً مستريحاً
واذا ماهممت بالنطق بالباطل ... فاجعل مكانه تسبيحاً

فصل

في قوله تعالى (واستمع يوم يُناد المناد من مكان قريب) ق : ٤١

والمعنى : استمع حديث ذلك اليوم . والمنادي : اسرافيل عليه السلام ، يقف على صخرة بيت المقدس ، فينادي : أيها الناس هلموا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء . والمكان القريب: هو الصخرة . قال كعب ومقاتل : هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً .

يامن يدعى إلى نجاته فلايجيب ، يامن قد رضي أن يخسر ويخيب . إن أمرك ظريف ، وحالك عجيب . اذكر في زمان راحتك ساعة الوجيب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . ويحك إن الحق حاضر مايغيب ، يُحصي عليك أعمال الطلوع ، وأفعال المغيب ، ضاعت الرياضة في غير نجيب ، سيماك تدل ومايخفى المريب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . تذكر من قد أصيب ، كيف نزل به يوم عصيب ، وانتبه لأخذ الحظ والنصيب ، واحترز فعليك شهيد ورقيب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . لابد من فراق العيش الرطيب ، والتحاف البلى مكان الطيب . واعجباً للذات بعد هذا كيف تطيب؟ ويحك أحضر قلبك لوعظ الخطيب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . ستخرج والله من هذا الوادي الرحيب ، ولاينفعك البكاء والنحيب ، لابد من يوم

يتحير فيه الشبان والشيب ، ويذهل فيه الطفل للهول ويشيب ، يامن عمله رديء فليته قد شيب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . كيف بك إذا أحضرت في حال كئيب ، وعليك ذنوب أكثر من رمل الكثيب ، والمهيمن المطالب والعظيم الحسيب ، فحينئذ يبعد عنك الأهل والنسيب ، النوح أولى بك يامغرور من التشبيب . أتؤمن أم عندك تكذيب ؟ أم تراك تصبر على التعذيب ؟ إقبل نصحي وأقبل على التهذيب ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يامطالباً بأعماله ، يامسؤولا عن أفعاله ، يامكتوباً جميع أقواله ، يامناقشاً على كل أحواله ، نسيانك لهذا أمر عجيب . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب .

قوله تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً) ق : ٤٤ . ياله من يوم لايستطيع له دفاعاً ، صاح بهم من لم يزل أمره مطاعاً ، فنازلتهم الحسرات فأسرتهم قراعاً ، واستسلموا للهلاك ومامدوا باعا ، سماعاً لمايجري يومئـذ سماعا ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . مزقتهم اللحود تمزيقاً مشاعا ، وصيّرت تلك الابدان رفاتاً شعاعا ، ونفخ في الصور فقاموا عطاشاً جياعا ، وعلموا أن الهوى كان لهم خدّاعاً ، فتداعى بالويل من كان بالسرور تداعى ، يوم تشقق الارض عنهم سراعاً . حضروا من صحراء القيامة قاعاً ، فوجدوه أصعب البقـاع بقاعاً ، وتناولوا بالأيمان والشمائل رقاعاً ، حفظت أعمالهم فما وجدوا شيئاً مضاعاً ، ذلك يوم لايراعى فيه إلا من كان راعا ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا .

قوله تعالى : (فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد) ق : ٤٥ . أي فعظ به . قال بعض السلف : من لم يعظه القرآن ، ولا الشّيب ، فلو تناطحت بين يديه الجبال لما اتعظ .

يا ذا النفس اللاهية ، تقرأ القرآن وهي ساهيه ، أمالك ناهية في الآيات الناهية ؟ كم خوفك القرآن من داهية ، أما أعلمك أن أيام العمر متناهية ؟ أما أخبرك أن أركان الحياة واهية؟ أما عرّفك أسباب الغرور كما هيه ؟ يامتحيراً في طريقه وقد بان البيان ، يابليد الاعتبار وقد أنذره الاقران ، يامن تقرع قلبه المواعظ وهو قاس ملآن ، لوحضرت بالذهن لكفاك زجر القرآن .

أيها الغافل زاحم أهل العزم وبادر ، فكأن قد نزل بك ماتخاف وتحاذر ، فيختم الكتاب على الرذائل ، ويفوت تحصيل الفضائل .

كل حيّ الى وراء وما الدار بدار ولا المقام مقام
يستوي ساعة المنية في الـــــرتبة وجد الغني والإعدام
والذي زال وانقضى من نعيم وشقاء كأنه أحلام

لقد وعظ القرآن المجيد ، يبدىء التذكار عليكم ويعيد ، غير أن الفهم منكم بعيد ، ومع هذا فقد سبق العذاب التهديد ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، ان في القرآن مايلين الجلاميد ، لوفهمه الصخر لراح وهو يميد. كم أخبرك بإهلاك الملوك الصيد ، وأعلمك أن الموت لك بالوصيد ، فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد . إن مواعظ القرآن تذيب الحديد ، وفيها للفهوم كل يوم زجر جديد ، وللقلوب النيرة به كل يوم وعيد ، غير أن الغافل يتلوه ولايستفيد ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد. احضروا قلوبكم فإلى كم تقليد؟

يا معاشر الشيوخ في عقل الوليد ، أما فيكم من يذكر أنه في قبره وحيد؟ أمافيكم من يتصور تمزيقه والتشريد ؟ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد. غداً يباع أثاث البيت فيمن يزيد ، غداً يتصرف الوارث كما يريد ، غداً يستوي في بطن اللحد الفقير والعميد ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، يا قوم ستقومون للمبدِىء المعيد ، يا قوم ستحاسبون على القريب والبعيد ، يا قوم المقصود كله وبيت القصيد ، فمنهم شقي وسعيد .

اللهم ألهمنا ما ألهمت عبادك الصالحين ، وأيقظنا من رقدة الغافلين ، إنك أكرم منعم وأعز معين .

اللهم انك قد أمرتنا بالتجاوز عن المسيء ، فتجاوز عن اساءتنا بجميل كرمك ، ولاتقطع عنا يا مولانا عوائد فضلك ونعمك ، ما ضرنا من ردنا إن أنت قبلتنا ، ولا نبالي من سخطنا ، إن أنت رضيتنا ، إليك توجهنا ، وببابك نزلنا ، وبجاهك أنخنا ، ولمعروفك تعرضنــــا .

اللهم يا من فتح بابه للطالبين ، وأظهر غناه للراغبين ، وأطلق بالسؤال ألسنة القاصدين ، فقال في كتابه المبين : (أدعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) غافر : ٦

اللهم اجعل الإيمان لنا سراجاً ، ولا تجعله لنا استدراجاً ، واجعله لنا سلَّماً إلى جنتك ، ولا تجعله مكراً من مشيئتك ، إنك أنت الحليم الغفور .

اللهم ونسألك أن تجعلنا من أوليائك المقربين ، وحزبك المفلحين ، وآمنّا من الفزع الأكبر يوم الدين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين.



المجلس السابع

في قصة ابراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله القوي المتين ، القاهر الظاهر المبين ، لا يعزب عن سمعه أقل الأنين ، ولا يخفى على بصره حركات الجنين ، ذل لكبريائه جبابرة السلاطين ، وقل عند دفاعه كيدا الشياطين ، قضى قضاءه كما شاء على الخاطئين ، وسبق اختياره لمن اختار ، وآدم بين بين الماء والطين ، فهؤلاء أهل الشمال ، وهؤلاء أهل اليمين ، جرى القدر بذلك قبل عمل العاملين (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل و كنا به عالمين). الأنبياء : ٥١

أحمده حمد الشاكرين ، وأسأله معونة الصابرين ، وأصلي على رسوله المقدم على النبيين ، صلى الله عليه وعلى صاحبه الصدّيق أول تابع له على الدين ، وعلى الفاروق القوي الأمين ، وعلى عثمان زوج ابنتيه ونعم القرين ، وعلى علي بحر العلوم الأنزع البطين ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل) الأنبياء: ٥١ ابراهيم عليه السلام هو ابن آزر وهو ابن تارخ بن ناخور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح . وكان بين الطوفان ، ومولد إبراهيم عليه السلام ألف سنة وتسع وسبعون ، وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة .

ولما أراد الله عز وجل إيجاد الخليل عليه السلام ؛ قال المنجمون لنمرود : إنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه ، يقال له : ابراهيم ، يفارق دينكم ، ويكسر أوثانكم في شهر كذا و كذا من سنة كذا و كذا ، فلما دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقريته ، فحبسها عنده ، ولم يعلم بحبل أم إبراهيم ، فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه ، فلما أخذ أم ابراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة ، فولدت فيها إبراهيم . وأصلحت من شأنه ثم سدت عليه باب المغارة ، ثم رجعت إلى بيتها وذلك بمدينة

كوثا ، وكانت تتردد إليه فتراه يمص إبهامه ، قد جعل الله تعالى رزقه في ذلك ، وكان آزر قد سألها عن حملها ، فقالت : ولدت غلاماً فمات فسكت عنها . وقيل : بل أخبرته ، فأتاه فحفر له سرباً ؛ وسد عليه بصخرة . وكانت أمه تختلف إلى رضاعه ، فلما تكلم قال لأمه : من ربي ؟ قالت : أنا . قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي؟ قالت له : اسكت ؛ فسكت . فرجعت الى زوجها ، فقالت له : إن الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض هو ابنك ؛ فأتاه . فقال له مثل ذلك ، فدنا بالليل من باب السرب ، فرأى كوكباً ، قال ابن عباس : هو الزهرة ، قال : وكان له حينئذ سبع سنين ، فقال : هذا ربي على زعمكم ، فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ، ويقول له : بعها. فيأخذ الصنم ويخرج ، فيقول : من يشتري مني ما يضره ولا ينفعه ، فشاع بين الناس استهزاؤه بالأصنام ، وجعل يقول لقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ أي : مقيمون على عبادتها ، قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . أي : إنا نقتدي بهم ونقلدهم ، فخرجوا يوماً الى عيد لهم ، فخرج معهم ، ثم ألقى نفسه في الطريق ، وقال : إني سقيم ، فلما مضوا قال : تالله لأكيدن أصنامكم . وأراد : لأكسرنها ، فسمع الكلمة رجل منهم ، فأفشاها عليه ، فدخل بيت الأصنام ، وكانت اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ، ونحاس وحديد وخشب ، فكسرها وجعلهم جذاذاً ، أي : فتاتاً ، ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ، لعلهم اليه يرجعون ، فلما رجعوا قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فنم عليه الذي سمع منه الكلمة ، فقال : سمعنا فتى يذكرهم . أي : يعيبهم . قالوا : فأتوا به على أعين الناس ، أي : بمرأى منهم ، لعلهم يشهدون . قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا .

والمعنى : غضب أن يعبد معه الصغار فكسرها ، فرجعوا الى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، حين عبدتم من لا يتكلم ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، أي : أدركتهم حيرة ، فلما لزمتهم الحجة ؛ حملوه الى نمرود ، فقال له : ما الاله الذى تعبد ؟ قال : ربي الذي يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت . آخذ رجلين قد استوجبا القتل ، فأقتل أحدهما ، فأكون قد أمته ، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته . قال : فإن الله يأتي

بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، أي : نمرود ، وحبسه سبع سنين ، وجوّع له أسدين ، وأرسلهما عليه ، فكانا يلحسانه ، ويسجدان له ، ثم أوقد له ناراً ، ورماه فيها فسلم ، وكف عنه نمرود ، فخرج مهاجراً الى الشام ، فتزوج سارة ، وهي بنت ملك حران ، وكانت قد خالفت دين قومها ، ومضى فنزل أرض فلسطين ، فاتخذ مسجداً ، وبسط له الرزق فكان يضيّف كل من نزل به ، وأنزل الله عليه صحفاً ، ثم إن الله عز وجل اتخذه خليلاً .

واختلف في سبب ذلك ، فقيل لإطعامه الطعام ، وقيل : لأن الناس أصابتهم سنة ، فأقبلوا الى باب ابراهيم ، يطلبون الطعام ، وكانت له ميرة من صديق له بمصر في كل سنة ، فبعث غلمانه بالإبل الى صديقه ، فلم يعطه شيئاً ، فقالوا : لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أن قد جئنا بميرة ، فملؤوا الغرائر رملاً ، ثم أتوا الى ابراهيم ، فأعلموه فاهتم لأجل الخلق فنام ، وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان ، ففتحت الغرائر ، فإذا دقيق حوار ، فأمرت الخبازين فخبزوا ، وأطعموا الناس ، فاستيقظ إبراهيم فقال : من اين هذا الطعام ؟ فقالت : من عند خليلك المصري ؛ قال : بل من عند خليلي الله ، فيومئذ اتخذه الله عز وجل خليلاً .

وأما نمرود فإنه بقي بعد القاء الخليل في النار أربعمائة عام لا يزداد إلا عتواً .

قال زيد بن أسلم : بعث الله الى نمرود ملكاً ، فقال له : آمن بي ، واتركك على ملكك ، فقال : وهل لك رب غيري؟ فأتاه ثانياً وثالثاً فأبى ، ففتح عليه باباً من البعوض فأكلت لحوم قومه ، وشربت دماءهم ، وبعث الله تعالى بعوضة فدخلت في منخره ، فمكث أربعمائة عام يضرب رأسه بالمطارق ، وأرحم الناس به من جمع يديه ، ثم ضرب بهما رأسه ، فعذب بذلك الى أن مات .

وقال مقاتل : عذب بالبعوضة أربعين يوماً ، ثم مات .

إخواني : السعيد من اعتبر ، وتفكر في العواقب ونظر ، صابر الخليل ماعليه جرى ، وهذه مدائحه كما ترى ، فمن صابر الهوى ربح واستفاد ، ومن غفل فاته المراد .

يافؤادي غلبتني عصيانا فأطعني فقد عصيت زمانا

يافؤادي أما تحن إلى طوبى إذا الريح حركت أغصانا
مثل الأولياء في جنة الخلد إذا ماتقابلوا إخوانا
قد تعالوا على أسرّة درٍّ لابسين الحرير والأرجوانا
وعليهم تيجانهم والأكاليل نباهي بحسنها التيجانا
ثم آبوا فاستقبلتهم حِسانٌ من بنات النعيم فُقن الحسانا
بوجوه مثل المصابيح مايعــرفن إلا الظلال والأكنانا
فهم الدهر في سرور عجيب ويزورون ربهم أحيانا

يا غافلين عما نالوا ، ملتُم عن التقوى وما مالوا ، ما أطيب ليلهم في المناجاة ، وما أقربهم من طريق النجاة ، فسبحان من كشف لهم ماغطى عن الغير ، وأعطاهم من جوده كل خير ومير ، فقطعوا مفاوز الدنيا بالصبر ولا ضير ، وكابدوا المجاعة حتى استحى راهب الدين .

إخواني : أحوال هذه الدنيا تتمارى . أما ترون زيها مسترداً مستعاراً؟ أما اللذات ففارقت وأبقت عارا ، وأما العمر فمنتهب جهاراً ، وسلب القرين يكفي وعظاً واعتباراً ، إياك وإيا الدنيا فراراً ، لقد قرت عيون الزاهدين وماتوا أحراراً ، قطعوا بالقيام ليلاً ، وبالصيام نهاراً ، واتخذوا الجد لحافاً والصبر شعاراً ، ربح القوم وخسرت ، وساروا إلى الحبيب وما سرت ، واستُزيروا إلى القرب وما استُزرت ، ذنوبك طردتك عنهم ، وخطاياك أبعدتك منهم ، قم في الليل ترى تلك الرفقة ، واسلك طريقهم وإن بعدت الشقة ، وابك على تأخرك عنهم ، واحذر الفرقة .

شمِّر عسى أن ينفع التشمير وانظر بفكرك ماإليه تصير
طوّلت آمالا تكنفها الهوى ونسيت أن العمر منك قصير
قدأفصحت دنياك عن غدراتها وأتى مشيبك والمشيب نذير
دارٌ لهوت بزهوها متمتعاً ترجو المُقام بها وأنت تسير

واعلم بأنك راحل عنها ولو　　عمّرت فيها ما أقام ثبير
ليس الغنى في العيش إلا بُلغةً　　ويسير مايكفيك منه كثير
لايشغلنك عاجل عن آجلٍ　　أبداً فملتمس الحقير حقير
ولقد تساوى بين أطباق الثرى　　في الأرض مأمور بها وأمير

فصـــل

في قوله تعالى (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) الأنبياء :٦٩

لما كسر الخليل الأصنام حملوه إلى نمرود ، فعزم على إهلاكه ، فقال رجل حرقوه ، فألقي في النار وهو ابن ست عشرة سنة .

قال علماء السير : حبسه نمرود ، ثم بنى له بنياناً إلى سفح جبل منيف طول جداره ستون ذراعاً ، ونادى منادي نمرود : أيها الناس احتطبوا لإبراهيم ، ولايتخلفن عن ذلك صغير ولا كبير ، فمن تخلف ألقي في النار ، ففعلوا ذلك أربعين ليلة ، حتى كانت المرأة تقول : ان ظفرت بكذا لاحتطبن لنار ابراهيم. حتى إذا كاد الحطب يساوي رأس الجدار قذفوا فوقه النار ،فارتفع لهبها حتى ان كان الطائر ليمر بها فيحترق، ثم بنوا بنياناً شامخاً ، وبنوا فوقه منجنيقاً ، ثم رفعوا ابراهيم على رأس البنيان ، فرفع ابراهيم رأسه إلى السماء ، فقال : اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل . ثم رمي به ، فاستقبله جبريل فقال : يا ابراهيم ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا ، قال جبريل : فسل ربك ، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

وروي أنه لما ألقي في النار جأرت عامة الخليقة إلى ربها عز وجل ، فقالوا : يارب خليلك يلقى في النار ، فأذن لنا أن نطفىء عنه ، فقال : هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره ، وأنا ربه ليس له رب غيري ، فإن استغاث بكم فأغيثوه ، وإلا فدعوه ، فلما ألقي في النار دعا ربه فقال الله عز وجل : (يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) الأنبياء: ٦٩ فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب ، فلم ينضج منها كراع .

قال ابن عباس : لم يبق يومئذ في الأرض نار إلا طفئت ظنت أنها هي التي تُعنى ، ولو لم يتبع بردها سلاماً لمات ابراهيم من بردها.

قال علماء السير : لما ألقي في النار أخذت الملائكة بضبعيه فأجلسوه على الأرض ،فإذا عين من ماء عذب ، وورد أحمر ، ولم تحرق النار إلا وثاقه ، ونزل جبريل بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، فأقام هناك أربعين يوماً ، فجاء آزر الى نمرود فقال : ائذن لي أن أخرج عظام ابراهيم وأدفنها فخرج نمرود ومعه الناس ، فأمر بالحائط فنقب . فإذا ابراهيم في روضة تهتز ، ونباته يندى ، وعليه القميص ، وتحته الطنفسة ، والملك الى جنبه . فناداه نمرود: يا إبراهيم إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا الكبير . هل تستطيع أن تخرج؟! قال: نعم . فقام ابراهيم يمشي حتى خرج . فقال : من هذا الذي رأيت معك ؟ قال : ملك أرسله الله تعالى ليؤنسني ، فقال نمرود : إني مقرب الى إلاهك قرباناً لما رأيت من قدرته ، فقال : إذن لايقبل منك ما كنت على دينك ، فقال : يا ابراهيم لاأستطيع أن أترك ملكي ، ولكن سوف أذبح له ، فذبح له أربعة آلاف بقرة ، وكف عن ابراهيم عليه السلام .

سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ، ثم أعانه بالتوفيق فعضده وآزر ، ثم بعث اليه الثبات فأعان ووازر ، فلما رأيناه قد رحل عن المنجنيق وسافر ، ولم يتزود إلا التسليم قلنا (يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) الأنبياء: ٦٩ . عبد بذل نفسه لنا ، فبلّغناه منا المنى ، وعرفناه المناسك عند البيت ومِنى ، ولما رمي في النار لأجلنا ، قلنا لها بلسان التفهيم (يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . قدم ماله الى الضيفان ، وسلم ولده الى القربان ، واستسلم للرمي في النيران ، فلما رأينا محبّنا في بيداء الوجد يهيم . (قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . بنوا له بنياناً الى سفح جبل ، واحتطب من أجله من شرب وأكل ، وألقوه فيها وقالوا: قد اشتعل ، فخرج نمرود ينظر ماذا فعل ، وقدخرج توقيع القيدم عن القديم (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) قابل القوم رسولنا بأقبح تكذيب ، وقصدوا خليلنا بأشد تعذيب ، فلا شك ولا شكى الى بعيدولا قريب ،

وصاح بنفسه صبراً على الهول العظيم (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . تعرضت له الأملاك ، فكفّها كفاً ، فلما رأيناه لايمد الى غيرنا كفاً ، مدحناه ويكفي في مدحنا الذي وفّا ، واجتمع الخلائق ينظرون من صفّى ، فلما دنى وقت القلب أتى الله بقلب سليم (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) . تنحّ ياجبريل فماذا موضع زحمة ، وخلّني وخليلي فإليه الرحمة ، وهل بذلت له الا لحمة تبلى أو شحمه ، فلما وطن نفسه على أن يصير فحمه ، وحوشي من ذلك الكريم (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) كانت الملائكة تدّعي الغنى بالطاعة ، فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة ، وشاهدوا يوم الخليل ماليس لهم به استطاعة ، رأى مارأى ولاأزعجه ولا راعه ، فلما رأيناه ساكناً والأملاك في مقعد مقيم (قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم) الأنبياء : ٦٩ .

اللهم إنا نسألك بالخليل في منزلته ، والحبيب في مرتبته ، وكل مخلص في طاعته ، أن تغفر لكل منا كل زلته ، يارحيم يا كريم .

اللهم يالطيف يارازق ، ياقوي ياخالق ، نسألك تألهاً إليك ، واستغراقاً في محبتك ، ولطفاً شاملا جلياً وخفياً ، ورزقاً طيباً هنيئاً ومريئا ، وقوةً في الإيمان واليقين ، وصلابة في الحق والدين ، وعزّاً بك يدوم ويتخلد ، وشرفاً يبقى ويتأبد ، لايخالطه تكبر ولا عتو ، ولا إرادة فساد في الأرض ولا علو ، انك سميع قريب مجيب ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين .



المجلس الثامن

في قصة بناء الكعبة

الحمد لله الملك العظيم الجليل ، المنزّه عن النظير والعديل ، المنعم بقبول القليل ، المكرم بإعطاء الجزيل ، تقدّس عما يقول أهل التعطيل ، نصب للعقل على وجوده أوضح دليل ، وهدى إلى جوده أبين سبيل ، وجعل للحس خطاً إلى ميله يميل ، فأمر ببناء بيت وجل عن السكنى الجليل (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) البقرة : ١٣٧ كما حماه لما قصده أصحاب الفيل ، فأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل .

أحمده كلما نطق بحمده وقيل ، وأصلي على محمد رسوله النبي النبيل ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصدّيق الذي لا يبغضه إلا ثقيل ، وعلى عمر وفضلُ عمر فضلٌ طويل ، وعلى عثمان وكم لعثمان من فعل جميل ، وعلى علي وجحد قدر علي تضليل ، وعلى سائر آله وأصحابه ذوي القدر الجليل ، وسلم تسليما .

قال الله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) البقرة : ١٣٧
اختلف العلماء في المبتدىء ببناء الكعبة على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى وضعه لا ببناء أحد قبل خلق الدنيا .

قال مجاهد : لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من هذه الأرض بألفي سنة ، وان قواعده لفي الأرض السابعة السفلى .

القول الثاني : أن الملائكة بنتْه .

قال أبو جعفر الباقر : لما قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها عتب الله عليها فعاذوا بالعرش يطوفون حوله ، يسترضون ربهم تبارك وتعالى ، فرضي عنهم ، وقال : ابنوا لي في الأرض بيتاً ، يعوذ به كل من سخطت عليه ، كما فعلتم بعرشي ، فبنوا هذا البيت .

والثالث : أن آدم لما أهبط أوحى الله اليه : ابنِ لي بيتاً ، واصنع حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي ، فبناه . رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال وهب : فلما مات آدم بناه بنوه بالطين والحجارة .

قال مجاهد : وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيول ، وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب .

قال علماء السِّيَر : لما سلِمَ الخليل من النار خرج بمن معه من المؤمنين مهاجراً ، فتزوج سارة بحرّان ، وقدم مصر وبها فرعون من الفراعنة ، فوصف له حسنها ، فبعث فأخذها ، فلما دخلت قام إليها ، فقامت تصلي ، وتقول : اللهم آمنت بك وبرسولك ، وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط علي الكافر . فغط حتى ركض برجله ، فقالت : اللهم ان يمت يقل : هي قتلته ،فأُرسل ، ثم قام إليها ، فدعت فغُطّ حتى ركض برجله ، ثم أُرسل ، فقال : ردوها الى ابراهيم ، وأعطوها هاجَر ، فوهبتها لإبراهيم ، وقالت : لعله يأتيك منها ولد ، وكانت سارة قد منعت الولد ، فولدت له إسماعيل ، فهو بكر أبيه ، وولد له وهو ابن تسعين سنة ، فلما ولدت غارت سارة فأخرجتها ، وحلفت : لتقطعن منها ، فخفضتها ، ثم قالت : لا تساكنيني في بلدي ، فأوحي اليه أن يأتي مكة ، فذهب بها وبابنها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فقال يا جبريل : أهاهنا أمرت أن أضعهما قال : نعم . فأنزلهما موضع الحجر ، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم ، وبابنها إسماعيل ، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى ابراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ؛أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟قالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيِّعنا الله ، ثم رجعت ، وانطلق ابراهيم حتى

إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه . فقال : (رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع) ابراهيم : ٣٧ حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى من العطش ، أو يتلبط ، فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي ؛ رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة ، فقامت اليها ونظرت هل ترى أحداً ؟ ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ : فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت ، فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوّضه ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها ، وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ؛ أو قال : لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، فإن الله لا يضيّع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً ؛ فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً ، أو جرّيين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء وأم إسماعيل فأتوا اليها . فقالوا : تأذنين أن ننزل عندك ؛ فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء قالوا : نعم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ : « قالت ذلك أم إسماعيل ، وهي

تحب الانس ، فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم ، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام فيهم ، وتعلم منهم العربية ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء ابراهيم بعد ماتزوج إسماعيل يطالع تركته ،فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيأتهم فقالت : نحن بشر في ضيق وشدة ،وشكت اليه . قال : فإذا جاء زوجك ؛ فاقرئي عليه السلام ، وقولي له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم . جاءنا شيخ كذا و كذا ؛ فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك : غيِّر عتبة بابك . قال : ذاك أبي ،وقد أمرني أن أفارقك . إلحقي بأهلك ، فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيأتهم ، فقالت . نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن يومئذ حبٌ ، ولو كان لهم لدعا لهم فيه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل ، قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك ؛ فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته : أنَّا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبِّت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم جاء بعد ذلك ، وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام اليه ، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد الشفيق ، والوالد بالولد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما آمرك ربك . قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : إن الله أمرني أن أبتني هاهنا بيتاً ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة ، وابراهيم يبني حتى اذا

ارتفع البناء جاء بالحجر ، فوضعه له ، فقام عليه ، وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم » انفرد بإخراجه البخاري .

قال علماء السِّيَر : وولد لإسماعيل اثنا عشر ولداً ، واتخذه الله نبياً ، وبعثه إلى العماليق وجرهم ، وقبائل اليمن ، فنهاهم عن عبادة الأوثان ، وعاش مائة وسبعاً وثلاثين سنة . ولما توفي دبر أمر الحرم ابنه نابت . ويقال: نبت ، ثم غلبت جرهم على البيت؛ وانهدم ، فبنته العمالقة ، ثم بنته جُرهم ،وقصده أصحاب الفيل ، وكان السبب أن أبرهة بنى كنيسة ، وأراد أن يصرف اليها الحج ، فخرج رجل من العرب ، فأحدث فيها ، فغضب أبرهة ، وقصد الكعبة ، فلما دنا من مكة أغار أصحابه على نعم الناس ، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، ثم قال أبرهة لبعض أصحابه : سل عن شريف مكة ، فأُتي بعبد المطلب ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : أن ترد علي إبلي . قال : أولا تسألني في بيت هو دينك ودين آبائك ؟ فقال : أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت رب سيمنعه ، فخرج فأمر قريشاً أن يتفرقوا في الشعاب ، وأخذ بحلقة باب الكعبة وقال :

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... إمنعهم أن يخربوا قراكا

فبعث الله تعالى عليهم طيراً رؤوسها كرؤوس السباع ، وقيل: كأمثال الخطاطيف ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ؛ حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، وكانت كأمثال الحمّص ، وقيل : كرأس الجمل ، فكانت تقع على الرجل ، فتخرج من دبره . والأبابيل : جماعات أو متفرقة . ثم بنت قريش البيت ، ورسول الله ﷺ يومئذ شاب ، ثم بناه ابن الزبير ؛ ثم نقضه الحجاج وبناه .

سبحان من اختص من عباده الأخيار ، فجعل منهم الأنبياء والابرار ، وأبعد العصاة والفجار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ليأتينك من الموت مالا يقبل رشوة ولا مالا ، إذا مال على القويِّ والقويم مالا ، يا مختار الهوى جهلا وضلالا ، لقد حمّلت أوزارك أوزاراً ثقالا ، إياك والمنى فإن المنى محال .

كم قد سقى من الحسرات كؤوساً ، وفرغ ربعاً قد كان مأنوساً ، وطمس بهوله بدوراً وشموساً ، وأغمض عيوناً ونكس رؤوساً ، وأبدل التراب عن الثياب ملبوساً .

إذا كان ما فيه الفتى عنه زائلا   فسيَّان فيه أدرك الحظ أو أخطا
وليس يفي يوماً سرور وغبطة   بحزن إذا المعطي استردالذي أعطا

فصـــل

في قوله تعالى : (في بيوت أذن الله أن تُرفع) النور : ٣٦ البيوت هاهنا : المساجد. وأذن بمعنى : أمر . وترفع بمعنى : تعظم . واسمه : توحيده و كتابه .

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها » .

وفي « الصحيحين » من حديث عثمان عن النبي ﷺ أنه قال : « من بنى مسجداً بنى الله له مثله في الجنة » وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « من غدا إلى المسجد أوراح أعد الله له في الجنة نُزلاً كلما غدا أوراح » .

قوله تعالى : (رجالٌ لا تلهيهم تجارة) النور : ٣٧ أي : لا تشغلهم . والمراد بذكر الله : الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : إنه القيام بحق الله . وقال أبو سليمان الدمشقي : ذكر الله باللسان .

قوله (وإقام الصلاة) البقرة : ١٧٧ أي : أداؤها لوقتها وإتمامها .

قال سعيد بن المسيّب : ما أذّن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد .

وقال سفيان بن عيينة : لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يدعى ائت الصلاة قبل النداء .

قوله : (يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار) النور : ٣٧ تصعد القلوب إلى الحناجر ، وتتقلب الأبصار إلى الزُّرقة عن الكحل ، والعمى بعد النظر .

قال معتِّب بن سمي : تكون الشمس فوق رؤوسهم على أذرع ، وتفتح أبواب

جهنم ، فيهبُّ عليهم من رياحها وسمومها ، وتخرج عليهم نفحاتها حتى تجري الأنهار من عرقهم ، والصائمون في ظل العرش .

يا من لا يردعه ما يسمعه ، يا من لا يقنعه ما يجمعه ، أما القبر عن قليل موضعه ، أما اللحد عن قريب مضجعه ، أما يرجع عنه من يشيّعه ، ويؤخذ ما جمعه أجمعه ، كم يخرق خرقاً بالخطأ ثم لا يرقعه ، كم يعلم غرور الهوى ، وهو يتبعه ، لقد تكاثفت ذنوبك يركب بعضها بعضاً ، وتعاظمت عيوبك ، فملأت طولاً وعرضاً ، وهذا الموت يركض نحو روحِك ركضاً ، وعندك من الدنيا فوق ما يكفي وما ترضى ، أآمنت على مبسوط الأمل بسطاً وقبضاً ؟ كم حضر الردى إذ أتى غصناً غضا ، كم بلبل بالاً وما بالا هدماً ونقضا ، اسمع مني قولاً نفوعاً ، ونُصحاً محضاً ، قد جنيت طويلًا فكن من اليوم ذليلًا أرضاً .

روي عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه قال لرجل رآه يضحك : لا تطمعن في بقائك ، وأنت تعلم أن مصيرك الموت . فلم يضحك من يموت ، ولا يدري أين مصيره إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا يدري أي وقت يكون الموت صباحاً أو مساء ؟ بليل أو نهار؟ ثم قال : أوّاه وسقط مغشياً عليه .

وقال ذو النّون . لقيت جارية سوداء قد استلبها الوله من حب الرحمن ،شاخصة ببصرها نحو السماء . فقلت : علّميني شيئاً مما علمكِ الله ، فقالت : يا أبا الفيض ضع على جوارحك ميزان القسط حتى يذوب كل ما كان لغير الله ، ويبقى القلب مصفى ليس فيه غير الرب عز وجل ، فعند ذلك يُقيمُك على الباب ، ويوليك ولاية جديدة ، ويأمر الخزان لك بالطاعة ، فقلت : زيديني ، فقالت : خذ من نفسك لنفسك ، وأطع الله إذا خلوت . يحبك إذا دعوت . ثم ولّت عني . وبات عُتبة الغلام ليلة على ساحل البحر ، فجعل يقول : إن تعذبني ، فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب . فلم يزل يرددها الى الصباح .

وكان بعضهم يقول : ابكو على خوف فوت الآخرة ، حيث لا رجعة ولا حيلة .

أخواني : من النفوس نفوس خلقت طاهرة ، ونفوس خلقت كدرة ، وانما تصلح الرياضة في نجيب للنفوس الخيّرة . علامات الجدّ في الطلب ، الحذر من الزلل ، والاحتقار للعمل ، والخوف من خوف السابقة ، والجزع من حذر الخاتمة ، فترى أحدهم يستغيث استغاثة الغريق ، ويلجأ لجأ الأسير ، الذلُّ لباسه ، وسهر الليـل فراشه ، وذكر الموت حديثه ، والبـكاء دأبه . لما آثرت النوم ، سار القوم ، فقطّع نفسك باللوم اليوم .

يا هــذا لو رأيت أرباب القلوب والأسرار ، وقد أخذوا اهبة التعبّدِ في الاسحار ، وقاموا في مقام الخوف على قدم الانكسار ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، عقدوا عزم الصيام وما جاء النهار ، وسجنوا الألسنة فليس فيهم مِهذار ، وغضوا أبصارهم ولازموا غضّ الأبصار ، فانظر مدحهم الى أين انتهى وصار ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار .

أحزانهم احزان ثكلى مالها اصطبار ، ودموعهم لولا التحري لقلت كالأنهار ، ووجوههم من الخوف قد علاها الصُفار ، والقلق قد أحاط بالقوم ودار (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) النور: ٣٧ جدوا في انطلاقهم الى خلاّقهم ، وراضوا أنفسهم بتحسين أخلاقهم ، فإذا بهم قد أذابهم كرب اشتياقهم . أتدري ما الذي حبسك عن لحاقهم ؟ حبُّ الدرهم والدينار .

اللهم أيقظنا من هذه السنة ، ووفقنا لاتباع ذوي النفوس المحسنة ، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

اللهم وآتنا أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين الأبرار ، وارزقنا التوفيق للأعمـال الصالحة ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، يا كريم يا غفار .

اللهم واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنـا ، وفرج همومنـا ، وأزل غمومنا ، يا حليم يا ستار ، واغفر اللهم لنا ولجميع المسلمين الأحيـاء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .

المجلس التاسع

في ذكر اسحاق وقصة الذبيح

الحمد لله الذي أنشأ وبرا ، وخلق الماء والثرى ، وأبدع كل شيء وذرا ، لايغيب عن بصره دبيب النمل بالليل إذا سرى ، ولايعزب عن علمه ماعنّ وما طرا ، اصطفى آدم ثم عفا عما جرى ، وابتعث نوحاً فبنى الفلك وجرى ، ونجى الخليل من النار فصار حرها ثرى ، ثم ابتلاه بذبح الولد فأدهش صبره الورى (يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) الصافات : ١٠٢

احمده ماقُطع نهار بسير وليل بسُرى ، وأصلي على رسوله محمد المبعوث في أم القرى ، صلى الله عليه وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار بلا مِرا ، وعلى عمر الفاروق المحدّث في سره فهو بنور الله يرى ، وعلى عثمان زوج ابنتيه ما كان حديثاً يُفترى ، وعلى علي بحر العلوم وأسد الشرى ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين اشتهر فضلهم في الورى ، وسلم تسليما.

قال الله تعالى : (فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك) . المراد بالسعي : المشي معه وتصرفه . وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة ، وهذا الزمان أحب مايكون الولد الى والده فيه ، لأنه وقت يستغني فيه عن مشقة الحضانة والتربية ، ولم يبلغ وقت الأذى والعقوق ، فكانت البلوى أشد .

وللعلماء في الذبيح قولان .

أحدهما : أنه اسماعيل قاله ابن عمر ، وعبد الله بن سلام ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيَّب والشعبي ومجاهد في آخرين .

والثاني : أنه اسحاق ، وهذا قول عمر وعلي والعباس وابن مسعود وأبي موسى وأبي هريرة وأنس و كعب ووهب ومسروق في خلق كثير . فأما سبب أمره بذبحه ، فروى

السدي عن أشياخه أن جبريل لما بشر سارة بإسحاق ، قالت : وما آية ذلك؟ فأخذ عوداً يابساً في يده ، فلواه بين أصابعه ، فاهتز أخضر ، فقال ابراهيم : فهو لله ذبيح ، فلما كبر إسحق أُتي ابراهيم في النوم ، فقيل له : أوف بنذرك . فقال لإسحاق : انطلق نُقرّب الى الله ، فأخذ سكيناً وحبلاً ، ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال ، قال له الغلام : ياأبت أين قربانك؟ قال : يابني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فقال إسحاق : اشدد رباطي حتى لا أضطرب ، واكفف ثيابك لاينتضح عليهامن دمي ، فتراه أمي سارة فتحزن ، وأسرع مر السكين على حلقي ، ليكون أهون للموت علي ، فإذا أتيت سارة فأقرئها مني السلام. فأقبل عليه ابراهيم يقبله ويبكي ، فربطه وجر السكين على حلقه ، فلم تذبح السكين ، وقيل : انقلبت السكين ، فنودي يا ابراهيم! قد صدّقت الرؤيا ، فإذا بكبش فأخذه وخلاّ عن ابنه ، وأكب عليه يقبله ، ويقول : يابني اليوم وُهبت لي ، فرجع الى سارة فأخبرها الخبر ، فقالت : أردت أن تذبح ابني ولم تعلمني .

قيل : لما علمت ذلك ماتت في اليوم الثالث . وإنما قال : فانظر ماذا ترى . أي : ماعندك من الرأي ، ولم يقل له ذلك على جهة المؤامرة في أمر الله سبحانه . قال : ياأبت افعل ماتؤمر .

فسبحان المفاوت بين الخلق ، يقال للخليل : اذبح ولدك ، فيأخذ المدية ويضجعه للذبح ، ويقال لقوم موسى : اذبحوا بقرة فذبحوها وما كادوا يفعلون . يخرج أبو بكر من جميع ماله ، ويبخل ثعلبة بالزكاة .

قال علماء السِّير : لم يمت ابراهيم حتى نُبىء إسحاق ، وبعث إلى الأرض الشامية ، وعاش مائة وستين سنة ، وتوفي بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم .

إخواني : تأملوا عواقب الصبر ، وتصوروا في البلاء وفور الأجر ، فمن تصور زوال المحن ، وبقاء الثناء ؛ هان الابتلاء عليه . ومن تفكر في فناء اللذات وبقاء العار ، هان تركها لديه ، ومايلاحظ العواقب إلا بصير ناقد .

أيها الناكب عن نهج الهدى وهو بادٍ واضح للسالكين

اله عن ذكر التصابي إنـه | سرَف بعد بلوغ الأربعـين
واجعل التقوى معاذاً تحتمي | بحماه إنه حصن حصـين
واسأل الله تعـالى عفـوه | واستعينه انه خير معـين

إخواني : الأيام لـكم كالمطايا ، فأين العدة قبل المنايا ؟ أين الأنفة من دار الأذايا ؟ أين العزائم أترضون الدنايا؟ إن بليّة الهوى لاتشبه البلايا، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا وسريّة الموت لاتشبه السرايا ، وقضية الزمان لا كالقضايا ، وملك الموت لايقبل الهدايا، يامستورين ستظهر الخبايا .

عجباً لمؤثر الفانية على الباقية ، ولبائـع البحر الخضم بساقية ، ولمختار دار الكدر على الصافية .

أيها المتوطن بيت غروره، تأهب لإزعاجك . أيها المسرور بقصوره ، تهيأ لإخراجك خذ عدتك ، وانهض في قضاء حاجك ، قبل فراق أولادك وآزواجك ، ماالدنيا دار مقامك ، بل حلبة ادلاجك . أتأمن بطش ذي البطش ، وتبارزه عالماً برؤيته ولم تخش ؟ أنسيت الركوب على ظهر النعش ؟ أنسيت النزول في بيـداء الدبيب والوحش ؟ أنسيت الحلول في لحد خشن الفرش؟ يامن لايصبر للقضاء ولا على خدش ، يامغترّاً بزخرف الهوى قد ألهاه النقش ، يامن اذا وزن طفّف ، وإذا باع غش ، اذا جنيت على نفسك فعلى من الأرش؟ كن متيقظاً فإنك بعين ذي العرش .

تعلل بالآمال والموت أسرع | وتغترّ بالأيام والوعظ أنفع
أما المرء اما لم يمت فهو ذائق | فراق الأخلاء الذي هو أوجع
فودع خليل النفس قبل فراقه | فما الناس إلا ظاعن ومودع

ياهذا عليك بالجد والاجتهاد ، وخل هذا الكسل والرقاد ، فطريقك لابد لها من زاد.

انهض الى المعالي | واجسر ولا تبالي | وخذ من الزمان | حظاً فأنت فاني
المجـد بالمخاطرة | والنصر بالمصابرة | ما للورى في غفلة | قد خُدعوا بالمهلة
ألا لبيب يعقل | ألا جهول يسأل | أأنتم في ريبـة | ما أعظم المصيبـة

دنيا كمُ حبيبة في حسنها رطيبة لكنها غدارة خداعة غرارة
ليس لها حبيب زوالها قريب كالمومس البغي تلبس كل زيّ
ملومة خوّانة ليس لها أمانة عزيزها ذليل كثيرها قليل
تفرّق الأحبابا تشتت الأترابا حرب لمن سالمها غلّ لمن لازمها
لقاؤها فراق وعرسها طلاق ووصلها صدود ووعدها وعيد
وصالها عناء صدودها بلاء شرابها سراب نعيمها عذاب
إن أقبلت ففتنة أو أدبرت فمحنة أخلاقهامذمومة لذاتها مسمومة
يحظى بهاالجُهّال وينعم الأنذال يشقى بهااللبيب ويتعب الأريب
فخلّ عنها يافتى الى متى الى متى؟!

فصل

في قوله تعالى : (ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به) النساء: ١٢٣.

روي لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله إنا لنُجازى بكل سوء نعمله ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحمك الله ألست تنصب؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ » .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قال ربكم عز وجل : لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل ، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد ».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: قال رسول الله ﷺ : « ماظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوها الا ابتلوا بالطواعين ، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان الا ابتلوا بالسنين ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان، ومامنع قوم زكاة أموالهم الا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولاخفر قوم العهد الا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض مافي أيديهم ».

وقال هشام : اغتم ابن سيرين مرة ، فقيل له : يا أبا بكر ماهذا الغم؟ فقال : هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة .

يا هذا الطالب حثيث فبادر ، والفضائل معروضة فثابر ، آه للسان نطق بالآثام ، كيف غفل عن قوله تعالى : (اليوم نختم على أفواههم) يس: ٦٥ . آه ليدٍ امتدت الى الحرام ، كيف نسيت (وتكلمنا أيديهم) يس: ٦٥ . آه لقدم سعت في الإجرام ، كيف لم تدبر قوله تعالى (وتشهد أرجلهم) يس: ٦٥ . آه لجسد رُبي على الربا أما سمع منادي التحذير على ربا (فلا يربو عندالله)؟ آه لذي فمٍ فُغر لتفريغ كأس الخمر أما بلغه زجر (فاجتنبوه) .

قال محمد بن كعب القرظي : إنما الدنيا سوق خرج الناس منها بما ضرهم ، وبما نفعهم ، وكم اغتر ناس حتى خرجوا ملومين ، واقتسم ماجمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا الى من لايعذرهم ، فيحق لنا أن ننظر الى مانغبطهم به من الأعمال ، فنعملها ، والى مانتخوف عليهم منها فنجتنبها .

وقال يحيى بن معاذ : المغبون من عطل أيامه بالبطالات ، وسلط جوارحه على الهلكات ، ومات قبل إفاقته من الجنايات .

يامن معاصيه جمة مشهوره ، ونفسه مايجني عليها مسروره ، أفي العين كمَهٌ أم غشاء ؟ ألك الأمر يجري كما تشاء؟ أعلى القلب حجاب أم غشاء؟ يا كثير المعاصي قعداً أو مشى ، عظمت ذنوبك فمتى تقضي؟ يامقيماً وهو في المعنى يمضي ، أفنيت الزمان في الخطأ ضياعاً ، وساكنت غروراً من الأمل وأطماعا ، تفكر في عمرك مضى نهباً مشاعاً ، لا في الشباب أصلحت ، ولا في الكهول أفلحت . ياسيء السريره ، كم عليك جريره ، ويحك أتنسى الحفيرة؟ أم هي عندك حقيرة؟ أيامك قصيرة ، وتضيعها على بصيره ، لقد قطع الأجل مسيره ، ولكن على أقبح سيرة ، ذنوبك جمة كثيرة ، وعينك بها قريرة ، ماتظلم مقدار شعيرة .

يامن راح في المعاصي وغَدا ، ويقول : سأتوب اليوم أو غدا ، كيف تجمع قلباً قد صار في الهوى مبدداً ؟ كيف تليّنه وقد أمسى بالجهل جلمدا ؟ لقد ضاع

قلبك فاطلب له ناشدا ، فياليت شعري بأي وجه تلقى الردى؟ تذكر ليلة تبيت في في القبر منفردا .

بدت دهياء تنذر بالخطوب فلاحظها بأبصار القلوب
وقد دل المجيء على ذهابٍ كما دل الطلوع على الغروب
ولكن القلوب محجباتٌ وشر حجابها كسب الذنوب

يامعرضاً عن الهدى لايسعى في طلبه ، يامشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه ، يامن صاح به الموت عند أخذ صاحبه (من يعمل سوءاً يُجز به) النساء : ١٢٣ . جز على قبرالصديق وتلمح آثار الرفيق ، يجزيك على الأنيق ، إنه استلب بكف البريق ، هذا لحده وغداً تبيت به (من يعمل سوءاً يجز به) . كم نهي عن خطيءٍ فما انتهى ، وكم زجرته الدنيا ثم يسعى لها ، هذا ركنه القويم قد وهى ، وها أنت في سلبه (من يعمل سوءاً يجز به) . أين من عتى وظلم؟ ولقي الناس منه الألم ، اقتطعه الردى فما نفعه ماجمع ، ولم يدفع عنه عزٌ منصبه (من يعمل سوءاً يجز به) النساء: ١٢٣ . اللذات تفنى عن قليل وتمر ، وآخر الدنيا الحلوّة مر ، وليس في الدنيا شيء يسَر ، إلا ويضر ، ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه ، (من يعمل سوءاً يجز به) . الكتاب يحوي حتى النظرة ، والحساب يأتي على الذرة ، وخاتمة كأس اللذات مره ، والأمر جليّ للفهوم لايَشتبه (من يعمل سوءاً يجز به) . تقوم في حشرك ذليلاً ، وتبكي على الذنوب طويلاً ، وتحتمل على ظهرك وزراً ثقيلاً ، فالويل للعاصي وقبيح منقلبه (من يعمل سوءاً يجزبه) . تجتمع الخلائق كلهم في صعيد ، وينقسمون إلى شقيّ وسعيد ، فقوم قد حل بهم الوعيد ، وقوم قيامتهم نزهة وعيد ، وكل عامل يغترف من مشربه (من يعمل سوءاً يجز به) إنما يقع الجزاء على أعمالك ، وإنما تلتقي في غدٍ غِبّ أفعالك ، وقد نصحناك نقصد إصلاح حالك ، فإن كنت متيقظاً فاعمل بذلك ، وإن كنت نائماً فانتبه (من يعمل سوءاً يجز به) النساء : ١٢٣ .

اللهم احمنا من المخالفة والعصيان ، واكفنا آفات الإعراض والتفريط والنسيان ، كما حميتنا بكرمك من دواعي الكفر الموبقة ، ونفحات البدع المحرقة ، أنت العلي العظيم

المتعال ، ذو العز والكرم والمجد والجلال ، تحيرت العقول في وصف جلالك ، وقصرت الأفهام عن الإحاطة بكمالك ، فأنت مع جبروتك وعزتك تجبر الكسير ، وترحم الفقير ، تعز الذليل إذا لاذ بجنابك ، وتغني السائل المسكين إذا وقف ببابك ، وأنت الملك الأعظم ، والمولى الأكرم ، وهانحن قد وقفنا ببابك ، وأنت تعلم أنه ليس في قلوبنا أحد نرغب إليه ، رغبتنا إليك ، ولا لنا ركن نعتمد عليه ، اعتمادنا عليك ، وقد اعترفت نفوسنا بالإساءة وانقطاع الحيل ، ووثقت قلوبنا بجميل الرجاء وحسن الأمل ، وقد عاملتنا بكرمك وجودك ، وألهمتنا معرفة وجودك ، وزينتنا بصدق توحيدك ، وأنطقتنا بتحميدك وتمجيدك ، وأكرمتنا بتصديق محمد خير خلقك ، وجعلت حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، فنسألك أن تُحسن إيماننا بالتوفيق ، وتزيّن أسرارنا بالتحقيق .

اللهم تفضل علينا بالقبول والإجابة ، وارزقنا صدق التوبة وحسن الإنابة ، واجعلنا ممن رجع إليك فأكرمت مآبه ، يامن أمدْ بعنايته أحبابه ، آمين يارب العالمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك ياأرحم الراحمين .



المجلس العاشر

في قصة لوط عليه السلام

الحمد لله الذي أحكم الأشياء كلها صنعاً ، وتصرف كما يشاء إعطاءاً ومنعاً ، أنشأ الآدمي من نطفة فإذا هو يسعى ، وخلق له عينين ليبصر المسعى ، ووالى لديه النعم وتراً وشفعاً ، وضم إليه زوجة تدبر أمر البيت وترعى ، وأباحه محل الزرع وقد فهم مقصود المرعى ، فتعدّى قوم الى الفاحشة الشنعا ، فرُجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعى (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً) هود : ٧٧ .

أحمده ما أرسل سحاباً وأنبت زرعاً ، وأصلي على رسوله محمد أفضل نبي علّم أمته شرعاً صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي كانت نفقته للاسلام نفعاً ، وعلى عمر منيف الإسلام بدعوة الرسول المستدعى ، وعلى عثمان الذي ارتكب الفخار وبه يُدعى ، وعلى علي الذي يحبه أهل السنة قطعا ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين قطع الله بهم الكفر قطعاً ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً) . كان لوط عليه السلام بن هاران بن تارخ ، فهو ابن أخي ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكان قد آمنَ به ، وهاجر معه الى الشام بعد نجاته من النار ، فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الاردن ، فأرسل الله تعالى لوطاً الى أهل سدوم ، وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل يرتكبون الفاحشة ، فدعاهم الى عبادة الله تعالى ، ونهاهم عن الفاحشة ، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً ، فدعا الله تعالى أن ينصره عليهم ، فبعث الله تعالى جبريل وميكائيل واسرافيل ، فأقبلوا مشاة في صور رجال شباب ، فنزلوا على ابراهيم ، فقام يخدمهم وقدم اليهم الطعام فلم يأكلوا وقالوا : لا نأكل طعاماً إلا بثمنه . قال : فإن له ثمناً . قالوا : وماهو؟ قال :

تذكروا اسـم الله عز وجل على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل الى ميكائيل وقال : حُق لهذا أن يتخذه الله خليلاً .

فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم ، أي : خاف أن يكونوا لصوصاً ، فقالوا : لا تخف إنا أرسلنا الى قوم لوط ، فضحكت سارة تعجبـاً ، وقالت : نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا ، فقال جبريل : أيتها الضاحكة أبشري باسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، فلما سكن روع إبراهيم ، وعلم أنهم ملائكة أخذ يناظرهم ، وقال : أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن ، قالوا : لا . قال : أربعون . قالوا : لا . قال : أربعة عشر . قالوا : لا ، وكان يعدّهم أربعة عشر مع امرأة لوط . قال : ان فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، فسكت واطمأنت نفسه ، ثم خرجوا من عنده فجاؤوا الى لوط ، وهو في أرض له يعمل فيها ، فقالوا : إنا متضيفوك الليلة ، فانطلق بهم ، والتفت اليهم في بعض الطريق ، فقال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أخبث منهم ، فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته ، فأخبرت بهم قومها .

وقوله تعالى : (سيىء بهم) هود : ٧٧ . أي : أساءه مجيء الرسل لإنه لم يعرفهم فخاف عليهم من قومه (وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب) هود : ٧٧ (وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل) هود : ٧٨ أي : ومن قبل مجيء الأضياف (كانوا يعملون السيئات) فقـال لوط : (هؤلاء بناتي) هود : ٧٨ يعني : النساء ، ولكونهن من أُمته صار كالأب لهن (هن أطهر لكم) هود : ٧٨ أي : أحل (فاتقوا الله) هود : ٧٨ أي : احذروا عقوبته ، ولا تخزون في ضيفي ، أي : لا تفعلوا بهم فعلاً يوجب حيائي (أليس منكم رجل رشيد) هود : ٧٨ فيأمر بمعروف وينهى عن منكر (قالوا لقد علمت مـا لنا في بناتك من حقٍ) أي : من حاجة (وإنك لتعلم ما نريد) هود : ٧٩ أي : ما نريد إلا النساء (قال لو أن لي بكم قوّة) أي : جماعة أتقوّى بها عليكم (أو آوي الى ركن شديد) هود : ٨٠ أي : الى عشيرة منيعة ، وإنما قال هذا ،

لأنه قد أغلق بابه ، وهم يعالجون الباب ، ويوومون تسور الجدار ، فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب (قالوا يا لوط إنا رسل ربك) هود : ٨١ فافتح الباب ، ودعنا وإياهم ففتح الباب ، فدخلوا ، واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم ، فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم ، فانصرفوا يقولون : النجاء النجاء فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض ، وجعلوا يقولون : كما أنت حتى تصبح يوعدونه ، فقال لهم لوط : متى موعد هلاكهم ؟ قالوا : الصبح . قال : لو أهلكتموهم الآن فقالوا (أليس الصبح بقريب) هود : ٨١ ثم قالت الملائكة له : فأسر بأهلك ، فخرج بامرأته وابنتيه وغنمه وبقره بقطع من الليل. أي : ببقية تبقى من آخره ، وأوحى الله عز وجل الى جبريل تول هلاكهم ، فلما طلع الصبح عدا عليهم جبريل ، واحتمل بلادهم على جناحه ، وكانت خمس قرى أعظمها سدوم ، في كل قرية مائة ألف ، فلم ينكسر في وقت رفعهم إناءٌ ، ثم صعد بها حتى خرج الطير في الهوى لا يدري أين يذهب ، وسمعت الملائكة نباح كلابهم ، ثم كفأها عليهم ، وسمعوا وجبة شديدة فالتفتت امرأة لوط ، فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صعد حتى أشرف على الأرض فجعل يتبع مسافرهم ورعاتهم ، ومن تحول عن القرية ، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم ، وكانت الحجارة من سجّيل .

قال أبو عبيدة : هو الشديد الصلب من الحجارة . مسوّمة ، أي : معلمة .

قال ابن عباس : كان الحجر أسود ، وفيه نقطة بيضاء . وقال الربيع : كان على كل حجر منها اسم صاحبه (وما هي من الظالمين ببعيد) هود: ٨٣ تخويف للمخالفين .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ملعون من عمل عمل قوم لوط » .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله اليهم حتى يحشر معهم » فليحذر مغبّة الخطايا والذنوب ، فإنها بصاحبها الى الغضب تؤوب ، فالحذر الحذر من علام الغيوم .

يا صحاح الأجسام كيف بطلتم لا لعذر عن صالح الاعمال
لو علمتم أن البطالة تجدي حسرةً في معادكم والمآل

لتبادرتم إلى ما يقيكم — من سعير في بعثكم ونكال
إنما هذه الحياة غرور — أبداً تطمع الورى في محال
كيف يهنيكم القرار وأنتم — بعد تمهيدكم على الارتحال
الهدى واضح فلا تعدلوا عنه — ولا تسلكوا سبيل الضلال
وأنيبوا قبل الممات وتوبوا — تسلموا في غد من الأهوال

إخواني : تدبروا الأمور تدَبُّر ناظر ، واصغوا الى ناصحكم والقلب حاضر ، واحذروا غضب الحليم ، وهتك الساتر ، وتأهبوا للحمام فسيوفه بواتر ، وتهيؤوا للرحيل الى عسكر المقابر ، قبل أن يبلّ وابل الدموع ثرى المحاجر ، ويندم العاصي ويخسر الفاجر ، ويتكاثف العرق ، وتقوى الهواجر ، وتصعد القلوب الى أعلى الحناجر ، ويفوت اكتساب الفضائل ، وتحصيل المفاخر ، فتأملوا عواقبكم فاللبيب يرى الآخر .

فيا جامع الدنيا لغير بلاغه — ستتركها فانظر لمن أنت جامع
لو أن ذوي الأبصار يرعون كلما — يرون لما جفَّت لعين مدامع
ومن كانت الدنيا مناه وهمه — سباه المنى واستعبدته المطامع

روى أبو الدرداء رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تفرّغوا من الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره ، وجعل غناه في قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه الى الله عز وجل إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد اليه بالود والرحمة ، وكان الله عز وجل اليه بكل خير أسرع » .

وعن علي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان ؛ اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الامل فينسي الآخرة ، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

يا هــذا : الأيام ثلاثة ؛ أمس قد مضى بما فيه ، وغداً لعلك لا تدركه ، وإنما هو يومك هذا فاجتهد فيه ، لله درٌ من تنبه لنفسه ، وتزود لرمسه ، واستدرك ماضي أمسه ، قبل طول حبسه .

اللغم في الدنيا تجد وتعمرُ | وأنت غداً فيها تموت وتقبر؟
تلقــح آمالاً وترجو نتاجهــا | وعمرك مما قــد ترجيه أقصر
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه | وليلته تنعاك إن كنت تشعر
تحوم على إدراك ما قد كفيته | وتقبل بالآمــال فيه وتــدبر
ورزقك لا يعدوك إما مؤجل | على حاله يوماً وإمــا مؤخر
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت | فما زالت الدنيا تخون وتغدر
تذكر وفكر في الذي أنت صائر | اليه غداً إن كنت ممن يفكر
فلا بد يوماً أن تصـير لحفرة | بأفنائها تطوى الى يوم تنشر

فصــل

في قوله تعالى : (قل للمؤنين يغضوا من أبصارهم) النور : ٣٠ اعلم أن البصر سبب لأعظم الفتن ، وهذا القرآن يأمرك باستعمال الحمية عما هو سبب الضرر .

روى النعمان بن سعد ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قــال رسول الله ﷺ : « يا عليُّ اتق النظرة بعد النظرة ، فإنها سهم مسموم ، تورث الشهوة في القلب » .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « نظر الرجل الى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس ، من رده ابتغاء وجه الله أعطاه عبادة يجد طعم لذتها » .

وكان عيسى عليه السلام يقول: النظرة تزرع في القلب الشهوة ، وكفى بها خطيئة.

وقد كان السلف رحمة الله عليهم يبالغون في الاحتراز من النظر حذاراً من فتنته ، وخوفاً من عقوبته ، فأما فتنته فكم من عابد خرج من صومعته ، بعد تعبده بسبب نظرة ، وأما عقوبته ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا جاء الى رسول الله

يتشلشل دماً ، فقال له : مالك؟ قال : مرت بي امرأة فنظرت اليها ، فلم أزل أُتبعها بصري فاستقبلني جدار ، فضربني فصنع بي ماترى . فقال : « ان الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ خيراً عجل له عقوبته في الدنيا » .

وعن أبي الأديان قال : كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق ، فمر حدَث ، فنظرت اليه ، فرآني أستاذي ، وأنا أنظر اليه ، فقال : يابني لتجدنّ غبّها ولو بعد حين . فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي ذلك الغبّ ، فنمت ليلة ، وأنا متفكر فيه ، فأصبحت وقد نسيت القرآن كله .

وعن أبي عبد الله الزراد أنه رئي في المنام ، فقيل له مافعل الله بك؟ قال: غفر لي كل ذنب أقررت به إلا واحداً استحييت أن أُقر به ، فأوقفني في العرَق حتى سقط لحم وجهي ، قيل: ما الذنب؟ قال : نظرت الى شخص جميل .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه « عن النبي ﷺ أنه قال « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين يخرج منها مثل الذباب ـ يعني الدموع ـ من خشية الله »

إخواني: تذكروا مصير الصور ، وتفكروا في نزول بيت المدر ، وتلمحوا بأعين الفكر ، في حال الصفاء والكدر ، واعلموا أنكم في دار البلاء فالحذر الحذر ، الدنيا سموم قاتلة ، والنفوس عن مكائدها غافلة ، كم من نظرة تحلو في العاجلة ، مرارتها لا تطاق في الآجلة ، يا ابن آدم قلبك قلب ضعيف ، ورأيك في اطلاق الطرف رأي سخيف ، يا طفل الهوى متى يؤنس منك رشد ؟ عينك مطلقة في الحرام ، ولسانك مهمل في الآثام ، وجسدك يتعب في كسب الحطام ، كم نظرة محتقرة زلت بها الأقدام .

فتبصر ولا تشم كل برق ... رب برق فيه صواعق حين
واغضض الطرف تسترح من غرام ... تكتسي فيه ثوب ذل وشين
فبلاء الفتى موافقة النفس ... وبذر الهوى طموح العين

ياعجبا للمشغولين بأوطارهم ، عن ذكر أخطارهم ، لو تفكروا في حال صفائهم في

أكدارهم قل (للمؤمنون يغضوا من ابصارهم) النور: ٣٠. الدنيا دار الآفات والمحن، كم غرت غراً وما فطن، أرته ظاهرها والظاهر حسن، فلما فتح عين الفكر من رقاد الوسن، قال رب ارجعون ولن، ويح المقتولين بسيف اغترارهم، والشرع ينهاهم عن أوزارهم، (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)، اين أرباب الهوى والشهوات؟ ذهبت والله اللذات دون التبعات، وندموا إذ قدموا على ما فات، وتمنوا بعد يبس العود وهيهات، فتلمح في الآثار سوء أذكارهم (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) نازلهم الموت على الذنوب واسروا في قيود الجهل والعيوب، فرحلت لذات خلت عن الأفواه والقلوب، وحزنوا على الفائت ولا حزن يعقوب، حين أخرجوا من ديارهم، في تباب إدبارهم، وعصي التوبيخ في أدبارهم (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)

اللهم وفقنا للهدى، واعصمنا من أسباب الجهل والردى، وسلمنا من آفات النفوس، فإنها شر العدى واجعلنا من المنتفعين بوعظ خيارهم (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم).

اللهم اذهب ظلمة قلوبنا بنور معرفتك وهداك، واجعلنا ممن أقبلت عليه فأعرض عما سواك، فإنك إذا أقبلت سلمت وإذا وفقت الهمت.

اللهم إن عصيناك بجوارحنا فقلوبنا بتوحيدك طائعه، فاعقل بطاعة القلب معصية البدن، ولا تقطع حبل رجائنا منك يابر يا وصول.

اللهم ندعوك اضطراراً بذل العبودية، وأنت تجيبنا اختياراً بكرم الربوبية، يا أكرم من سمح بالنوال، وارحم من جاد بالإفضال، ايقظنا من غفلتنا بفضلك وإحسانك، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك وألحقنا بالذين أنعمت عليهم في دار رضوانك، وارزقنا ما رزقتهم من نعيم قربك، وأذقنا كما أذقتهم من لذة مناجاتك، وصدق حبك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين آمين . . .

المجلس الحادي عشر

في قصة ذي القرنين

الحمد لله الذي أسرى لطفه ففك الأسرى ، وأجرى بإنعامه للعالمين أجرا ، وأسبل بكرمه على العاصين سترا ، وقسّم بني آدم عبداً وحرّاً ، ودبر أحوالهم غنى وفقراً ، كما رتب البسيطة عامراً وقفرا ، وقوى بعض عباده فقطعها شبراً شبراً (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) الكهف : ٨٣ .

أحمده حمداً يكون لي عنده ذخرا ، وأصلي على رسوله مقدّم الأنبياء في الدنيا والأخرى ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي أنفق المال على الإسلام ، حتى ملأ الكف صفرا ، وعلى عمر الذي هيبته كسرت كسرى ، وعلى عثمان الذي قتل من غير جرم صبراً ، وعلى علي الذي كان الرسول يغرّه بالعلم غرّاً ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين رفع الله لهم قدراً ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى: (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) الذين سألوا رسول الله ﷺ هم اليهود ، واسم ذي القرنين : عبد الله ، وقيل: الاسكندر . وسمي بذي القرنين ، لأنه سار الى مغرب الشمس والى مطلعها ، وقيل غير ذلك . واختلفوا هل كان نبياً أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنه كان نبياً ، والثاني : أنه كان عبداً صالحاً . وفي زمان كونه ثلاثة أقوال.

أحدها : أنه كان من القرون الأولى من ولد يافث بن نوح .

والثاني : أنه كان بعد ثمود .

والثالث : أنه كان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وفيه بعد قوله : (سأتلو عليكم منه ذكراً) أي : خبراً يتضمن ذكره (إنّا مكنا له في الأرض) الكهف : ٨٤ أي : سهلنا عليه السير فيها.

قال علي رضي الله عنه : إنه أطاع الله تعالى ، فسخر له السحاب ، فحمله عليه ، ومهّد له في الأسباب ، وبسط له النور ، وكان الليل والنهار عليه سواء .

وقال مجاهد : ملك الأرض مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود عليهما السلام وذو القرنين ، والكافران : نمرود وبختنصر .

قوله : (وآتيناه من كل شيء سبباً) الكهف : ٨٤ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : علماً يتسبب به إلى مايريد . وقيل : هو العلم بالطرق والمسالك . (فأتبَع سبباً) الكهف : ٩٢ . أي : قفي الأثر . قوله (حتى إذا بلغ بين السدّين) الكهف : ٩٣ . قال وهب بن منبه : هما جبلان مرتفعان في السماء من ورائهما البحر . قوله (لايكادون يفقهون قولاً) . أي : لايفهمون إلا بعد إبطاء ، فأما يأجوج ومأجوج فهما رجلان من أولاد يافث بن نوح .

قال علي رضي الله عنه : منهم من طوله شبر ، ومنهم من هو مفرط الطول ، ولهم شعور تواريهم من الحر والبرد ، وكان فسادهم قتل الناس .

قوله (فأعينوني بقوة) الكهف : ٩٥ . قال مجاهد : بالرجال ، وقال ابن السائب : بالآلة . قال علماء السير : لما وصل إلى مدن معطّلة قد بقي فيها بقايا سألوه أن يسد مابينهم وبين يأجوج ومأجوج ، فأمر الصناع ، فضربوا لبن الحديد ، طول كل لبنة ذراع ونصف وسمكها شبر .

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فتحفرونه غداً ، فيعودون إليه ، فيرونه أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى ، فيعودون اليه وهو على هيئته حين تركوه فيحفرونه ، ويخرجون على الناس فينشفون المياه ، ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا

أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عز وجل نغفاً في أقفائهم فيقتلهم بها . فقال رسول الله ﷺ. « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن من لحومهم ودمائهم» ثم إن ذا القرنين لما عاد بلغ بابل ، فنزل به الموت ، فكتب الى أمه يعزيها عن نفسه ، وكان في كتابه : اصنعي طعاماً واجمعي من قدرت عليه من أبناء المملكة ، ولا يأكل طعامك من أُصيب بمصيبة ، ففعلت فلم يأكل أحد ، فعلمت ماأراد . فلما وصل تابوته إليها قالت : ياذا الذي بلغت السماء حكمته ، وحاز أقطار الأرض ملكه ، مالك اليوم نائماً لاتستيقظ؟ وساكتاً لاتتكلم؟ من يبلغك عني أنك وعظتني فاتعظت؟ وعزيتني فتعزيت؟ فعليك السلام حياً وميتاً .

أتنكر أمر الموت أم أنت عارف بمنزلةٍ تفنى وفيها المتالف
كأنك قد غُيبت في اللحد والثرى كما لقي الموت القرون السوالف
أرى الموت قد أفنى القرون التي مضت
فلم يبق مألوف ولم يبق آلف
كأن الفتى لم يصحب الناس ليلةً إذا عُصبت يوماً عليه اللفائف
وقامت عليه عُصبة يدفنونه فمستذكر يبكي حزيناً وهاتف

أين من ربح في متاجر الدنيا واكتسب ؟ أين من أعطى وأولى ثم والى ووهب ؟ أما رحل عن قصره الذهب فذهب ؟ أما نازله التلف وأسره العطب ؟ أما نابته نائبة لا تشبه النوب ؟ أنفعه بكاء من بكى وندب من ندب ؟ أما ندم على كل ما جنى وارتكب ؟ إن طالبه لكم في الطلب ، تدبروا قول ناصحكم صدق أو كذب .

قال ميمون بن مروان : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل علي ، فقال : يا أبا أيوب هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ؛ واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام من أبدانهم مقيلاً ، ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : انطلق بنا ، فوالله ما أحد أنعم ممن صار إلى هذا ، وقد أمن من عذاب الله تعالى .

يا من هو في حلل جهله يرفل ويميس ، يا مؤثر الرذائل على أنفس نفيس ، يا طويل

الأمل ماذا صنع الجليس ؟ يا كثير الخطايا أشمتّ إبليس ، من لك إذا فاجأك مذل الرئيس ؟ واحتوشتك أعوان ملك الموت ، وحمي الوطيس ، ونقلت الى لحد مالك فيه إلا العمل أنيس ، كأنك بالموت قد فصم العرى التي بها تمكنت ، ونقلك الى قبر ترى فيه ما أسأت وأحسنت ، ثم تقوم للجزاء على ما أسررت وأعلنت ، فتزين بالتقى فطوبى لك إن تزينت ، وأعمل اليوم ما ينفعك غداً ، وإلا فمن أنت ؟

كم طوى الموت من نعيم وعز ... وديار من أهلها أخلاها
وجنود أحالها وخدود ... ووجوه أحال منها حُلاها
أين من كان ناعماً في قصور ... بعلى المكرمات شيدت علاها
قد جفاها من كان يرتاح حباً ... نحوها بعد إلفه وقلاها

فصل

في قوله تعالى : (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) محمد : ١٨ ؛ ينظرون : بمعنى ينتظرون . والساعة : القيامة ، والبغتة : الفجأة ، والأشراط : العلامات .

روي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها » .

وفي « الصحيحين » من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ، ويظهر الجهل ، وتشرب الخمر ، ويظهر الربا ، ويقلّ الرجال ، وتكثر النساء حتى يكون قيم خمسين امرأة رجل واحد » .

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، وتكلّم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبره فخذه ما أحدث أهله بعده » .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا فعلت أمتي خمسة عشر

خصلة ؛ حل بها البلاء » قيل : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « إذا كان المغنم دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته ، وعق أمه ، وبر صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولُبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو مسخاً أو خسفاً » .

يا هذا إن لم تدرك الساعة ، فقيامتك العاجلة موتك ، فإذا جاءت ساعة وفاتك فات زمن الاستدراك ، وخرج وسعُ البدار ،فسد باب الإجابة عن دعاء الإنابة ، كما قال عز وجل : (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) محمد : ١٨ ؛ أي : فمن أين لهم إذا جاءتهم الساعة أن يتذكروا ويتدبروا؟وكذلك عند صرعة الموت لا عثرة تقال ، ولا توبة تنال.

روى مروان بن سالم مرفوعاً « احضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحليم العليم يتحير عند ذلك المصرع ، وإن إبليس أقرب مايكون من العبد في ذلك الموطن عند فراق الدنيا ، وترك الأحبة » .

خذ لا أبالك للمنية عدة واحتل لنفسك إن أردت صلاحها

لا تغترر فكأنني بعقاب ريب الدهر قد نشرت عليك جناحها

إخواني : مابال النفوس تعرف حقائق المصير ، ولا تصرف عوائق التقصير ؟ وكيف رضيت بالزاد اليسير ، وقد علمت طول المسير ؟ أم كيف أقبلت على التبذير ، وقد حذِّرت غاية التحذير ؟ أما تخاف ذل التعثير ، إذا حوسبت على القليل والكثير ؟ أسفاً لمن إذا ربح العاملون خسر ، وإذا أطلق المتقون اسر ، من له إذا خوصم فلم ينتصر ، ونسي يوم الرحلة فما ذكر . فالجدّ الجد أيها الغافل ، فأيام العمر كلها قلائل .

دخل بعض العبّاد على بعض الأمراء ، فقال له الأمير : ما أزهدك وأصبرك ، فقال : إن صبري جزع من النار ، وزهدي رغبة في الجنة .

وكان جُليد العصري يقول : كلنا قد أيقن بالموت ، وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملا ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً .

فعلام تعرجون ؟ وما عسيتم تنظرون الموت ؟ فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو بشر ، فيا إخوتاه سيروا الى ربكم سيراً جميلا . يا غافلا في بطالته ، يا من لا يفيق من سكرته ، أين ندمك على ذنوبك ؟ أين حـــزنك على عيوبك ؟ الى متى تؤذي بالذنب نفسك ؟ وتضيع يومك تضييعك أمسك ، لا مع الصديقين لك قدم ، ولا مع التائبين لك ندم ، هلاّ بسطت في الدجا يداً سائلة ، وأجريت في السحر دموعاً سائلة .

سيكفي بعض ما فاتك　　　فلا تأس لمـــا فاتك
ولا تركن الى الدنيـــا　　　أما تذكر أمواتـك ؟

لو رأيت العصاة والكرب يغشاهم ، والندم قد أحاط بهم و كفاهم ، والأسف على ما فاتهم قد أضناهم ، يتمنون العافية وهيهات مناهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) محمد : ١٨ نزل بهم المرض ، فألقاهم كالحرض ، فانكف أملهم وانقبض ، وانعكس عليهم الغرض ، ورحمهم في صرعتهم من عاداهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) يتمنون عند الموت راحة ، ويشتهون من الكروب استراحة ، ويناقشون على الخطأ ولا سماحـــة ، فهم كطائر قص الصائد جناحه ، في حبس النزع والكرب يغشاهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ألم أسفهم أشد ما في العلة ، وتحسرهم على كل ما مضى من زلة ، وجبل ندمهم قد نتق كأنه ظلة ، فلو رأيتهم بعد الكبر قد عادوا أذلة ، وتملك أموالهم بعـدهم سواهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) ما نفعهم ما تعبوا لتحصيله وجالوا ، جاء المرض فأذلهم بعد أن صالوا ، فإذا قال العائد لأهليهم : كيف باتوا ؟ قالوا : إن السقم قد وهاهم وهاهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) فالبدار البدار قبل الفوات والحذار الحذار من نوم الغفلات ، قبل أن يقول المذنب (رب ارجعون) ويقال : فات ، ويح الغافلين عن عقباهم ما أعماهم (فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) .

اللهم نبّهنا من هذه الرقدة ، ووفقنا للاستعداد للموت وما يأتي بعده .

اللهم ندعوك خائفين ، لأنك رب الأرباب ، ونرجوك مقصرين كرجاء الاحباب

ندعوك بلسان أملنا لما كل لسان عملنا ، فإن قبلتنا فبفضلك ، وإن رددتنا فبعدلك .

اللهم إن عيوبنا لا يسترها إلا محاسن عطفك ، وذنوبنا لا يغفرها الا مكارم لطفك .

اللهم ارحم ما خلقت ، واغفر ما قدرت ، وطيب ما رزقت ، ولا تهتك ما سترت .

اللهم إن كنا عصيناك بجهل ، فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ، ولا يبالي ، فاغفر لنا ذنوبنا ، فإنك خير الغافرين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الثاني عشر

في قصة يوسف عليه السلام

الحمد لله أحسن الخالقين ، وأكرم الرازقين ، مكرم الموافقين ، ومعظّم الصادقين ، ومجل المتقين ، ومذل المنافقين ، حفظ يوسف لعمله بعلم اليقين ، فألبسه عند الهم دروعَ يقين ، وملّكه إذ ملك عنان الهوى ميدان السابقين ، فذل له إخوته يوم وما كناسارقين (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين) يوسف : ٩١ .

أحمده حمد الشاكرين ، وأُصلي على رسوله محمد أشرف الذاكرين ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر سائق المتكبرين ، وعلى عمر سيد الآمرين ، بالمعروف والمنكرين ، وعلى عثمان الشهيد بأيدي الماكرين ، وعلى علي إمام العبّاد المتفكرين وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة الى يوم الدين ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) كان يعقوب قد ولد في زمن ابراهيم عليهما السلام ، ونبىء في زمانه ايضاً ، وكان هو والعيص توءمين فاختصما فخرج هاربا من العيص ، الى خاله لايان ، فزوجه بنته ليا ، فولدت له روبيل ، ثم شمعون ولاوي ، ويشجب ويهوذا ، ويالون ، ثم توفيت فتزوج اختها راحيل ، فولدت له يوسف ، وبنيامين ، وولد له من غيرها أربعة ، وكان أولاده اثني عشر وهم الأسباط ، وكان أحب الخلق اليه يوسف فحسده إخوته ، فاحتالو عليه فقالوا : يا يوسف أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد ؟ قال : بلى ، قالوا : فسل أباك أن يرسلك معنا فاستأذنه فأذن له ، فلما أصحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة ، فجعل كلما التجأ إلى شخص منهم ضربه وآذاه ، فلما فطن لما عزموا عليه ، جعل يقول :

يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف ، وما نزل به من إخوتـــه لأحزنك ذلك وأبكاك ، يا أبتاه مـا أسرع ما نسوا عهـدك ، وضيعوا وصيتك ، فأخـذه روبيـل ، فضرب به الأرض ، وجثم على صدره ليقتله ، وقال : يا ابن راحيـل قـل لرؤيـاك تخلصك ، وكان قـد رأى وهو ابن سبـع سنين الشمس والقمـر والنجوم ساجدين له ، فصاح بيهوذا : حل بيني وبين من يريـد قتلي ، فقـال يهوذا : (ألقوه في غيابت الجب) يوسف : ١٠ فنزعوا قميصه لالقائه فقال : ردوه علي أستر به عورتي ، ويكون كفناً لي في مماتي ، فلما القـوة أخرج الله له حجـراً مرتفعـاً عـن المــاء فاستقرت عليـه قدمـاه ، وكان يعقوب قـد أدرج قميص ابراهيم الخليـل الذي كسيه يوم النـار ، في قصبـة وجعلها في عنـق يوسف فبعث الله عز وجـل ملكـاً فاستخرج ذلك القميص وألبسه إياه وأضـاء له الجب وعـذب مـاؤه وجـاءه جبريـل يؤنسه ، فلمـا امسى نهـض جبريـل ليذهب فقال يوسف : إنك إذا خرجت عني استوحشت فقـال : اذا رهبت شيئاً فقل : ياصريخ المستصرخين ، ويا غوث المستغيثين ، ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مـكاني ، وتعلـم حـالي ولايخفى عليك شيء من أمري ، فلـما قالهـا حفت بـه الملائكـة فاستأنس . وذبحـوا جديـاً ، فلطخوا بـه قميص يوسف وقالوا : أكله الذئب ، ومكث في الجب ثلاثـة ايام ، وإخوتـه يرعون حولـه ويهوذا يأتيـه بالقوت ، فلما جاءت السيارة تستقي من الجب تعلـق بالحبـل ، فأخرجوه فجاء إخوتـه ، فقالوا هذا عبد آبق منا فباعوه منهم بعشرين درهمـاً وحلة ونعلين ، فحملوه الى مصر فوقفوه للبيع ، فتزايد الناس في ثمنه حتى بلـغ ثمنـه وزنـه مسكـاً ووزنـه ورقـاً ووزنـه حـريراً فاشتراه بذلك الثمـن قطفير ، وكان أمين ملكهم وخازنه ، وقال لامرأته زليخـا : اكرمي مثواه ، فراودته فعصم منهـا ، فسجنتـه إذ لم يوافقهـا فبقي مسجوناً الى حـين منـام الملك ، فلما أخرجه من السجن فوض اليه ملك مصر ، فجمع الأقوات في زمن

الرخاء ، وباع في زمن القحط ، فروي ، أنه باع مكوكاً من بر بمكوك در وباع أهل مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ، ثم بأولادهم ورقابهم ثم قال : إني قد أعتقتهم ورددت عليهم املاكهم .

وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في تلك الايام ، ويقول : أخاف ان أنسى الجائع ، وبلغ القحط إلى كنعان ، فأرسل يعقوب ولده للميرة وقال : يابني قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً فانطلقوا اليه ، واقرؤوه مني السلام ، فمضوا فدخلوا عليه فعرفهم وأنكروه فقال : من أين أنتم ؟ قالوا من ارض كنعان ، ولنا شيخ يقال له : يعقوب وهو يقرؤك السلام ، فبكى وعصر عينيه وقال : لعلكم جواسيس قالوا : لا والله قال : فكم أنتم ؟ قالوا أحد عشر ، وكنا اثني عشر ، فأكل احدنا الذئب فقال : ائتوني بأخيكم الذي من ابيكم ، ثم ادرج بضاعتهم في رحالهم فعادوا إلى ابيهم يقولون : منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل فقال يعقوب : (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على اخيه من قبل) يوسف : ٦٤ ثم حمله احتياجه الى الطعام على ان أرسله معهم فلما دخلوا على يوسف ، أجلس كل اثنين على مائدة ، فبقي بنيامين وحيداً يبكي ، وقال : لو كان اخي حياً لاجلسني معه ، فضمه يوسف اليه وقال له : أتحب أن أكون أخاك ؟ قال أيها الملك ومن يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل ، فبكى يوسف وقام اليه فاعتنقه وقال : إني أنا أخوك ، ثم احتال عليه فوضع الصاع في رحله ، فلما لم يقدروا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب ، يقولون : إن ابنك سرق فتلقاهم بقوله : (فصبر جميل) يوسف : ٨٣ وأنفرد بحزنه .

قال الحسن رحمه الله : مافارقه الحزن ثمانين سنة وما جفت عيناه ، ثم إن ملك الموت لقي يعقوب فسأله ، هل قبضت روح يوسف ؟ قال : لا ، فأصبح يقول لبنيه : اذهبوا فتحسسوا من يوسف ، فلما عادوا اليه ببضاعة مزجاة ، وهي القليلة ، وقفوا موقف الذل وقالوا : تصدق علينا فقال : هل علمتم مافعلتم بيوسف ؟ وكشف الحجاب عن نفسه

فعرفوه فقالوا: أإنك لأنت يوسف ؟فحينئذ قالوا (تالله لقد آثرك الله علينا) يوسف: ٩١ أي: اختارك وفضلك ، وكان قد فُضل عليهم بالحسن والعقل والعلم والحلم والصبر وغير ذلك ، (وان كنا لخاطئين) أي : لمذنبين آثمين في أمرك ، قال : (لا تثريب عليكم اليوم) يوسف: ٩٢ أي : لا أعيركم بما صنعتم ، ثم سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه وقال: (إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) يوسف: ٩٣ وهو قميص الخليل الذي كان في عنق يوسف وكان من الجنة ، فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال: أنا حملت قميص الدم ، فأنا أحمل هذا القميص ، فخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها فقال يعقوب لمن حضره: من أهله وولد ولده ، (إني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون) يوسف: ٩٤ أي : تنكرون عقلي لأخبرتكم أنه حي (فلما ان جاء البشير القاه على وجهه ، فارتد بصيراً) يوسف : ٩٦ ثم خرج في نحو سبعين من أهله ، وخرج يوسف ليلتقيه ، فلما التقيا قال يعقوب: السلام عليك يامذهب الاحزان ، فقال يوسف : ياأبت بكيت عليَّ حتى ذهب بصرك ، أما علمت أن القيامة تجمعني وإياك ، قال أي بُني خشيت أن تسلب دينك فلا نجتمع وأقام يعقوب عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أهنأ عيش ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى إلى يوسف ان يحمله الى الشام ، حتى يدفنه عند ابيه إسحق ، ففعل ثم إن يوسف رأى ان أمره قد تم فقال : (توفني مسلماً) يوسف: ١٠١ فأوصى الى يهوذا فتلمحوا علو قدر يعقوب ببلائه ، وعز يوسف في صبره وليكن حظكم من هذه القصة (إنه من يتق ويصبر) يوسف: ٩٠ وليتفكر العاصي في لذات فنيت ، وتبعات بقيت ، وليتدبر الصابر لذة مديحة ثبتت ، ومرارة مصابرة رحلت ، والأمر بآخره ، وللعواقب يعمل المتيقظ ، رزقنا الله واياكم صبراً يزيننا ، وعصمة من هوى يشيننا ، إنه ان فعل سلمت دنيانا وديننا إنه قريب مجيب :

فخذ مراً تصادف منه نفعاً ... ولا تعدل الى شيء يضر

فإن المر حين يسر حلو ... وإن الحلو حين يضر مر

صابر ليل البلاء فقد دنا الفجر ، واثبت لعمل نهار العمر ، تستوفي الاجر ، واحبس

نفسك عن هواها فسيفك الحجر، مانال من نال مانال الابالصبر ،وبه علا كل عابد وحبر، وهو وان مرت مذاقته بانت حلاوته في القبر .

اترك الشر ولا تأنس بشر ... وتواضع إنما أنت بشر
هذه الأجسام ترب هامد ... فمن الجهل افتخار وأشر
فعجيب فرح النفس اذا ... شاع في الأرض ثناها وانتشر
مستشار خائن في نصحه ... وأمين ناصح لم يستشر
فافعل الخير وأمّل غبه ... فهو الذخر اذا الله حشر

فصل

في قوله تعالى (وقضى ربك الا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احسانا) الإسراء: ٢٣ قضى: بمعنى أمر والاحسان: هو البر والاكرام (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما أف) أي لا تقل لهما كلاماً تتبرم فيه بهما اذا كبرا (ولا تنهرهما) أي لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما.

قال العلماء إنما هي عن أذاهما في حالة الكبر وان كان منهيا على كل حال، لأن حالة الكبر يظهر فيها منهما مايضجر ويؤذي، وتكثر خدمتهما (وقل لهما قولا كريما)، أي: لينا لطيفا أحسن ماتجد (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) الإسراء: ٢٤ أي: ألن لهما جانبك متذللا لهما من رحمتك إياهما. (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) أي: مثل رحمتهما إياي في صغري حين ربياني.

روي عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل يستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فقال له رسول الله ﷺ: «أحي والداك؟» قال: نعم قال: «ففيهما فجاهد» اخرجاه في «الصحيحين».

وكان ابو هريرة رضي الله عنه، اذا أراد ان يخرج من بيته، وقف على باب أمه فقال: السلام عليك ياأماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك يابني السلام ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيرا، وإذا اراد ان يدخل صنع مثله.

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رجلان من أصحاب النبي ﷺ أبرّ من كان في هذه الأمة بأمهما عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان ، فأما عثمان ، فإنه قال : ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت ، وأما حارثة فإنه كان يطعمها بيده ، ولم يستفهمها كلاماً قط أمرته به ، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج ماذا قالت أمي .

وروي عن ابن عوف أن أمه نادته ، فأجابها فعلا صوته على صوتها ، فأعتق رقبتين.

وفي « الصحيحين » من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ذكر في « الكبائر » عقوق الوالدين .

وفي حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة عاق » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسبُّ أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » .

وفي حديث أبي أُسيد أن رجلا قال : يا رسول الله هل بقي من برّ أبوي شيء بعد موتهما ؟ قال : « نعم خصال أربع الدعاء ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما » .

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أبرّ البر صلة المرء أهل ودّ أبيه بعد أن يولي » .

إخواني : من فعل ما يحبُّ لقي ما يكره ، ومن صبر على ما يكره نال ما يحب.

قيل للمرتعش : إن فلاناً يمشي على الماء قال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشي على الماء .

يا مبارزاً بالعظائم كيف أمنت فنمت ؟ يا مصراً على الجرائم ،عجباً لك إن سلمت تدبّر في عُقبا إباء الأباء الى ما آب ، وتفكر في مآل المذنبين فبئس المآب ، بينما هم في أمن نعق بينهم للبين غراب ، وتراكم ركام الهوان عليهم على الهوى واللعاب ، ومرّ مريو الرفق فمشى في المشارع العذاب العذاب ، وامتد ساعد البلاء إلى إغلاق باب القباب ،

وسئلوا عن جورهم فقوي قلق الجوى في الجواب ، فاحذوروا أن يصيبكم مثل حصصهم ؛ فلقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب .

ولقد رأيت معاشراً جمحت بهم … تلك الطبيعة نحو كل تبـار
تهوى نفوسهم هويّ جسومهم … شغلا بكل دناءة وصغـار
تبعوا الهوى فهوى بهم وكذا الهوى … منه الهويُّ بأهله فحـذار
قاد الهوى الفجار فانقادوا له … وأبت عليه مقـادة الأبرار

الويل كلُّ الويل لعاق والديه ، والخزي كل الخزي لمن ماتا غضبانين عليه ، أُفٍ له هل جزاء المحسن إلا الإحسان اليه ؟ أتبع الآن تفريطك في حقها أنيناً وزفيراً (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) كم آثراك بالشهوات على النفس ؟ ولو غبت ساعة صارا في حبس ، حياتهما عندك بقايا شمس ، قد راعياك طويلا فارعهما قصيراً (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) كم ليلة سهرا معك الى الفجر ؟ وداراك مداراة العاشق في الهجر ، فإن مرضت أجريا دمعاً لم يجر ، تالله لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريراً (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) يعالجان أنجاسك ، ويحبان بقاءك ، ولو لقيت منهما أذىً شكوت شقاءك ، ما تشتاقهما إذا غابا ، ويشتاقان لقاءك ، كما جرّعاك حلواً وجرعتهما مريراً (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) أتحسن الإساءه في مقابلة الإحسان ؟ أما تأنف الإنسانية للانسان ؟ كيف تقابل حُسن فعلهما بقبيح العصيان ؟ ثم ترفع عليهما صوتاً جهيراً (وقل رب ارحمهما ربياني صغيراً) تصدق عنهما ان كانا ميتين ، وصل لهما واقض عنهما الدين ، واستغفر لهما ، واستدم هاتين الكلمتين ، وما تكلف الا أمراً يسيراً (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) .

اللهم قابل إساءتنا بإحسانك ، واستر خطيئتنا بغفرانك ، وأذهب ظلمـة ظلمنا لنفوسنا بنور رضوانك ، واقهر عدونا عنا بعز سلطانك ، فما تعودنا منك إلا الجميل ، وما لنا قلب عن جنابك يميل .

اللهم كيف الخلاص من ظلماتنا إلا بنور عنايتك ؟ وهل السلامة من آفاتنـا إلا

بحفظك ورعايتك ؟ وبمن تتعلق آمالنا إلا بكرم جودك العميم ؟ وإلى من نلتجيء إلا لركنك العظيم ؟

إليك وإلا لا تشدُّ الركائب ومنك وإلا لا تنال الرغائب
وفيك وإلا فالرجاء مخيَّب وعنك وإلا فالمحدث كاذب
لديك وإلا لا قرار يطيب لي عليك وإلا لا تسيل السواكب
رضاك وإلا فالغرام تصنُّعٌ سناك وإلا فالبدور غياهب

اللهم اجعلنا من المتقين الأبرار ، وأسلك بنا سبيل عبادك الأخيار ، وألهم رشدنا ، وأجزل من رضوانك حظنا ، ولا تحرمنا بذنوبنا ، ولا تطردنا بعيوبنا ، ولا تقطع عنا برّك ، ولا تنسنا ذكرك ، ولا تهتك عنا سترك . يارب العالمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين . آمين .



المجلس الثالث عشر

في قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي ابتعث بلطفه السحاب ، فروّى الأودية والهضاب ، وأنبت الحدائق وأخرج الأعناب ، يبتلي ليدعى فإذا دعي أجاب ، قضى على آدم بالذنب ثم قضى أن تاب ، ورفع إدريس بلطفه إلى أكرم جناب وأرسل الطوفان وكانت السفينة من العجاب ، ونجّى الخليل من نار شديدة الإلتهاب ، وكانت سلامة يوسف وابراهيم عبرة لأولي الألباب ، وشدد الابتلاء على أيوب ففارقه الأهل والأصحاب ، ومضغه البلاء الى أن كل الظفر والناب ، فنادى مستغيثاً بالمولى فجاء الجواب (أركض برجلك هذا مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ) ص : ٤٢

أحمده حمد من أخلص وأناب ، وأصلي على رسوله محمد أكرم نبي أُنزل عليه أفضل كتاب ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر مقدّم الأصحاب ، وعلى الفاروق عمر بن الخطاب ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وقتيل المحراب ، وعلى علي المهيب وماسلّ سيفاً من قراب ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة مستمرة إلى يوم المآب وسلمّ تسليما .

قال الله عز وجل (وأيوب إذ نادى ربه أني مسّني الشيطان بنُصب وعذاب) الأنبياء : ٨٣ . أيوب هو ابن أموص بن رازح بن العيص بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام وأبوه ممن آمن بالخليل يوم أحرق ، وأم أيوب بنت لوط النبي عليهما السلام . وكان أيوب في زمن يعقوب ، وتزوج بابنة يعقوب .

وكان أيوب غزير المال ، كثير الضيافة والصدقة . وكان ابليس يومئذ لا يُحجب عن السماوات فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فحسده فقال : يارب لو صدمت أيوب بالبلاء لكفر فسلطني عليه ، فقال : قد سلطتك على ماله وولده ، فجمع ابليس جنوده

فأرسل بعضهم الى دوابه وبعضهم الى زرعه وبعضهم الى أولاده ، وكان له ثلاثة عشر ولداً . وقال ابليس لأصحابه : إيتوه بالمصائب بعضها على إثر بعض ، فجاء صاحب الزرع فقال : ياأيوب ، ألم تر الى ربك أرسل على زرعك ناراً فأحرقته؟ وقال راعي الإبل : ألم تر الى ربك أرسل عدوّاً وذهب بالإبل؟ وقال كذلك صاحب البقر والغنم ، فقال : الحمد لله الذي رزقني ثم قبله مني .

وتفرد ابليس لبنيه ، فجمع أركان البيت فهدمه عليهم ، وجاء فقال : يا أيوب! إن البيت وقع على بنيك ، فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم . فقال : لو كان فيك خير لقبضك معهم ، فانصرف خائباً ، فقال : يارب سلطني على جسده فسُلط . فجاء فنفخ تحت قدمه نفخة فقرّح بدنه .

قال مجاهد : أول من أصابه الجدري أيوب عليه السلام .

وقال وهب : كان يخرج عليه مثل ثدي النساء ثم يتفقأ .

قال العلماء : لم يبق منه إلا اللسان للذكر ، والقلب للمعرفة ، وكان تُرى أمعاؤه وعروقه وعظامه ، ووقعت به حِكّة لايملكها ، فحك بأظفاره حتى سقطت ، ثم بالمسوح ثم بالحجارة ، فأنتن جسمه وتقطع ، وأخرجه أهل القرية ، وجعلوا له عريشاً على كناسة، ورفضه جميع الخلق سوى زوجته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، فكانت تختلف اليه بما يصلحه .

وفي مدة لبثه في البلاء أقوال .

أحدها : ثمان عشرة سنة .

والثاني : سبع سنين .

والثالث : ثلاث سنين .

وفي سبب سؤال العافية ستة أقوال :

أحدها : أنه اشتهى إداماً فلم تصبه إمرأته ، حتى باعت قرناً من شعرها فلما علم ذلك قال : مسّني الضر .

والثاني : أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره لله عز وجل ، فلما انتهى زمان البلاء ألهمه الله الدعاء .

والثالث : أن نفراً من بني إسرائيل مروا به ، فقال بعضهم : ماأصابه هذا البلاء الا بذنب عظيم ، فعندها دعا .

والرابع : أن ابليس جاء الى زوجته بسخلة فقال : ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ فجاءت فأخبرته ، فقال : لئن أشفاني الله لأجلدنك مائة جلدة ، أمرتيني أن أذبح لغيرالله، ثم طردها عنه فذهبت ، فلما رأى أنه لاطعام ولاشراب ولاصديق ، خر ساجداً وقال : (مسّني الضر) الأنبياء : ٨٣

والخامس : أن الله عز وجل أوحى إليه في عنفوان شبابه ، أني مبتليك قال : يارب وأين يكون قلبي؟ قال: عندي ، فصبّ عليه من البلاء حتى اذا بلغ منتهاه أوحى الله اليه: إني معافيك قال : يارب وأين يكون قلبي؟ قال: عندك قال: مسني الضُّر .

والسادس : أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً ، فخاف هجران ربه فقال : مسني الضر ، وإنما أضاف الأمر الى الشيطان لأن الشيطان سلّط عليه .

قوله تعالى (اركض برجلك) قال المفسرون: جاءه جبريل فأخذ بيده فقال: قم فقام فقال : اركض برجلك ، فركض فنبعت عين ، فقال: اشرب ثم ألبسه جبريل حلّة من الجنة ، وجاءت امرأته ، فقالت : ياعبد الله أين المبتلى الذي كان هاهنا؟ لعل الذئاب ذهبت به؟ فقال: ويحكِ أنا أيوب فقالت: اتق الله ولاتسخر بي .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : رد الله عز وجل عليه أهله بأعيانهم ، وأتاه مثلهم معهم في الدنيا .

وقال مجاهد : آتاه الله أجور أهله في الآخرة ، وآتاه مثلهم في الدنيا .

قوله تعالى : (وخذ بيدك ضغثاً) ص : ٤٤ . كان قد حلف ليجلدن زوجته مائة جلدة . وفي سبب هذا اليمين ثلاثة أقوال .

أحدها : السخلة التي سبقت .

والثاني : أن ابليس جلس في طريق زوجته كأنه طبيب ، فقالت له : ياعبد الله هاهنا رجل مبتلى ، فهل لك أن تداويه؟ قال : نعم إن شاء شفيته ، على أن يقول لي إذا برأ : أنت شفيتني ، فجاءت فأخبرته ، فقال : ذاك الشيطان لله علي إن شفاني لأجلدنك مائة .

والثالث : أن ابليس لقيها فقال : أنا الذي فعلت بأيوب مابه ، وأنا إله الأرض ، وما أخذته منه فهو بيدي ، فانطلقي أريك ، فمشى بها غير بعيد ، ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه آهلها وولدها وما لها ، فأتت أيوب فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ويحك! كيف وعى سمعك قوله؟ والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة .

وأما الضغث فقال ابن قتيبة : هو الحزمة من الخلال والعيدان . قال المفسرون : جزى الله زوجته بحسن صبرها ، أن أفتاه في ضربها ، فسهّل الأمر ، فجمع لها مائة عود وقيل : مائة سنبلة ، وقيل : كانت أسلاً وقيل : شماريخ ، فضربها ضربة واحدة .

قوله تعالى : (إنا وجدناه صابراً) ص : ٤٤ قال مجاهد : يجاء بالمريض يوم القيامة ، فيقول الله له : مامنعك أن تعبدني؟ فيقول : رب ابتليتني ، فيجاء بأيوب في ضره فيقول : أنت كنت أسوأ ضراً أم هذا؟ فيقول : بل هذا . فيقول : لم يمنعه ذلك أن عبدني .

ماضرَّ أيوب ماجرى ، كأنه سنة كرى ، ثم شاعت مدائحه في الورى ، وإنما يصبر من فهم العواقب ودرى .

منافسة الفتى فيما يزول   على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه   وكل فوائد الدنيا قليل

ياقليل الصبر عن الهوى والعبث ، يامن كلما عاهد غدر ونكث ، يامغتراً بساحر الهوى كلما نفث ، تالله لقد بُعث إليه النذير ولايدري من العبث من بعث ، سيندم يوم الصريخ من للقبيح حرث ، سيعرف خبره العاصي داخل الجدَث ، سيقرع سن ندمه إذا نادى ولم يغث ، عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث .

كان الشبلي رحمه الله يقول : لاتغتر بدار لابد من الرحيل عنها . ولاتخرب داراً لابد من الخلود فيها .

إذا كثرت منك الذنوب فداوها ... برفع يد في الليل والليل مظلم
ولا تقنطن من رحمة الله إنما ... قنوطك منها من خطاياك أعظم
فرحمته للمحسنين كرامة ... ورحمته للمسرفين تكرم

فصل

في قوله تعالى (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) المؤمنون : ١١١

كان كفار قريش ، كأبي جهل وعقبة والوليد ، قد اتخذوا فقراء الصحابة ، كعمار وبلال ، وخباب وصهيب سخرياً ، يستهزؤون بهم ، ويضحكون منهم ، فإذا كان يوم القيامة قيل لهم (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) على أذاكم واستهزائكم ، لما علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة ،دافعوا زمان البلاء ، وأدلجوا في ليل الصبر ، علماً منهم بقرب فجر الأجر ، فما كانت إلا رقدة ، حتى صبّحوا منزل السلامة ، نفدت أبصار بصائرهم بنور الغيب ، إلى مشاهدة موصوف الوعد ، فأخمصوا عن الحرام البطون ، وغضُّوا عن الآثام الجفون ، وسكبوا في ظلام الليل الدموع ، وتململوا تململ الملسوع ، رفضوا الدنيا فسلموا، وطلبوا الآخرة فما ندموا ، يابشراهم إذا قدموا وقد ربحوا وغنموا .

روي عن الأوزاعي رحمه الله تعالى أنه قال : حدثني حكيم من الحكماء قال: مررت بعريش مصر ، وأنا أريد الرباط ، فإذا أنا برجل في ظلّة ، قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه وبه أنواع البلاء ، وهو يقول : الحمد لله حمداً يوافي شكرك بما أنعمت علي ، وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا ، فقلت لأنظرن أشيءٌ علمه أم ألهمه إلهاماً ؟ فقلت له : على أي نعمة تحمده؟ فوالله ماأرى شيئاً من البلاء إلا وهوبك ، فقال: ألاترى ماقد صنع بي ؟ فوالله لوأرسل من السماء عليَّ ناراً فأحرقتني ، وأمر الجبال فدككتني ، وأمر البحار فغرّقتني ، ما ازددت له إلا حمداً وشكراً ، ولكن لي إليك حاجة .

بنيّة لي ، كانت تخدمني ، وتتعاهدني عند إفطاري ، فانظر : هل تُحس بها ؟ فقلت : والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قُربة إلى الله عز

وجل ، فخرجت أطلبها من تلك الرمال ، فإذا السبع قد أكلها ، فقلت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، من أين آتي هذا العبد الصالح؟ فأخبره بموت ابنته ، فأتيته فقلت : أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب؟ ابتلاه الله في ماله ، وأهله ، وولده ، وبدنه حتى صار غرضاً للناس ، فقال : بل أيوب قلت : فإن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها ، فاذا السبع أكلها فقال : الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي منها شيء ، ثم شهق شهقة فمات ، فصليت عليه أنا وجماعة معي ، ثم دفنته ، ثم بت ليلتي حتى إذا مضى من الليل قدر ثلثه ، اذا أنا به في روضة خضراء ، واذا عليه حلتان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن ، فقلت : ألست صاحبي بالأمس؟ فقال : بلى ، فقلت : فما صيَّرك الى ما أرى؟ وقد زدت على العابدين درجة لم ينالوها قال : بالصبر على البلاء والشكر عند الرخاء .

وعن الحسن رحمه الله أنه قال : ان لله عباداً ، كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين ، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة ، أما الليل فصافَّةٌ أقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون الى ربهم عز وجل : ربنا ربنا . وأما النهار فعلماء حلماء بررة ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، أو قد خولطوا وما بهم مرض ، ولكن خالط القوم أمر عظيم .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

لله در أقوام امتثلوا ما أمروا ، وزجروا عن الزلل فانزجروا « فإذا لاحت الدنيا غابوا ، وإذا بانت الأخرى حضروا ، فلو رأيتهم في القيامة إذا حشروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) جن عليهم الليل فسهروا ، وطالعوا صحف الذنوب فانكسروا ، وطرقوا باب المحبوب واعتذروا ، وبالغوا في المطلوب ثم حذروا ، فانظر بماذا وعدوا في الذكر وذكروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) ربحوا والله ما خسروا ، وعاهدوا على الزهد فما غدروا ، واحتالوا على نفوسهم فملكوا وأسروا ، وتفقدوا نعم المولى فاعترفوا وشكروا

(إني جزيتهم اليوم بما صبروا) قلوبهم في الخدمه حضرت ، أسرارهم بالصدق عمرت ، كم شهوة في صدورهم انكسرت ، أخبارهم تحيي القلوب إذا نشرت ، ويقال عن القوم إذا نشروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) جدوا وليس فيهم من يلعب ، ورفضوا الدنيا وتركوها تخرب ، وأذابوا أبدانهم بقلة المطعم والمشرب ، فغداً يقال : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، أذكارهم في الحياة وإن قبروا : (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) علموا أن الدنيا لعب ولهو وزينة ، وأن من وافق مرادها فارق دينه ، فحذروا غروراً يجدي غبينة ، فركبوا من التقى سفينة ، أشحنوها بالزاد وعبروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) طوبى لهم والأملاك تتلقاهم ، لاحت أهوال القيامة فوقاهم ، وأقبلوا اليه ظمأى فسقاهم ، كشف الحجاب عن قلوبهم فأراهم ؛ هذا أقصى مالهم وقد ظفروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) .

بلغنا الله ذلك المبلغ ، وأسمعنا زجر الناصح فقد أبلغ ، وسترنا من العقاب فإنه إن عفا أسبغ ، ولولا عونه ما قدروا (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) .

اللهم ولا تلهنا عنك بغيرك ، ولا تحرمنا من رفدك وخيرك ، ولا تعرض عنا يوم تعرضنا عليك ، وارحمنا حتى ندعوك بك اليك ، واجمع شتات قلوبنا بحسن عنايتك ، وأحي موات أسرارنا بغيث ولايتك ، ولا تطردنا بعيوبنا عن ولائم كرامتك ، واجعلنا من عبادك الصالحين ، وانظمنا في سلك حزبك المفلحين ، الذين أهلتهم لخدمتك ، ونعمتهم بأنسك وحضرتك ، وسقيتهم لذيذ شرابك ، وخلعت عليهم خلع أحبابك ، فها نحن عبيدك ، قد ألقينا نفوسنا بين يديك ، وطمعنا بحسن وعدك فيما لديك ، فاغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .



المجلس الرابع عشر

في قصة شعيب عليه السلام

الحمد لله القديم فلا يحويه مكان ، أنشأ آدم وأخرج ذريته بنعمان ، ورفع إدريس الى عالي الجنان ، ونجى نوحاً وأهلك كنعان ، وسلم الخليل بلطفه يوم النيران ، وعصم يوسف من الفاحشة حين البرهان ، وبعث شعيباً الى مدين ينهى عن البخس والعدوان ، ويناديهم في ناديهم ولكن صمّت الآذان (قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان) الأعراف :٨٥

أحمده حمداً يملأ الزمان ، وأصلي على رسوله محمد الذي فاق دينه الأديان ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر أول من جمع القرآن ، وعلى الفاروق الذي كان يفرق منه الشيطان ، وعلى زوج الابنتين عثمان ، وعلى علي بحر العلوم ، وسيد الشجعان ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة ما سمع صوت اذان ، وسلم تسليما .

قال الله تعالى : (والى مدين أخاهم شعيباً) الأعراف :٨٥قال مقاتل : مدين هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه ، والمعنى : أرسلنا الى ولد مدين ، فعلى هذا هو اسم قبيلة .

وشعيب : هو ابن عيفا بن نويب بن مدين بن إبراهيم ؛ أرسل الى مدين ،وكانوا مع كفرهم يبخسون المكاييل والموازين ، فدعاهم الى التوحيد ونهاهم عن التطفيف . وكان يقال له : خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، فكان من جملة ما ردوا عليه (أصلاتك تأمرك) أي : دينك وقراءتك (أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل)هود: ٨٧ المعنى : او أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

قال سفيان الثوري: أمرهم بالزكاة فامتنعوا ، وقالوا : (إنك لأنت الحليم الرشيد) إستهزاء به ، فخوفهم أخذات الأمم ،وقال(لا يجرمنكم شقاقي)هود:٨٩ أي : لا يكسبنكم عداوتكم إياي أن تعذبوا .

وكان أقرب الإهلاكات اليهم قوم لوط ، فلهذا قال : (وما قوم لوط منكم ببعيد قالوا : ما نفقه كثيراً مما تقول) أي : ما نعرف صحة ذلك (وإنا لنراك فينا ضعيفاً) (ولولا رهطك) أي : عشيرتك (لرجمناك)هود:٩١ أي : لقتلناك بالرجم ، فقال لهم (أرهطي أعز عليكم من الله ؟) أي : تراعون رهطي فيّ ولا تراعون الله فيّ (واتخذتموه وراءكم ظهرياً) أي : رميتم أمر الله وراء ظهوركم ، ثم كان آخر أمره أن قال : (فارتقبوا إني معكم رقيب)هود : ٩٤ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ارتقبوا العذاب فإني أرتقب الثواب .

قال محمد بن كعب : عذّب أهل مدين بثلاثة أصناف ، أخذتهم رجفة في ديارهم ، حتى خافوا أن تسقط عليهم ، فخرجوا منها فأصابهم حرٌ شديد ، فبعث الله تعالى الظلة ، فنادوا : هلموا الى الظل ، فدخلوا فيه ، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم .

وهذا القول على أن أهل مدين هم أصحاب الظلة ، واليه ذهب جماعة من العلماء ، وذهب مقاتل إلى أن أهل مدين لما هلكوا ، بعث شعيب الى أصحاب الأيكة ، فأُهلكوا بالظلة . ثم إن شعيباً زوج موسى ابنته ، ثم خرج الى مكة ، فمات بها ، وكان عمره مائة وأربعين سنة .

واعلم أن الله عز وجل ذكر البخس في قصتهم وشدد وأطنب في ذكره ، وأشار الى التوحيد لينبهنا على ما نرتكبه ، فإنا قد عرفنا قبح الشرك فلم نحتج الى الإطناب في ذكره ، وكذلك عاب قوم لوط بالفاحشة وبالغ في ذكرها ، وكل ذلك لتخويفنا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى (ويل للمطففين) فخوّف المطففين بذكر الويل ، ثم قال لهم : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون)والمعنى : لو ظنوا البعث ما بخسوا (يوم يقوم الناس لرب العالمين)المطففين : ١-٦ أي : لأمره أو جزائه .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : « يا قوم أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه » وقال كعب . يقفون ثلاثمائة عام .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ مر برجل يبيع طعاماً ، فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأومأ اليه : أدخل يدك فيه ، فأدخل يده ، فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس منا من غش » وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ من المال أمن حلال أم من حرام ؟» .

الى كم يكون العتب في كل ساعة ... وكم لا تملين القطيعة والهجرا ؟

رويدك إن الدهر فيه كفاية ... لتفريق ذات البين فانتظر الدهرا ؟

لله در أقوام نظروا الأشياء بعينها ، فكشفت لهم العواقب عن غيبها ، وأخبرتهم الدنيا بكل عيبها ، فشمروا للجد عن سوق العزائم ، فسبقوك وأنت في الغفلة نائم ، لقد بعت المعالي بالكسل ، وآثرت البطالة على العمل ، أزعج ذكر القيامة قلوب الخائفين ، وقلقل خوف العتاب أفئدة العارفين ، فاشتغلوا عن طعم الطعام ، وآثروا حديث المناجاة على لذة المنام ، ومال بهم حذر الباس ، عن تتوق اللباس .

كان أويس القرني يلتقط الرقاع من المزابل ، ويغسلها في الفرات ، ويضع بعضها على بعض. وعن يحيى بن معاذ أنه قال: ليكن بيتك الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت بدائك ، أو تصل الى دوائك .

وقال رجل للفضيل بن عياض : رأيت البارحة في النوم كذا وكذا ، فقال له الفضيل : ألست حامل القرآن ؟ قال : بلى قال : فتنام الليل وأنت حامل للقرآن ؟ أما تخاف أن يأخذك وأنت نائم ؟ .

يا غافلاً طول دهره ، عن مر يومه وشهره ، يا منهمكاً في أمره بأشره على حبسه وأسره ، متى يفيق سكران الهوى من سكره ؟ فيستبدل العرف بنكره ، ألا ينتبه هذا المنذر لنذره ، ألا يتيقظ الجاني لإقامة عذره . والله لو سكن قلبه خوف حشره ، لخرج في أعمال الجد من قشره ، بل لو تفكر حق التفكير في نشره ، لم يبع ثوباً لم يشره ، مضى الزمان في مد اللهو وجزره ، وما حظي المفرط بغير وزره ، تالله لقد اغتبط المحسن في قبره ، وندم المسيء على قلة صبره .

إذا بكيت ما مضى من زمني   فحق لي أن أبكي ومن لي بالبكا
من أبصر الدنيا بعين عقله   أيقن أن الدار ليست للبقا
مطية الى الردى واردة   وإن تراخى العمر وامتدالمدى
إن هي أعطت كان هماً حاضراً   أو منعت كان عذاباً وأذى
والمرء رهن أمل ما ينتهي   حتى يوافي أجلا قد انتهى

كان بشر الحافي إذا ذكر عنده الموت يقول : ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من قد جمع زاده فوضعه على رحله ؛ لم يدع شيئاً مما يحتاج اليه إلا وضعه عليه .

يا مفرطاً في ساعاته بالليل والنهار ، لو علمت ما فات شابهت دموعك الانهار ، يا طويل النوم عدمت جيران الاسحار ، لو رأى طرفك ما نال الأبرار حار ، يا مخدوعاً بالهوى ساكناً في دار ، قد حام حول ساكنيها طارق الفناء ودار ، سار الصالحون فاجتهد في اتباع الآثار ، واذكر بظلام الليل ظلام القبر الخالي فخل الديار ، وحارب عدواً قد قتلك بالهوى واطلب الثأر ، قد أريتك طريقاً إن سلكتها أمنت العثار ، وإن فزت بالمراد فاذكرني ، فالصيد لمن أثار .

من لنفس أبت   ناصحاً إذا صبت
كم جديد من صبا   في جديد أبلت
وأطاعت من هوى   فهوت إذ هفت
عدمت يقظتها   فيه حتى قضت
ويك يانفس ألا   حذر من غفلة
إنما الدنيا أسى   كم دموع أذرت
إن بنت ماشيدت   هدمت ما بنت
أوجبت سائلها   رجعت في الهبة
أوصفت عند فتى   كدرت ماأصفت
كم صريع مقلة   إذ قلت في قلة
كم غبي غافل   أسمعت إذ دعت

غادرته جثـــة لرقاب علت
لم يكن ينفعـه كل عين بكت
آه يوماً حسرة لأمـور جـرت

فصـــل

في قوله تعالى (كلا إذا بلغت التراقي) كلا : ردع وزجر . والمعنى : ارتدعوا عما يؤدي الى العذاب (إذا بلغت) يعني : النفس التراقي ، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، ويكنى ببلوغ النفس الى التراقي عن الإشفاء على الموت (وقيل: من راق) فيه قولان :

إحداهما : أنه قول الملائكة بعضهم لبعض : من يرقى روحه ملائكة الرحمـة أو ملائكة العذاب؟ .

والثاني : أنه قول أهله من يرقيه بالرقى.

قوله: (وظنّ) أي: أيقن الذي بلغت روحه التراقي (أنه الفراق) القيامة: ٢٦-٢٨ للدنيا.

يا لها من ساعة لا تشبهها ساعة ، يندم فيها أهل التقى فكيف أهل الإضاعة ، تجتمع فيها شدة الموت إلى حسرة الفوت .

ولما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه قالت عائشة :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: ليس كذلك ، ولكن قولي : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد)ق : ١٩ وكذلك كان يقرؤها.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الموت : ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي.

ولما احتضر معاذ جعل يقول : أعوذ بالله من ليلة صباحها النار ، مرحبـــاً بالموت مرحباً زائر مُغبّ ، حبيب جـاء على فاقة ، اللهم إني قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ، ومزاحمـــة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

ولما احتضر أبو الدرداء جعل يقول : ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا ، ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا ، ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه ، وبكى فقالت له امرأته : أنت تبكي وأنت صاحب رسول الله ﷺ فقال : ومالي لا أبكي ولا أدري ما أهجم عليه من ذنوبي ؟ .

ولما احتضر أبو هريرة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : بُعد المفازة ، وقلة الزاد ، وعقبة كؤود ، المهبط الى الجنة أو النار .

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال : إلهي أمرتني فلم أئتمر ، وزجرتني فلم أنزجر ، غير أني أقول : لا إله إلا الله . وبكى عامر بن عبد قيس لما احتضر ، وقال : إنما أبكي على ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء .

وبكى أبو الشعثاء عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم اشتف من قيام الليل . وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على ما يفوتني من قيام الليل ، وصيام النهار ، ثم جعل يقول : يا يزيد من يصلي لك ؟ ومن يصوم ومن يتقرب لك الى الله عز وجل بالأعمال بعدك . ويحكم يا إخواني لا تغتروا بشبابكم فكأنكم قد حل بكم ما قد حل بي . وقال ابراهيم بن أدهم : مرض بعض العباد فدخلنا نعوده ، فجعل يتنفس ويتأسف فقلت له : علام تتأسف ؟ فقال : على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذكر الله عز وجل .

وبكى بعض العباد عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي أن يصوم الصائمون ولست فيهم .

وكان عبد الملك بن مروان يقول في مرضه : لوددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها .

وقال أبو محمد العجلي : دخلت على رجل وهو في الموت فقال : سخرت بي الدنيا ، حتى ذهبت أيامي .

ولما احتضر عضدُ الدولة جعل يقول : (ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه) الحاقة : ٢٨-٢٩ .

ولما احتضر معاوية جعل يقول :

إن تناقش يكن نقاشك يا ربي عذاباً ولا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب رحيم عن مسيء ذنوبه كالتراب

يا مشغولاً بلبنى وسعدى ، يا مستلذا بالرقاد وهذه الركائب تحدى ، يا عظيم المعاصي يا مخطئاً جداً ، يا ظالماً طالما عتا وتعدى ، كم جاوز حداً وكم أتى ذنباً عمداً ، يا أسير الهوى قد أصبح له عبداً ، يا ناظماً خرزات الأمل في سلك المنى عقداً ، يا معرضاً عماقد حل كم قد حل عقداً ، كم عاهد مرة وكم نقض عهداً ؟ من لك إذا سقيت كأساً لا تجدمن شربها بداً ؟ من لك إذا لحقت أباً وأماً وأخاً وعماً وجداً ؟ وتوسدت بعد اللين حجراً صلباً صلداً ، وسافرت سفراً ياله من سفر بعدا ، واحتوشك عملك هزلاً كان أو جداً ، فبادر قبل الموت فما تستطيع للفوت ردا .

نهاك عن البطالة والتصابي نحول الجسم والرأس الخضيب
إذا مامات بعضك فابك بعضاً فبعض الشيء من شيء قريب

يا كثير الخلاف ، يا عظيم الشقاق ، يا سيء الأدب ، يا قبيح الاخلاق ، يا قليل الصواب ، يا عديم الوفاق ، يا من سيبكي كثيراً إذاانتبه وأفاق (والتفت الساق بالساق) القيامة : ٢٩ أين من أنس بالدنيا ونسي الزوال ؟ أين من عمّر القصور وجمع المال ؟ تقلبت بالقوم أحوال الأهوال .

كم أراك مولاك عبرة ؟ وقد قال : (سنريهم آيتنا في الآفاق) فصلت : ٥٣ ، أين صديقك المؤانس ؟ أين رفيقك المجالس ؟ امتدت الى الكل كف المخالس ، فنزلوا تحت الأطباق ، وكأن قد رحلت كما رحلوا ، ونزلت وشيكا حيث نزلوا ، وحملت الى القبر كما حملوا (الى ربك يومئذ المساق) القيامة : ٣٠ من لك إذا ألم الألم وسكن الصوت ؟ وتمكن الندم ووقع الفوت ، وأقبل لأخذ الروح ملك الموت ، وجاءت جنوده (وقيل : من راق ؟) القيامة : ٢٧

أما أكثر عمرك قد مضى ؟ أما معظم زمانك قد انقضى ؟ أفي أفعالك مايصلح للرضى ؟ إذا التقينا يوم التلاق . يا ساعياً في هواه تصور رمسك ، يا موسعاً الى خطئه خطاه ، تذكر حبسك ، يا مأسوراً في سجن الشهوات ، خلص نفسك ، قبل أن تعز

السلامة وتعتاق الأعناق ، وينصب الصراط ويوضع الميزان ، وينشر الكتاب فيحوي ما كان ، ويشهد الجلد والملك والمكان ، والنار الحبس ومالك السجان والحاكم الخلاق ، فحينئذ يشيب المولود ، وتخرس الألسنة وتنطق الجلود ، وتظهر الوجوه بين بيض وسود ، (يوم يكشف عن ساق) القلم : ٤٢ فبادر قبل أن لا يمكن ، وحاذر أن يفوت الممكن ، وأحسن قبل أن لا تحسن فاليوم الرهان ، وغدا السباق ، وانتهب عمراً يفنى بالمساء والصباح ، وعامل مولى يجزل العطايا والأرباح ، ولا تبخل فقد حث على السماح ، ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ .

اللهم اغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك ، واعف عن تقصيرنا في طاعتك وشكرك ، وأدم لنا لزوم الطريق اليك ، وهب لنا نوراً نهتدي به اليك ، وأذقنا حلاوة مناجاتك ، واسلك بنا سبيل أهل مرضاتك واقطع عنا كل ما يبعدنا عن حضرتك ، ويسر لنا ما يسرته لأهل محبتك ، وأنقذنا من دركاتنا ، وأيقظنا من غفلاتنا ، وألهمنا رشدنا ، وحقق في كرمك قصدنا ، واسترنا في دنيانا وآخرتنا ، واحشرنا في زمرة المتقين ، وألحقنا بعبادك الصالحين ، واجعلنا من خيار أمة محمد ﷺ المتبعين لسنته . ولا تخالف بنا يا مولانا عن طريقته آمين . واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الخامس عشر

في قصة موسى عليه السلام

الحمد لله الذي لا ند له فيبارى ، ولا ضد له فيجارى ، ولا شريك له فيدارى ، ولا متعرض له فيمارى ، بسط الارض قراراً ، وأجرى فيها أنهاراً ، فأخرج زرعاً وثماراً ، وأنشأ ليلا ونهاراً ، خلق آدم وأسكنه الجنة داراً ، فغفل عن المنهي فما دارا ، فأهبط فقيراً قد عدم يساراً ، غير أنه جبر منه بقبول توبته انكساراً ، وأقامه خليفة ويكفيه افتخاراً ، ثم انبعث الأنبياء من ذريته ، ونصب لهم من أدلته مناراً ، وجعل إدريس ونوحاً والخليل رؤوساً ، (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً) ، احمده سراً وجهاراً ، صلى الله عليه ، وعلى صاحبه أبي بكر المنفق سراً وجهاراً ، وعلى الفاروق الذي لات عن وجه الإسلام خماراً ، وعلى عثمان الذي صرف عن جيش العسرة بإنفاقه إعساراً ، وعلى علي أخيه وابن عمه الذي في العلم لا يجارى ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة ، ما انهل غيث السماء مدراراً ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً) طه : ٩ ، موسى هو ابن عمران بن فاهث بن لاوي بن يعقوب ، وبين موسى وإبراهيم ألف سنة ، وكانت الكهنة قد قالت لفرعون ، يولد مولود من بني إسرائيل ، يكون هلاكك على يده ، فأمر بذبح أبنائهم ، ثم شكت القبط الى فرعون ، فقالوا : ان دمت على الذبح لم يبق لنا من بنى اسرائيل من يخدمنا ، فصار يذبح سنة ويترك سنة ، فذبح سبعين الف مولود فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها ، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها ، فولدته وكتمت أمره ، فدخل الطلب الى بيتها ، فرمته في التنور فسلم ثم خافت ، فصنعت له تابوتاً ، والقته في البحر ، فحمله الماء الى أن ألقاه الى فرعون فلما فتح التابوت ، ونظر

إليه قال : عبراني من الاعداء ، كيف أخطأه الذبح ؟ فقالت آسية : دعه يكون (قرة عين لي ولك) وكان لا يولد لفرعون الا البنات فتركه ، ولما رمته أمه ادركها الجزع ، فقالت لأخته مريم : (قصيه) فدخلت دار فرعون ، وقد عرض عليه المرضعات ، فلم يقبل ثدياً فقالت : (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ؟) القصص : ١٢ فجاؤوا بأمه فشرب منها فلما تم رضاعه ردته إلى فرعون ، فأخذه يوما في حجره ، فمد لحيته فقال : علي بالذابح ، فقالت آسيه : انما هو صبي لا يعقل ، وأخرجت له ياقوتة وجمرة ، فأخذ الجمرة فطرحها في فيه ، فأحرقت لسانه فذلك قوله تعالى : (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) فلما كبر كان يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ما يلبس ، فلما جاء القدر بقتل القبطي وعلموا أنه هو القاتل ، خرج عنهم وهداه الله الى مدين ، فسقى لابنتي شعيب ، واسمهما صفورا وليا ، واستدعاه شعيب وزوجه صفورا ، ثم خرج بزوجته يقصد أرض مصر ، فولدت له في الطريق ، فقال لأهله : (امكثوا) أي : اقيموا (إني آنست ناراً) طه : ١٠ اي : أبصرت ، وإنما رأى نورا ، ولكن وقع الإخبار بما كان في ظنه ، وكان قد ضل الطريق فعلم أن النار لا تخلو من موقد .

وروي عن وهب بن منبه قال : لما رأى موسى النار انطلق يسير حتى وقف منها قريباً ، فإذا هو بنار عظيمة تفور من فروع شجرة خضراء شديدة الخضرة ، لا تزداد النار فيما يرى إلا عظماً وتضرماً ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق الا خضرة وحسناً ، فوقف ينظر لا يدري على ما يضع أمرها وهو يطمع ان يسقط منها شيء ، فيقتبسه فلما طال ذلك عليه ، أهوى اليها بضغث في يده ليقتبس ، فمالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها ، ثم عاد ، فلم يزل كذلك ، فما كان بأوشك من خمودها فتعجب وقال : ان لهذه النار شأناً ، فوقف متحيراً فإذا بخضرتها قد صار نوراً عموداً ما بين السماء والارض ، فاشتد خوفه ، وكاد يخالط في عقله من شدة الخوف ، فنودي من الشجرة يا موسى فأجاب سريعاً وما يدري من دعاه ، فقال : لبيك أسمع صوتك ولا أرى مكانك ، فأين أنت ؟ قال : أنا فوقك ومعك ، وأمامك وأقرب منك اليك ، فلما

سمع موسى هذا ، علم أنه لا ينبغي ذلك الا لربه تعالى ، فأيقن به فقال : كذلك أنت يا الهي ، فكلامك أسمع أم رسولك ؟ قال : بل أنا الذي اكلمك ، فادن مني فجمع موسى يديه في العصا ، ثم تحامل حتى استقل قائماً فارعدت فرائصه حتى اختلفت ، واضطربت رجلاه ، ولم يبق منه عظم يحمل آخر ، فهو بمنزلة الميت الا أن روح الحياة تجري فيه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب ، حتى وقف قريباً من الشجرة فقال له الرب : تعال إلي ، (ما تلك بيمينك يا موسى) ؟ (قال : هي عصاي) قال : وماتصنع بها؟ (قال : أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى) ، وكانت لها شعبتان ومحجن تحت الشعبتين قال : (ألقها يا موسى) فظن انه يقول ارفضها ، فالقاها على وجه الرفض ، ثم حانت منه نظرة ، فإذا هي أعظم ثعبان نظر اليه الناظرون ، يدب على وجه الأرض ، يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخلفة من الابل فيقتلعها ، ويطعن بالناب من انيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها ، عيناه توقدان ناراً فلما عاين موسى ذلك ، ولى مدبراً ، فذهب حتى بعد ، ورأى أنه قد أعجز الحية ثم ذكر ربه عز وجل ، فوقف استحياء منه ، ثم نودي يا موسى الي ارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف ، فقال : (خذها ولا تخف ، سنعيدها سيرتها الأولى) طه: ١٧-٢١.

وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف ، قد خللها بخلال من عيدان ، فلما امره باخذها ثنى طرف المدرعة على يده فقال له ملك : أرأيت يا موسى لو أذن الله عز وجل لما تحاذر ، أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال : لا ولكني ضعيف ، ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية ، حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها واذا يده في الموضع الذي كان يضعها فيه إذا توكأ بين الشعبتين ، فقال الله عز وجل : أدن . فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة ، فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يديه في العصا ، وخضع برأسه وعنقه ، ثم قال له : إني قد أقمتك اليوم مقاماً لا ينبغي لبشر بعدك أن يقوم مقامك ، أدنيتك وقربتك ، حتى سمعت كلامي وكنت بأقرب الأمكنة مني ، فانطلق برسالتي ، فإنك بعيني وسمعي ، وإن معك يدي

وبصري ، وأنت جند عظيم من جندي ، بعثتك الى خلق ضعيف من خلقي ، بطر نعمتي ، وأمن مكري ، وغرّته الدنيا حتى جحد حقي ، وأنكر ربوبيتي ، وعبد دوني ، وزعم أنه لايعرفني ، وإني أقسم بعزتي لولا العذر والحجة اللذان وضعت بيني وبين خلقي ، لبطشت به بطشة جبار تغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار ، فان أمرت السماء حصبته ، وان أمرت الأرض ابتلعته ، وان أمرت الجبال دمرته ، وان أمرت البحار غرقته ، ولكن هان علي وسقط من عيني ، ووسعه حلمي ، واستغنيت بما عندي ، وحُقّ لي أني أنا الغني لاغني غيري ، فبلّغه رسالتي ، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاص اسمي وذكّره بأيامي ، وحذره نقمتي وبأسي ، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب ، والعقوبة ولايرعك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فان ناصيته بيدي ، ليس يطرف ولاينطق ولا يتنفس إلا بإذني ، قل له : أجب ربك عز وجل فإنه واسع المغفرة وإنه قد أمهلك أربعمائة سنة ، وفي كلها أنت مبارز له بمحاربته تتشبه وتتمثل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يمطر عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تُغلب ، ولو شاء أن يجعل ذلك لك أو يسلبكه فعل ، ولكنه حليم ذو أناةٍ وحلم عظيم ، وجاهده بنفسك وأخيك ، وأنتما محتسبان بجهاده فإني لوشئت أن آتيه بجنود لاقبل له بها لفعلت ، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ولا قليل مني تغلب الفئة الكثيرة بإذني ، ولاتعجبنكما زينته ، ولاما متع به ، ولاتمدان إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، وإني لوشئت أن أزينكما من الدنيا بزينة يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أُوتيتما فعلت ، ولكني أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، فاني لاذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإني لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق إبله ، مبارك العرّة وماذاك لهوانهم علي ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي ، موفراً لم تكلمه الدنيا ولم يُطفه الهوى .

واعلم أنه لم يتزين العباد بزينة هي أبلغ من الزهد في الدنيا ، فانها زينة المتقين ، عليهم

منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع. (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) الفتح: ٢٩ اؤلئك أوليائي حقاً فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أن من أهان لي ولياً أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة، وبادأني وعرض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء الى نصر أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي؟ أو يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني، فكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة لا أكل نصرتهم الى غيري؟.

قال: فأقبل موسى الى فرعون في مدينة، وقد جعل حولها الأُسد في غيضة، وقد غرسها والأُسد فيها مع ساستها إذا أسدنها على أحد أُكل، وللمدينة أربعة أبواب في الغيضة فأقبل موسى عليه السلام من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون، فلما رأته الأُسد صاحت صياح الثعالب، فأنكر ذلك الساسة، وفرقوا من فرعون. وأقبل موسى حتى انتهى الى الباب الذي فيه فرعون، فقرعه بعصاه، وعليه جبة صوف وسراويل، فلما رآه البواب عجب من جرأته، فتركه ولم يأذن له وقال: هل تدري باب من أنت تضرب؟ إنما تضرب باب سيدك، فقال: أنا وأنت وفرعون عبيد لربي عز وجل، وأنا ناصره، فأخبر البواب الذي يليه حتى بلغ ذلك أدناهم، ودونهم سبعون حاجباً، كل حاجب منهم تحت يده من الجنود ماشاء الله عزوجل كأعظم أمير اليوم إمارة، حتى خلص الخبر الى فرعون، فقال: ادخلوه عليّ فأدخل فقال له فرعون: إني أعرفك قال: نعم قال: (ألم نربّك فينا وليداً؟) الشعراء: ١٨ فرد عليه موسى الذي ذكره الله عز وجل في القرآن، فقال: خذوه، فبادرهم موسى (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) الشعراء: ٣٢ فحملت على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت، فقال لموسى: اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. فقال له موسى: لم أؤمر بذلك، وإنما أمرت بمناجزتك، فإن أنت لم تخرج إلي دخلت اليك. فأوحى الله تعالى الى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له: يجعله هو فقال فرعون: اجعله الى أربعين يوماً ففعل، وكان فرعون لا يأتي الخلاء إلا في أربعين يوماً مرة، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة. قال: وخرج موسى، فلما مر بالأسد، مصعت بأذنابها، وسارت مع موسى تشيّعه، ولا تهيّجه.

قال علماء السير : قال له فرعون : إن كنت جئت بآية فأت بها ، فألقى العصا ، ثم أخرج يده وهي بيضاء لها نور كالشمس ، فبعث فرعون ، وجمع السحرة وكانوا سبعين ألفاً وهم الذين آمنوا ، فجمعوا حبالهم وعصيّهم ، وتواعدوا يوم الزينة ، وكان عيداً لهم فألقوا يومئذ مامعهم ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي ، وألقى موسى عصاه ، فتلقفت ماصنعوا ، فسجدت السحرة ، فقتلهم فرعون . ثم جاء الطوفان ، وهو مطر أغرق كل شيء لهم ، ثم الجراد فأكل زرعهم ، والقمّل وهو الذباب ، والضفادع فملأت البيوت والأواني ، والدم فكان الإسرائيلي يستقي ماءاً ، ويستقي القبطي من ذلك الموضع دماً .

فمكث موسى عليه السلام يريهم هذه الآيات عشرين سنة ، ثم أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل ، فخرج ومعه ستمائة ألف وعشرون ألفاً ، ودعا عليهم حين خرج ، فقال: (ربنا اطمس على أموالهم) يونس : ٨٨ فجُعلت دراهمهم ودنانيرهم حجارة ، حتى الحمص والعدس ، وأُلقي الموت عليهم ليلة خروج موسى ، فشُغلوا بدفن موتاهم . ثم تبعهم فرعون على مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ، فلما تراءى الجمعان (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) الشعراء : ٦١ هذا البحر من بين أيدينا ، وهذا فرعون خلفنا ، فقال موسى: كلا إن معي ربي ، فأوحى الله تعالى الى موسى (أن اضرب بعصاك البحر) الشعراء : ٦٢ ، فانفلق اثني عشر طريقاً على عدد الأسباط ، فسار موسى وأصحابه على طريق يبس ، والماء قائم بين كل فريقين .

فلما دخل بنو إسرائيل ، ولم يبق منهم أحد ، أقبل فرعون على حصان له ، حتى وقف على شفير البحر ، فهاب الحصان أن يتقدم ، فعرض له جبريل على فرس أنثى ، فتقدم فدخل فرعون وقومه وجبريل أمامهم وميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ، فلما أراد أولهم أن يصعد ، وتكامل نزول آخرهم انطبق البحر عليهم ، فنادى فرعون : (آمنت) يونس : ٩٠ قال جبريل : يا محمد لو رأيتني وأنا أدس من حال البحر في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة .

يا نفس أنى تؤفكينا حتى متى لا ترعوينا ؟
يا نفس إن لم تصلحي فتشبهي بالصالحينا
وتفكري فيما أقول لعل رشدك أن يحينا
فليأتين عليك ما أفنى القرون الأولينا
أين الألى جمعوا وكانوا للحوادث آمنينا ؟
أفناهم الموت المطل على الخلائق أجمعينا
فإذا مساكنهم وما جمعوا لقوم آخرينا

إخواني : أيامكم قلائل ، وآثامكم غوائل ، ومواعظكم قوابل ، وأهواؤكم قواتل ، فليعتبر الأواخر بالأوائل .

يا من يوقن أنه لا شك راحل ، وماله زاد ولا رواحل . يا من لج في لجة الهوى متى ترتقي الى الساحل ، هلا تنبهت عن رقاد شامل ، وحضرت المواعظ بقلب قابل ، وقمت في الدجى قيام عاقل ، وكتبت بالدموع سطور الرسائل ، تحفّ بها زفرات الندم كالوسائل ، وبعثتها في شيبة دمع سائل ، لعلها ترسي بساحل ، هل من سائل ؟ وا أسفاً لمغرور غفول جاهل ، قد أثقله بعد الكهولة بالذنب الكاهل ، يبني الحصون ويشيد المعاقل ، وهو عن تمهيد قبره متثاقل ، ثم يدعي بعد هذا أنه عاقل ، تالله لقد سبقته الأبطال الى أعلى المنازل ، وهو يؤمل في بطالته فوز العامل .

حياة وموت وانتظار قيامة ثلاث أفادتنا ألوف معاني
فلا تمهر الدنيا المودة إنها تفارق أهليها فراق لعان
ولا تطلباها من سنان وصارم بيوم ضراب أو بيوم طعان
فإن شئتما أن تخلصا من أذاتها فحطا من الاثقال واتبعان

فصل

في قوله تعالى : (إن الابرار لفي نعيم) المطففين : ٢٢ روينا أن الله تعالى يقول لاوليائه في القيامة . يا أوليائي طالما لحظتكم في الدنيا ، وقد غارت أعينكم ، وقلصت شفاهكم عن الاشربة ، وخفقت بطونكم ، فتعاطوا الكأس فيما بينكم ، (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية) الحاقة : ٢٤

ما أشرف من أكرمه المولى العظيم ، وما أعلى من مدحه في الكلام القديم ، وما أسعد من خصه بالتشريف والتعظيم ، وما أقرب من أهله للفوز والتقديم ، وما أجل من أثنى عليه العزيز الرحيم (إن الابرار لفي نعيم) نعموا في الدنيا بالإخلاص في الطاعة ، وفازوا يوم القيامة بالربح في البضاعة ، وتنزهوا عن التقصير والغفلة والإضاعة ، فلبسوا ثياب التقى وارتدوا بالقناعة ، وداموا في الدنيا على السهر والمجاعة ، فيافخرهم إذا قامت الساعة ، وقد قرّبت اليهم مطايا التكريم (إن الابرار لفي نعيم) نعموا في الدنيا بالوحدة والخلوة ، واعتذروا في الاسحار من كل زلة وهفوة ، وحذروا من موجبات الإبعاد والجفوة ، فأولئك هم المختارون الصفوة ، الصدق قرينهم والصبر نديم (إن الابرار لفي نعيم) طالما تعبت أبدانهم بين الجوع والسهر ، ، وكفّت جوارحهم عن اللهو والاشر ، وحبسوا أعراضهم عن الكلام والنظر ، وانتهوا عما نهاهم مولاهم وامتثلوا ما أمر ، فقبلوا مفروضاته بالسمع والبصر ، وتغنوا بكلامه والقلب قد حضر ، واستعدوا من الزاد ما يصلح للسفر ، فالخوف أقلقهم فمنعهم قضاء الوطر ، والعبرة تجري ، والقلب قد اعتبر ، فيا حسنهم في جوف الليل ووقت السحر ، السر صادق والحال مستقيم (إني الابرار لفي نعيم) قصورهم في الجنان عالية ، وعيشتهم في القصور صافية ، وهم في عفو ممزوج بعافية ، وقطوف الاشجار من القوم دانية ، أقدامهم على أرض المسك ساعية ، وأبدانهم من السندس والاستبرق كاسية ، والعيش لذيذ والملك عظيم (إن الابرار لفي نعيم) .

قوله تعالى : (على الآرائك ينظرون) المطففين : ٢٣ فيه قولان :

أحدهما : ينظرون الى ما أعطاهم الله من الكرامة .

والثاني : الى أعدائهم حين يعذبون ، كانوا في الدنيا على المجاهدة يصبرون ، وفي دياجي الليل يسهرون ، ويصومون ، وهم على الطعام يقدرون ، ويسارعون الى ما يرضي مولاهم ويبادرون ، فياحسنهم والولدان بهم يحفون ، وبين أيديهم يقفون ، وقد أمنوا مما كانوا يخافون ، وبالحور الحسان في خيام اللؤلؤ يتنعمون ، وعلى أسرّة الذهب والفضة يتزاورون ، وبالوجوه الناضرة يتقابلون (على الآرائك ينظرون) كانوا يحملون أعباء الجهد والعناء ، ويفرحون بالليل إذا أقبل ودنا ، ويرفضون الدنيا لعلمهم أنها تصير الى الفناء ، ويخلصون الأعمال من شوائب الآفات لنا ، فغداً يتكئون على الآرائك وقطوفهم دانية المجتنى ، وأعظم من هذا النعيم أني أتجلى لهم أنا ، وكفى فخراً أنهم عندي يحضرون (على الآرائك ينظرون) كانت جنوبهم تتجافى عن مضاجعها ، ولا تسكن لأجلي الى مواضعها ، وتطلب مني نفوسهم جزيل منافعها ، وتستجيرني من موانعها ، وتستعيذ بجلالي من قواطعها ، وتصول بعوني على مخادعها ، فقد أبدلتهم بتعب تلك المجاهدة لذة السكون (على الآرائك ينظرون) .

قوله تعالى : (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) المطففين : ٢٤ قال الفراء : بريق النعيم ونداه . وجوه طالما غسلتها دموع الاحزان ، وجوه طالما غيرتها حراقات الاشجان ، وجوه تخبر عن القلوب إخبار العنوان ، حرسوا الوقت باليقظة وحفظوا الزمان ، وشغلوا العيون بالبكاء والالسن بالقرآن ، فإذا رأيتهم يوم الجزاء رأيت الفوز العظيم (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) وجوه ما توجهت الى غيري ولا استدارت ، وأقدام الى غير ما يرضيني ما سارت ، وعزوم لغير مرضاتي مـا ثارت ، وقلوب بغيري قط ما استجارت ، وأفئدة بغير ذكري ما استنارت ، لو رأت عيون الغافلين ما أعددت لهم لحارت ، من فضل عظيم وملك جسيم (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) .

أيها الغافل ربح القوم وخسرت ، وساروا الى الحبيب مسرعين وما سرت ، وقاموا بالاوامر وضيَّعت ما به أمرت ، وسلموا من رق الهوى واغتررت فأُسرت ، فالدنيا تخدمهم ، والسعادة تقدمهم ، فهم في سرور مـــا فيه ما يضيم (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) .

لقد شوِّقتم الى الفضائل فما اشتقتم ، وزجرتم عن الرذائل وأنتم في سُكر الهوى ما أفقتم ، فلو حاسبتم أنفسكم وحققتم ، علمتم أنكم بغير وثيق توثقتم ، فاطلبوا الخلاص من أسر الهوى فإنه وخيم .

أيقظنا الله وإياكم لمصالحنا ، وعصمنا من ذنوبنا وقبائحنا ، واستعمل في طاعته جميع جوارحنا ، إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم .



المجلس السادس عشر

في قصة موسى والخضر عليهما السلام

الحمد لله الذي جعل العلم للعلماء نسباً ، وأغناهم به وإن عدموا مالا ونسباً ،ولاجله سجدت الملائكة كلهم وإبليس أبى ، وبحيلة العلم اتكأ إدريس في الجنة واحتبى ،ولطلبه قام الكليم ويوشع وانتصبا، فسارا إلى أن لقيا في سفرهما نصباً (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً) الكهف : ٦١

أحمده حمداً يدوم ما هبت جنوب وصبا ، وأصلي على محمد أشرف الخلائق عجماً وعرباً ، صلى الله عليه ، وعلى صاحبه أبي بكر الذي أنفق ، وما قلل حتى تخلل بالعبا ، وعلى عمر خدين الجد فما يعرف لعبا ، وعلى عثمان الذي جاءته الشهادة فقال : مرحباً ،وعلى عليّ العالي نسبه على جبال الشرف والرُّبى ، وعلى سائر آله وأصحابه السادة النجبا ، وسلم تسليما .

قال الله تعالى : (وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً) معنى الكلام : اذكر يا محمد ، إذ قال موسى ، وهو موسى بن عمران لفتاه يوشع ابن نون ، وسمي فتاه ، لأنه كان يلازمه ، ويأخذ عنه العلم ويخدمه . لا أبرح أي : لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين أي : ملتقاهما ، وهو الذي وعده الله تعالى بلقاء الخضر فيه .

قال قتادة : بحر فارس وبحر الروم ، فبحر الروم نحو المغرب ، وبحر فارس نحو المشرق (أو أمضي حقباً) .

قال ابن قتيبة : الحقب : الدهر : (فلما بلغا) الكهف : ٦٢ يعني : موسى وفتاه (مجمع بينهما نسيا حوتهما) وكانا قد تزودا حوتاً مالحاً في زنبيل ، فكانا يصيبان منه عند الغداء والعشاء ، فلما بلغا هناك ، وضع يوشع المكتل ، فأصاب الحوت بلل البحر ،فعاش

وانسرب في البحر ، وقد قيل لموسى : تزود حوتاً مالحاً ، فإذا فقدته وجدت الرجل . وكان موسى حين ذهب الحوت ، قد مضى لحاجة ، فعزم يوشع أن يخبره بما جرى ، فنسي وإنما قيل نسيا توسعاً في الكلام ، ولأنهما جميعاً تزوداه (فاتخذ سبيله في البحر سرباً) الكهف :٦٣. أي : مسلكاً ومذهباً .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس ، حتى يكون صخرة ، فلما جاوزا ذلك المكان ، أدركهما النصب ، فدعا موسى بالطعام ، فقال يوشع (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) الكهف : ٦٤ قيل : معناه نسيت أن أخبرك خبر الحوت ، وقيل : نسيت حمل الحوت . فاتخذ سبيله : الهاء ترجع إلى الحوت ، وقيل : الى موسى أي : اتخذ سبيل الحوت في البحر . أي : دخل في مدخله ، فرأى الخضر . قال موسى: (ذلك ما كنا نبغ) الكهف : ٦٥ أي :الذي كنا نطلب ، من العلامة الدالة على مطلوبنا ، لأنه كان قيل له : حيث تفقد الحوت تجد الرجل .فارتدا، أي : رجعا في الطريق التي سلكاها ، يقصان الأثر (فوجدا عبداً من عبادنا) الكهف:٦٦ وهو الخضر .

قال وهب: اسمه اليسع ، وقيل: أرميا .

قوله تعالى: (آتيناه رحمة من عندنا) أي : نعمة (وعلمناه من لدنّا علماً) أي : من عندنا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أُعطي من علم الغيب (قال له موسى هل اتّبعك) وهذا يحرض على طلب العلم ، ويحث على الادب ، والتواضع للمصحوب ، وإنما قال الخضر (إنك لن تستطيع معي صبراً) الكهف : ٧١ لأنه كان يعمل بعلم الغيب ، والمعنى : أنت تنكر ظاهر ما ترى ، ولا تعلم باطنه ، فلما ركب السفينة ؛ قلع الخضر منها لوحاً ، فحشاها موسى بثوبه ، وأنكر عليه بقوله : (أخرقتها) الكهف:٧٢ ثم اعتذر بقوله : (لا تؤاخذني بما نسيت) . فلما لقيا الغلام قتله الخضر ، قيل: إنه اقتلع رأسه ، وقيل: كسر عنقه ، وقيل : أضجعه وذبحه بالسكين (قال : أقتلت

نفساً زكية بغير نفسٍ) . أي : بغير قتل نفس . فلما انطلقا الى القرية ، قيل : هي أنطاكية (استطعما أهلها) أي : سألاهم الضيافة (فأبوا أن يضيّفوهما) وكانوا بخلاء (فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه) قيل : انه دفعه بيده فقام ، وقيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فلما أنكر عليه ، قال : (هذا فراق بيني وبينك) أي : انكارك هو المفرّق بيننا ، ثم بيّن له : أن خرقه السفينة لتسلم من الملك الغاصب ، وقتله الغلام ليسلم دين أبويه ، قال ﷺ : « إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً » وإقامته الجدار ، لانه كان ليتيمين . وفي الكنز الذي كان تحته ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ذهباً وفضة .

والثاني : أنه كان لوحاً من ذهب ، فيه مكتوب : عجباً لمن أيقن بالقدر ، ثم ينصب ، عجباً لمن أيقن بالنار ، ثم يضحك ، عجباً لمن يؤمن بالموت ، كيف يفرح ؟ ! عجباً لمن يوقن بالرزق ، كيف يتعب ؟! عجباً لمن يؤمن بالحساب ، كيف يغفل ؟! عجبا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ، كيف يطمئن اليها ؟ أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد عبدي ورسولي ، وفي الشق الآخر ، أنا الله لا إله أنا وحدي ، لا شريك لي ، خلقتُ الخير والشرّ ، فطوبى لمن خلقته للخير ، وأجريته على يديه ، والويل لمن خلقته للشر ، وأجريته على يديه .

والثالث : أنه كنز علمٍ . قال مجاهد : صحف فيها علم . ثم أخبره أني مأمور فيما فعلت ، والسبب في أمر الله عزوجل موسى بهذا السفر ، أنه قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه : ان لي عبداً بمجمع البحرين ، هو أعلم منك ، قال : يا رب كيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً مالحاً ، فتجعله في مكتل ، فحيثما فقدت الحوت ، فهو ثمّ فانطلق حتى لقيه .

إخواني غاب الهدهد عن سليمان ساعة ، فتوعده بلفظ (لأعذبنه) فيامن يغيب

طول عمره عن طاعتنا ، أما تخاف من غضبنا ؟ خالف موسى الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات ،فحل عقدة الوصال بكف (هذا فراق بيني وبينك) أما تخاف ، يا من لم يف لمولاه أبداً ، أن يقول في بعض خطابك (هذا فراق بيني وبينك) .

كان الحسن رحمه الله تعالى ، شديد الخوف والبكاء ، فعوتب على ذلك . فقال : ما يؤمنني أن يكون اطلع الله علي في بعض زلاتي ، فقال : اذهب لا غفرت لك .

أنسيت يا مغرور أنك ميتٌ ... أيقن بأنك في المقابر نازل

تفنى وتبلى والخلائق بالبلى ... أبمثل هذا العيش يفرح عاقل

يا لاحقاً بآبائه وأمهاته ، يا من يغلبه الهوى وهو غالب دهاته ، إن كان لك في تفريطك عذراً فهاته ، أفق من سكرتك أيها الغافل ، وتحقق انك عن قريب راحل ، وإنما هي أيام قلائل ، فخذ نصيبك من ظل زائل ، واقض ما أنت قاض ، وافعل ماأنت فاعل . يا سالكاً طريق الجاهلين ، راضياً بلقب الغافلين ، متى هذا القلب القاسي يلين ؟ متى تبيع الدنيا وتشتري الدين ؟ واعجباً لمن آثر الفاني على ما يدوم ، وتعجل الهوى واختار المذموم ، ودنت همته فهو حول الوسخ يحوم ، وأقدم على القبيح ناسياً يوم القدوم .

أقعدني آماليه ... بعد القرون الخاليه

أهل المراتب والمنا ... صب والقصور العاليه

عادت لهم دنياهم ... بعد المودة قاليه

نادت منازلهم قفوا ... وتأملوا أطلاليه

فغموض باطن حالهم ... يبديه ظاهر حاليه

كانوا عقوداً عطّلت ... منها النحور الحاليه

إني لأذكر معشراً ... ما النفس عنهم ساليه

وأقول والهفي على ... تلك الوجوه الباليه

فصـــل

في قوله تعالى : (يطوف عليهم ولدان مخلدون). الولدان : الغلمان ، وفي المراد بقوله «مخلدون» قولان .

أحدهما : أنه من الخلد والمعنى : أنهم مخلوقون للبقاء لايتغيرون، وهم على سن واحد .

والثاني : أنهم المُقرَّطون ، ويقال المسوَّرون .

هذه صفات أقوام كانوا في مراضينا يجتهدون، ولأعدائنا بصدق ولايتنا يجاهدون ، وفي جادَّة الجد والاجتهاد يجدُّون ، وبين الخوف منا والطمع فينا يترددون ، فهم عند شقاء العصاة بالخلاف يسعدون ، وفي جنان الخلود على حياض السعادة يردون ، (يطوف عليهم ولدان مخلدون) وضحت لهم محجَّة النجاة فساروا ، ولاحت لهم أنوار الهدى فاستداروا وعرفوا دار الكرم فطافوا حولها وداروا ، وشربوا كؤوس الصفا صرفاً وأداروا ، ولم يرضوا في حال من الأحوال بالدون (يطوف عليهم ولدان مخلدون) أعددنا لهم القصور والأرائك ، وأخدمناهم الولدان والملائك ، وأبحناهم الجنان والممالك ، ويسلم عليهم في قصورهم المالك ، وإنما وهبنا لهم جميع ذلك ، لأنهم في خدمتنا يجتهدون (يطوف عليهم ولدان مخلدون) استنارت بالتحقيق طريقهم ، وتم إسعادهم وتوفيقهم ، وتحقق بالاجتهاد والصدق تحقيقهم ، وشرُف بهم مصاحبهم ورفيقهم ، لأنهم أخلصوا في طلب مايقصدون، (يطوف عليهم ولدان مخلدون) يامن سبقوه الى الخيرات وتخلف ، وأذهب عمره في البطالة وسوَّف ، وعلم المصير فما عرف النجاة ولاتعرف ، وكلِف بالدنيا وإذا طلب الأخرى تكلف ، يامن مرضه قد تمكن من جملته وتصرف ، اطلب الشفاء يامن على شفا هلكه قد أشرف ، وابك على ضلالك في الهوى فالقوم مهتدون ، (يطوف عليهم ولدان مخلدون) .

قوله: (بأكواب وأباريق) . الكوب : إناء لاعروة له ولا خرطوم . والأباريق: آنية لهـا عُرىً وخراطـيم . تركوا لأجلنا لذيذ الطعـام ، وساروا يطلبون جزيل الإنعام ، وقاموا في المجـاهدة على الأقدام ، وتدرعوا ملابس الأتقيـاء

الكرام ، فنشرت لهم بصدقهم الأعلام ، وحُلـّوا حلية الرضى ، وأُحلوا محل التوفيق ، (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق) ، طالما عطشوا في دنياهم وجاعوا ، وذلّوا لسيدهم صادقين وأطاعوا ، وخافوا من هيبة عظمته وارتاعوا ، وجانبوا مايشين وصاحبوا مايليق ، فطاف الولدان على شفاه يبست بالصيام رابي الريق بأكواب وأباريق . تحملوا أثقال التكليف ، ورفضوا التمادي والتسويف ، وقطعوا طريق الفوز للتشريف ، وجانبوا موجب العتاب والتعنيف ، فتولاهم مولاهم وحماهم في الطريق ، وأقام الولدان تسقيهم الرحيق بأكواب وأباريق .

قوله (وكأس من معين) . الكأس : الإناء بما فيه . والمعين : الطاهر الجاري . قال الزجاج : المعين هاهنا : الخمر تجري كما يجري الماء على وجه الأرض من العيون . طالما ظمئت لأجلنا هواجرهم ، طالما يبست بالصيام حناجرهم ، طالما غرقت بالدموع محاجرهم ، طالما أزعجتهم مواعظهم وزواجرهم ، طالما صدقنا معاملهم ومتاجرهم ، فغداً (يطوف عليهم الولدان والحور العين ، بأكواب وأباريق وكأس من معين) نظر إليهم مولاهم فارتضاهم ، وأنعم عليهم فاختارهم واصطفاهم ، وأعطاهم من فضله وإحسانه مناهم ، ومنحهم مالايحصى من الخير وحباهم ، فإذا قدموا عليه أطعمهم وسقاهم ، وأجلسهم على موائد الفوائد من زوائد التمكين ، بأكواب وأباريق وكأس من معين .

قوله (لايُصدّعون عنها) . أي : لاتذهب عقولهم بشربها دار ليس فيها مايُشينها ، دار لايفنى منها مايزينها ، دار لايزول عزها وتمكينها ، لذة خمرهم تفوق ما كانوا يعرفون (لايُصدّعون عنها ولاينزفون) دار أشرقت حلاها ، دار جلّ من بناها ، دار طاب للأبرار سكناها ، دار تبلّغ النفوس فيها مناها ، دار أين خاطبوها فقد وصفناها ، سكانها قد أمنوا مما كانوا يخافون (لايصدّعون عنها ولاينزفون) ما أتم نعيمهم ، ما أعم تكريمهم ، ماأصون حريمهم ، ما أكرم كريمهم ، ماأظرف حديثهم وقديمهم ، قد مُنحوا الخلود فما يبرحون (لايصدّعون عنها ولاينزفون) ثمارهم في أشجارهم وافرة ، وفواكههم من العيوب طاهرة ، ووجوههم بأنوار القبول ناضرة ، وعيونهم الى مولاهم ناظرة ، وقد حازوا شرف الدنيا وفوز الآخرة ، وأحلى النعيم أنهم لايتغيرون (وفاكهة مما يتخيرون)

كانوا في أوقات الاسحار ينتبهون ، وبالاسارى في الاعتذار يتشبهون ، وقدتركوا النفاق فما يموهون ، والتزموا الصدق فيما به يتفوهون ، ففازوا يوم اللقاء بما كانوا يطلبون (ولحم طير مما يشتهون) منحهم مولاهم من الخير ماليس بممنون ، وأمّنهم في الجنةحوادث المنون ، وجعلهم على حفظ سره يؤتمنون ، فلهم من فضله مايشاؤون (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) خلقهم لخدمته وأرادهم ، وأربحهم في معاملته وأفادهم ، وجعل الرّضى بقضائه زادهم ، وأعطاهم من جزيل رفده وزادهم ، وأثابهم مالم يخطر على الظنون (جزاء بما كانوا يعملون) .

اللهم اجعلنا من المتقين الابرار ، وأسكنا معهم في دار القرار ، ولا تجعلنا من المخالفين الفجار ، وآتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

اللهم ووفقنا لحسن الإقبال عليك ، والإصغاء إليك ، والبصيرة في أمرك والتعاون في طاعتك ، والمواظبة على ارادتك ، والمبادرة الى خدمتك وحسن الادب في معاملتك ، والتسليم لامرك ، والرضى بقضائك ، والصبر على بلائك ، والشكر لنعمائك ، آمين يارب العالمين ، برحمتك ياأرحم الراحمين .



المجلس السابع عشر

في قصة قارون

الحمد لله الذي يمحو الزلل ويصفح ، ويغفر الخطل ويسمح ، كل من لاذ به أنجح ، وكل من عامله يربح ، تشبيهه بخلقه قبيح ، وجحده أقبح ، (رفع السماء بغير عمد) فتأمل والمح ، وأنزل القطر فإذا الزرع في الماء يسبح ، والمواشي بعد الجدوب الغواشي في الخصب تسرح ، وأقام الورق على الورق تشكر وتمدح ، أغنى وأفقر ، والفقر في الأغلب أصلح. كم من غني طرحه البطر والأشر أقبح مطرح ، هذا قارون ملك الكثير ، وبالقليل لم يسمح ، نُبّه فلم يزل نومه ، وليم فلم ينفع لومه (إذ قال له قومه لا تفرح) .

أحمده ما أمسى المساء وما أصبح ، واصلي على رسوله محمد الذي أنزل عليه (ألم نشرح) صلى الله عليه وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار لم يبرح ، وعلى عمر الذي لم يزل في إعزاز الدين يكدح ، وعلى عثمان ولا أذكر ماجرى ولا أشرح ، وعلى علي الذي كان يغسل قدمه في الوضوء ولا يمسح ، وعلى جميع آله وأصحابه دائمة لا تبرح ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل (إن قارون كان من قوم موسى) قارون هو بن يصهر بن فاهث وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ابن عمه . والثاني : أنه ابن خالته . والثالث : أنه كان عم موسى .

قوله تعالى (فبغى عليهم) فيه خمسة أقوال .

أحدهما : أنه جعل لبغيّة جُعلا على أن تقذف موسى بنفسها ففعلت ، فاستحلفها موسى على ماقالت ، وأخبرته بقصتها ، فهذا بغيه .

والثاني : أنه بغى بالكفر . والثالث : بالكبر . والرابع : أنه زاد في طول ثيابه

شبراً . والخامس : أنه كان يخدم فرعون ، فتعدى على بني اسرائيل وظلمهم . وفي المراد بمفاتحه قولان :

أحدهما : أنه مفاتيح الخزائن التي يفتح بها الأبواب. قال خيثمة : كانت وقرستين بغلاً ، وكانت من جلود ، كل مفتاح مثل اصبع .

والثاني : أن المراد بالمفاتيح الخزائن .

قوله (لتنوء بالعصبة) أي : تثقلهم وتميلهم . والعصبة : الجماعة (إذ قال له قومه) يعني : المؤمنين (لاتفرح) لاتبطر (إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) وهي الجنة بالإنفاق في طاعته (ولاتنس نصيبك من الدنيا) وهو أن تعمل فيها للآخرة (وأحسن) باعطاء فضل مالك (كما أحسن الله اليك) بأن زادك على قدر حاجتك (ولاتبغ الفساد في الأرض) بأن تعمل بالمعاصي (إن الله لايحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي) فيه خمسة أقوال :

أحدها : على علم عندي بصنعة الذهب ، قال الزجاج : وهذا لا أصل له ، لأن الكيمياء باطل لاحقيقة له . والثاني : لرضى الله عني . والثالث : على خير علمه الله عندي . والرابع : إنما أعطيته بفضل علمي . والخامس : على علم عندي بوجوه المكاسب .

قوله تعالى (فخرج على قومه في زينته) قال الحسن : في ثياب حمر وصفر ، وقال عكرمة : في ثياب معصفرة ، وقال وهب بن منبه : خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان ، ومعه أربعة آلاف مقاتل وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلي والزينة على بغال بيض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت الزكاة أتى موسى قارون ، فصالحه على كل ألف دينار ديناراً ، وعلى كل ألف درهم درهماً ، وعلى كل ألف شاة شاة ، فوجد ذلك مالاً كثيراً ، فجمع بني اسرائيل ، وقال : إن موسى يريد أموالكم ، قالوا فما تأمرنا ؟ قال : نجعل لفلانة البغيَّة جعلاً فتقذفه بنفسها ، ففعلوا . ثم أتاه قارون فقال : إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتنهاهم ، فخرج فقال : يابني اسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة ، فإن كانت له امرأة

جلدناه حتى يموت أو رجمناه حتى يموت ، فقال له قارون : وإن كنت أنت؟ قال : وإن كنت أنا . قال: فإن بني اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ! قال: ادعوها ، فلما جاءت قال لها موسى : يافلانة أنا فعلت مايقول هؤلاء؟ قالت: لا كذبوا وإنما جعلوا لي جعلاً على أن أقذفك ، فسجد فأوحى الله تعالى إليه: مر الأرض بما شئت ، فقال : ياأرض خذيه فأخذته حتى غيبت سريره ، فلما رأى ذلك ناشده بالرحم ، فقال: خذيه فأخذته حتى غيبت قدميه ، فما زال يقول : خذيه حتى غيبته ، فأوحى الله تعالى اليه ياموسى : ما أفظك وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته .

قال سمرة بن جندب : يخسف به كل يوم قدر قامة ، فيبلغ به الى الأرض السفلى يوم القيامة . فلما هلك قال بنو اسرائيل : إنما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره ، فخسف الله بداره بعد ثلاثة أيام (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله) . أي : يمنعونه من الله. قوله تعالى : (تلك الدار الآخرة) يعني الجنة (نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض) وهو البغي (ولافساداً) وهو العمل بالمعاصي (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) القصص : ٧٦ - ٨٣ .

أيا والي المصر لاتظلمن ... فكم جاء مثلك ثم انصرف
وقد أبّر النخل ملاّكه ... وقيظ غيرهم فاخترف
فلا ترسلن حبال المُنى ... وأمسك بكفك منها طرف
تُقارف مستنكرات الذنو ... ب وتغفُل عن ذنبك المقترف

أين من جمع الأموال فنوّلها ؟ وطاف البلاد وجوّلها ، وشق أنهارها وجدولها ، رأت والله كل عاملة عملها ، ونزلت بعد سفرها منزلها ، عبرت الوجوه العوابس ، على جسور المنايا الحوابس ، وأذل قهر الموت الشوامس ، وصيّر الفصحاء في مقام الهوامس ، ياالليالي المرض من ليال دوامس ، ياالساعة اللحد حين يحثو الروامس ، كم لقيت وجوه نواعم من أكف طوامس ، كم ترحلت من ديار السلامة الى عسكر البلى فوارس ، لقد ذهب من كان وكان اسمه ، ولا عينه تُرى ولا رسمه ، ولاجوهره يحس ولاجسمه ، تبدد والله

بالممات نظمه ، ولحق بالرُّفات عظمه ، كم طوَّفوا في البلاد وجوَّلوا ، كم أوعدوا أعداءهم وهولوا ، كم جمعوا وكم تمولوا ، كم طالوا فيما تطولوا ، والمحنة أنهم على الامل عولوا ، فما كان إلا العليل وتحولوا ، كم ملؤوا سهلاً وجبلا ، شاءً وإبلاً ، فلما سلكوا إلى الموت سبُلا ، وعاينوه يوم الرحيل قُبلا ، وتهيؤوا للنزول في دار البلى ، علموا أن ما كانوا فيه عين البَلى .

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... ولا الحي في حال السلامة آمن
تجاربنا أيامنا ولنا رضىً ... بذلك لو أن المنايا تهادن
ركبنا من الآمال في الدهر لجةً ... فما صبرت للموت تلك السفائن
تجيء الرزايا بالمنايا كأنما ... نفوس البرايا للحمام رهائن

فصــل

في قوله تعالى : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمـل) الحجر : ٣. يامشغولاً بالأمل والمنى ، تأهب لمصرع قد قارب ودنا ، وتزود للقبر من الصبر كفنا ، وتهيأ لحرب الهوى ، فإذا عزمت فألق القنا ، فاللحود المقيل ، وبيت الموتى لا يبتنى ، وحاكم العدل يجازي كلا بما جنى ، كأنك بك قد مد اليك المخالس ، أسد قد فرى في الفرائس ، وحللت بقاع البلى فخلت منك بقاع المجالس ، وبعـد عنك الصديق الصدوق ، والودود المجالس ، وترك زيارتك من كان لك في الوحدة مؤانس ، وحبست في ضنك ضيق من المحابس ، وأصبح ربعك بعد بعدك وهو خال دارس ، ونزلت لحدك وحدك في ظلمة الحنادس ، وبكى الأهل والرؤوس للنوى نواكس ، ثم عادوا الى الحلة وكل في حلته آنس ، وانطلقوا فأطلقوا أموالك الحبائس ، وأنت تتمنى العود ، كلا والعود يابس ، وتعوَّضت الرغام على الرغم والثرى بالثراء بعد الملابس ، فيابؤس هـذا الملبوس ، ويا ذل هذا اللابس ، فلو اطلع عليك بعد يوم خامس أو سادس ، لرئي أثر بعد عين ، قد غيَّرته الطوامس ، وبقيت حديثاً يجري على مر الدهور في المجالس ، فاغتنم

حياتك قبل المات ، فأنفاس النفوس نفـائس ، يا ذا الأمل الطويل ، كم أدى حديث الوساوس ، يا مناغي المنا ودع هذه الهواجس .

لا بد للانسان من ضجعة　　لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه　　كما أذاق الموت من كربـه
نحن بنو الموتى فما بالنا　　نعاف مالا بـد من شربه
يموت راعي الضأن في جهله　　موتة جـالينوس في طبـه
وربـما زاد على عمـــره　　وزاد في الأمن على سربـه
وغـاية المفرط في سلمه　　كغـاية المفرط في حربه

أين أرباب القصور هذه طلولها ؟ قل لها أين عامرها ؟ أين نزيلها ؟ يا كثير الأسئلة لها كم تطيلها ؟ كانت فيها جيرة ثم أتى رحيلها ، ما ردت شواجر الرمـاح ، ولا دفع صقيلها ، أما يكفي القلوب الغافلة وعظاً دليلها ، يا لنفوس أمرضها الهوى ما يشفي غليلها ، أما هذه طريقها ، أما هذه سبيلها ، يالها من موعظة كم نسمعها و كم نقولها ، خلج والله البين من القوم ما خلج ، وأم الموت أمنهم فلا تسأل كيف انزعج ، واستنزل أعاليهم من أعالي الدرج فدرج ، وساروا في عسكر البلي فأتلفهم الوهج ، وزفرت أبدانهم بعد طيب الأرج ،ونسج لهم البلاء ثوباً فيا بئس ما نسج ، وعاموا في بحر الأسى فلجّج بهم في اللجج ، ولقيهم من البلاء ما ضوعف وازدوج ، واستغاثوا ولكن في غير إبان الفرج ، وطلبوا راحة ولكن في زمان الحرج ، وسئلوا فعدموا تحقيق الجواب ، وتصحيح الحجـج ، فيا أسفاً لمسؤولهم لا فاز ولا فلج .

إن قومي صدّعتهم نوبة　　فهم في بقع الأرض نقط
وبواق غير باقين و كم　　يلبث الغارب من بعر الفرط

إخواني : اعتبروا بمن مضى من الأقران ، وتفكروا فيمن بنى كيف بان ،تقلبت والله بهم الأحوال ، ولعبت بهم أيدي البلبال ، ونسيهم أحبابهم بعد ليـال ، وعانقوا التراب ، وفارقوا المال ، فلو أذن لصامتهم لقال :

من رآنا فليحدّث نفسه　　أنه موف على قرب زوال
وصروف الدهر لا تبقى لها　　ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا　　يشربون الخمر بالماء الزلال
ثم أضحوا لعب الدهر بهم　　وكذاك الدهر حال بعد حال

كم مأخوذ على الزلل ، ختم له بسوء العمل ، نزل به الموت فيا هول ما نزل ، وأسكنه القبر فكأن لم يزل ، وهذا مصير العاقل لو عقل (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل)

كم نائم على فراش التقصير ، مغتر بعمر قصير ، صاح به ولم يبال النذير ، فاستلب على الخطايا والتبذير ، فلما أحس البأس ثارت من نيران الندم شعل (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل)

كم مستحل شراب الهوى ، شرب من كأسه حتى ارتوى ، بينا هو على جادة إعراضه هوى ، فما نفعه عند الموت ما حوى ، ولا ما شرب ولا ما أكل (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل) .

لا تغتر بنعيم القوم ، فإن غداً بعد اليوم ، دعهم فما يؤثر فيهم لوم ، وهل ينفع ميتاً وهل ؟ (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل) .

يجمعون الحطام بكسب الحرام ، يتفكرون في نصب شرك الانام ، والناس يرقدون وفكرهم في الويل لا ينام ، فللأقدام فيما لا يحل إقدام ، تسعى في هواها سعي الرمل ، (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل) .

ما عندهم خبر من الساعة ، والعمر يمضي بساعة وساعة ، خسروا أشرف تجارة وأغلى بضاعة ، يتثاقلون تثاقل عطارد في الطاعة ، فإذا لاح الذنب فزحل ، (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل)

اللهم أعذنا من أحوال الشقا ، ووفقنا لأعمال أهل التقى ، وارزقنا الاستعداد ليوم اللقا ، يا من عليه الاعتماد والمتكل .

اللهم يا حبيب كل غريب ، ويا أنيس كل كئيب ، أي منقطع اليك فلم تصله ؟ أم أي محب خلا بذكرك فلم تؤنسه ؟ أم أي داع دعاك فلم تجبه ؟ ويروى عنك سبحانك أنك قلت : وما غضبت على أحد كغضبي على مذنب أذنب ذنباً فاستعظمه في جنب عفوي.

اللهم يا من يغضب على من لا يسأله لا تمنع من قد سألك ، أنت الذي دللت بجودك عليك ، وأطلقت الألسنة بالسؤال لديك .

اللهم أسألك بناء مناهج المتقين ، وألبسنا خلع الإيمان واليقين ،وخصنا منك بالتوفيق المبين ، ولا تجعلنا ممن يعاهد على التوبة ويمين ، واجعلنا بفضلك من أصحاب اليمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الثامن عشر

في قصة بلعام

الحمد لله الذي إذا لطف أعان ، وإذا عطف صان ، أكرم من شاء كما شاء وأهان ، أخرج الخليل من آزر ومن نوح كنعان ، يميت ويحيي ويفني ، ويبقي كل يوم هو في شان ، يزين بموهبة العلم ، فإذا لم يعمل به شان ، خلع خلعة العلم على بلعام فلم يصنها ؛ ومال بهواه إلى ما عنه ينهى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان) .

أحمده في السر والإعلان ، وأصلي على محمد الذي انشق ليلة ولادته الإيوان ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبو بكر أول من جمع القرآن ، وعلى الفاروق الموصوف بالعدل وكذلك كان ، وعلى عثمان التقي الحيي الذي تستحيي منه ملائكة الرحمان ، وعلى علي سيّد العلماء الشجعان ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة على ممر الزمان ، وسلم تسليما .

قال الله تعالى : (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) في المشار اليه ستة أقوال :

أحدهما : أنه أمية ابن أبي الصّلت ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أنه سيأتي رسول ، ورجا أن يكون هو ، فلما بُعِث رسول الله ﷺ حسده و كفر .

والثاني : أنه عامر الراهب .

والثالث : أنه رجل من بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات مستجابات ، وكانت له امرأة دميمة ، فقالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة فدعا لها ، فرغبت عن زوجها فدعا عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة ، فجاء بنوها وقالوا : لا صبر لنا على تعيير الناس لنا بأمنا ، فدعا أن تكون كما كانت ، فذهبت دعواته الثلاث فيها . رواه عكرمة عن ابن عباس .

والرابع : أنه كل من انسلخ من الحق بعد أن أعطيه من اليهود والنصارى والحنفاء.

والخامس : أنه المنافق.

والسادس : أنه بلعام وهو المشهور الأثبت ، وفي الآيات التي أوتيها أربعة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم .

والثاني : أنها كتاب من كتب الله تعالى .

والثالث : أنها حجج التوحيد وفهم أدلته .

والرابع : أنها العلم بكتب الله عز وجل . وكان من خبر بلعام أن موسى غزا البلد الذي هو فيه ، وكانوا كفاراً ، وكان هو مجاب الدعوة فأتاه قومه ، فقالوا: هذا موسى قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، ونحن قومك ، فادع الله عليهم ، فقال : ويلكم نبي الله ، ومعه الملائكة والمؤمنون ، فكيف أدعو عليهم ، فقالوا : مالنا من متركَ ، فلم يزالوا يترفقونه ، ويتضرعون اليه حتى افتتن ، فركب حماره متوجهاً الى عسكر موسى ، فلما سار إلا القليل حتى ربضت به ، فنزل عنها ، فضربها ، فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب ؟ ألا ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ، أتذهب الى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها وضربها فانطلقت به حتى إذا أشرف على عسكر موسى جعل لا يدعو عليهم بشيء إلا صرف لسانه الى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه الى بني اسرائيل ، فقال له قومه : إنما تدعو علينا ، فقال : هذا شيء لا أملكه إلا أنه دعا أن لا يدخل موسى المدينة ، فوقعوا في التيه ، فقال موسى : يا رب كما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه ، فدعا الله أن ينزع منه الأسم الأعظم ، فنزع منه ، واندلع لسانه ، فوقع على صدره ، فقال لقومه : قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة فلم يبق إلا المكر والحيلة ، جمّلوا النساء ، وأعطوهن السلع ، وأرسلوهن في العسكر يبعنها ، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها ممن أرادها ، فإنه إن زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا فوقع رجل منهم على امرأة ، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل حينئذ ، فهلك منهم سبعون ألفاً في ساعة .

قوله تعالى : (فانسلخ منها) أي : خرج من العلم بها (فأتبعه الشيطان) أي :

أدركه (فكان من الغاوين) أي : الضالين (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض) أي : ركن إلى الدنيا وسكن ، واتبع هواه ،أي: انقاد له(فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) الأعراف : ١٧٥-١٧٦ المعنى : إنَّ زجرته لم ينزجر ، وإن تركته لم يهتد كالكلب إن طرد كان لاهثاً ، وإن ترك كان لاهثاً .

قال المفسرون : زجر في منامه عن الدعاء على بني إسرائيل ، فلم ينزجر ،وخاطبته أتانه فلم ينته ، وهذا رجل لم ينفعه علمه بل ضره .

قال سفيان بن عيينة : العلم يضرك إذا لم ينفعك .

وقال منصور بن زاذان : ثبت أن بعض من يلقى في النار يتأذى أهل النار بريحه ، فيقال له : ويلك ما كنت تعمل ؟ أما يكفينا ما نحن فيه من الشر حتى ابتلينا بك ، وبنتن ريحك ؟! فيقول : كنت عالماً فلم أنتفع بعلمي .

وكتب حكيم إلى حكيم : يا أخي قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب ، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم .

جدوا فإن الأمر جد ... وله أعدوا واستعدوا
لا تغفلن فإنما ... آجالكم نفس يعد
وحوادث الدنيا تروح ... عليكم طوراً وتغدوا
أين الألى كنا نرى ... ماتوا ونحن نموت بعد
مالي كأن مناي يبسط ... لي وآمالي تمدّ
يا غفلتي عن يوم يجمع ... شرّتي كفن ولحد
ضيّعت ما لابد لي ... منه فمالي منه بدّ
ما نحن فيه متاع أيا ... م يعار ويسترد
إن كان لا يغنيك ما ... يكفي فما لغناك حد
هوّن عليك أليس كل ... الناس يعطي ما يود
وتوق نفسك في هوا ... ك فإنها لك فيه ضد
من كان متبعاً هوا ... ه فإنه لهواه عبد

إخواني : متى أصبح الهوى أميرا ، بات العقل أسيراً . التقوى درع فإياك أن تترك خللاً في درعك فإن الرامي يقصد الخلل . متى فسحت لنفسك في تفريط وإن قل انخرق حرز احترازك .

كان بعض المعتبرين يمشي في الوحل ويتقيه ، ويشمر عن ساقيه إلى أن زلقت رجله ، فجعل يمشي في وسط الوحل ويبكي ،فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب حتى يقع في ذنب وذنبين ، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً .

وقيل لعبيدة بنت أبي كلاب : ما تشتهين ؟ فقالت : الموت . قيل : لم ؟ قالت : لأني والله كل يوم أصبح أخشى أن أجني على نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة .

يا مستوراً على الذنب انظر في ستر من أنت ، لو عرفتني أعرضت عن غيري ، لو أحببتني أبغضت ما سواي ، لو لاحظت لطفي توكلت علي ، خاصمت عنك قبل وجودك ، إني أعلم ما لا تعلمون . واستكثرت قليل عملك ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، واعتذرت الك في ذلك ، (فدلاهما بغرور) وغطيت قبيح فعلك (يا أيها الذين آمنوا توبوا) وأربحتك في ما أملتك ، فله عشر أمثالها ، ومن خاصم عنك وأنت مفقود لا يسلمك ، وأنت موجود فاعرف عليك حقي ، ولا تكن من شرار خلقي ، فكم أرى زلة وأحلم وأبقي ، يا قائماً في مقام الجهالة قد رسخ ، يا متكبراً على اخوانه قد علا وشمخ ، يا من في بصره كمه ، وفي سمعه صلخ ، يا طامعاً في السلامة مع ترك الاستقامة ما ينفع البذر في السبخ ؟ متى تنقي قلبك من هذا الدرن والوسخ ؟ متى تتصور نفخة إسرافيل في الصور إذا نفخ ؟ تذكر يا منجنا ركوب الجنازة ، تصوريا من ما وفى طول المفازة ، ودّع الدنيا مودعاً للحلاوة والمرارة . ليت شعري بعد الموت أين تذهب ؟ لقد تعمى والله عليك المذهب ، لا بد مرة من كأس مُرة تشرب ، ولهذه الأجساد المبنية أن تخرب ، فرحم الله من اعتبر وتأهب .

إني سألت الترب ما فعلت ... بعدي وجوه فيك منعفره

فأجابني صيَّرت ريحهم ... تؤذيك بعد روائح عطره

وأكلت أجساداً منعمة ... كان النعيم يهزها نضره
لم يبق غير جماجم عريت ... بيض تلوح وأعظم نخره

فصل

في قوله تعالى (فاعتبروا ياأولي الأبصار) الحشر : ٢ . الاعتبار : النظر في الأمور ليعرف بها شيء آخر من جنسها . والأبصار : العقول . والمعنى : تدبروا .

روي عن أحمد بن محمد الهروي ، قال : حدثني رجل من عبد قيس ، قال : دخلت ابنة النعمان بن المنذر على معاوية ، فقال لها : أخبريني عن حالكم كيف كانت ؟ قالت : أطيل أم أقصر ؟ قال : لابل أقصري . قالت : أمسينا مساءاً وليس في العرب أحد إلا وهو يرغب إلينا ، ويرهب منّا ، فأصبحنا صباحاً ، وليس في العرب أحد إلا ونحن نرغب إليه ، ونرهب منه .

وعن المنهال بن عبد الملك قال : حبس هشام بن عبد الملك عياض بن مسلم ، وكان كاتباً للوليد بن يزيد ، وضربه وألبسه المسوح ، فلما ثقل هشام أرسل الى الخزان : احفظوا مافي أيديكم ، فمات هشام ، وخرج عياض ، فختم الأبواب والخزائن ، ومنع أن يكفن هشام من الخزائن ، واستعاروا له قمقماً سخنوا فيه الماء ، فقال الناس : إن في هذا عبرة .

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، قال : كان عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية خلاً لعبد الملك بن مروان ، فلما مات عبد الملك ، وتصدع الناس عن قبره ، وقف عليه وقال : أنت عبد الملك الذي كنت تعدني فأرجوك ، وتوعّدني فأخافك ؟ أصبحت وليس معك من ملكك غير ثوبيك ، وليس لك منه غير أربعة أذرع في عرض ذراعين . ثم انكفأ الى أهله ، فاجتهد في العبادة حتى صار كأنه شَن ، فدخل عليه بعض أهله ، فعاتبه في نفسه وإضراره بها ، فقال للقائل : أسألك عن شيء تصدقني عنه ؟ قال : نعم . قال : أخبرني عن حالك التي أنت عليها ، أترضاها للموت ؟ قال : لا . قال : أفعزمت على انتقال منها إلى غيرها ؟ قال : ما اتضحت رأيي في ذلك . قال : أفتأمن أن يأتيك

الموت على حالك التي أنت عليها؟ قال : اللهم لا . قال : حال ما أقام عليها عاقل ، ثم انكفأ إلى مصلاه .

إخواني : أي مطمئن لم يزعج ؟ وأي قاطن لم يخرج؟ تالله لقد عُرف المنهج ، زال الشك والحق أبلج ، إخواني فرس الرحيل مُسرج ، وإلى بوادي القبور المخرج ، والنعش المركوب بعد الهودج ، ماهتف الموت بمقيم إلا أدلج ، ولا استدعى نطق نصيح الاتلجلج أين من عاشرناه وألفنا؟ أين من ملنا إليه بالوداد وانعطفنا؟ أين من ذكرناه بالمحاسن ووصفنا؟ مانعرفهم لو عنهم كشفنا ، ماينطقون ولو سألنا وألحفنا ، وسنصير كما صاروا فياليتنا أنصفنا ، كم أغمضنا من أحبابنا على كرههم جفنا ، كم أذكرتنا مصارع من فني من يفنى ، كم عزيز أحببناه دفناه وانصرفنا ، كم مؤانس أضجعناه في اللحد وما وقفنا، كم كريم علينا إذا جزنا عليه انحرفنا . مالنا نتحقق الحق فإذا أيقنا صُرفنا . ضر أهله التسويف وهانحن قد سوفنا . أما التراب مصيرنا فماذا منه أنفنا ؟ إلامَ تغرنا السلامة وكأن قد تلفنا ؟ أين حبيبنا الذي كان وانتقل؟ أما غمسه التلف في بحره ومقل؟ أين الكثير المال ، الطويل الأمل؟ أما خلا في لحده وحده بالعمل؟ أين من جرذيل الخيلاء غافلا ورفل؟ أما سافر عنا والى الآن ماقفل؟ أين من تنعّم في قصره وفي قبره نزل؟ فكأنه في الدار ما كان ، وفي القبر لم يزل. أين الأكاسرة والجبابرة العتاة الأُول ؟ ملك أموالهم سواهم والدنيا دول ، خلا والله منهم النادي الرحيب ،ولم ينفعهم البكاء والنحيب ،وعاينوا من هول المطلع كل عجيب وسئل عاصيهم فلم يعلم كيف يجيب ، سلوا عن الجيران المنازل ، وقولوا لها : أين النازل؟ لا والله ماتجيب السائل، بلى إن البلى ينطق بالبلابل ،مضى والله الكل على منهاج ، ورحلوا الى البلى أفواجاً بعد أفواج ، ولقوا لغب الطريق على تعب الإدلاج ، ونشرت صحائفهم فإذا بها كالليل الداج ،وباشروا خشين التراب بعد لين الديباج ،وعادت نساؤهم أيامى بعد بُعد الأزواج.

ركنوا إلى الدنيا الدنيه ... وتبوؤا الرتب السنية
حتى إذا غرُّوا بها ... صرعتهم أيدي المنية

روي عن محبوب العابد ، قال : مررت بدار من دور الكوفة ، فسمعت غناء جارية تنادي من داخل الدار :

ألا يادار لايدخلك حزن　　　ولا يذهب بساكنك الزمان

قال : ثم مررت بالدار ، فإذا الباب مسدود ، وقد علته وحشة ،فقلت : ماشأنهم؟ قالوا : مات سيدهم ، مات رب الدار ، فقلت : إني سمعت من هاهنا صوت جارية تقول: ألا يادار لايدخلك حزن . فقالت امرأة من الدار وبكت : ياعبد الله إن الله تعالى يغيِّر ولايتغير ، والموت غاية كل مخلوق . فرجعت من عندهم باكياً .

إخواني : الدنيا ظل زائل، وحال حائل ، وركن مائل، ورفيق خاذل،ومسؤول باخل ، وغول غائل ، وسم قاتل ، كم تعد الدنيا وتماطل ، كل وعدها غرور وباطل، تالله مافرح بها عاقل .

خليلي كم من ميت قد حضرته　　　ولكنني لم انتفع بحضور

وكم من خطوب قد عرتني كثيرة　　　وكم من أمور قد جرت وأمور

كم ظالم تعدى وجار ، فما راعى الأهل ولا الجار ، بينما هو يعقد عقد الإصرار ، حل به الموت فحل من حليِّه الأزرار (فاعتبروا يا أولي الأبصار) . ماصحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن ، لورأيته قد حلت به المحن ، وشين ذلك الوجه الحسن ، فلا تسأل كيف صار (فاعتبروا يا أولي الابصار) . سال في اللحد صديده ، وبلي في القبر جديده ، وهجره نسيبه ووديده ، وتفرق حشمه وعبيده والانصار (فاعتبروا ياأولي الابصار) . أين مجالسه العالية؟ أين عيشته الصافية؟ أين لذته الخالية؟ كم تسفي على قبره سافيــة ، ذهبت العــين وخفيت الآثار (فاعتبروا يا أولي الابصار) . خلى والله بما كان صنع ، واحتوشه الندم ومانفع ، وتمنى الخلاص وهيهات قد وقع ، وخلاّه الخليل المصافي وانقطع ، واشتغل الاهل بما كان جمع ، وتملك الضد المال والدار (فاعتبروا ياأولي الابصار) . نادم بلا شك ولاخفا ، باك على مازل أو هفا ، يود أن صافي اللذات ماصفا ، وعلم أنه كان يبني على شفا ُجرف هار (فاعتبروا يا أولي الابصار) . وهذه وإن كانت حالة من غدا ، فلكل منكم مثلها غداً ، فانتبهوا من رقادكم قبل الردى ، (أيحسب الانسان أن ُيترك سدى) إنما هي جنة أو نار (فاعتبروا يا أولي الابصار) .

اللهم سلمنا من شرور أنفسنا التي هي أقرب أعدائنا ، وألهمنا يامولانا رشدنا ، ولا تؤاخذنا بجهلنا ، وفرج همنا وغمنا ، واكشف كروبنا ، واجبر قلوبنا ، وارحمنا بقدرتك علينا . يامن يحب أن يُسأل ، كما يحب أن يتفضل.

اللهم إن حسناتنا من عطائك ، وسيئاتنا من قضائك ، فجد اللهم بما أعطيت ، على مابه قضيت ، حتى تمحو ذلك بذلك . أطعناك بإرادتك ، والمنة لك علينا ، وعصيناك بتقديرك ، والحجة لك علينا ، فبوجوب حجتك ، وانقطاع حجتنا إلا مارحمتنا ، وبفقرنا إليك وغناك عنا إلا ماكفيتنا .

اللهم إن مساوئنا قطعت عنا الوسائل غير أنّا علمنا أنك رب كريم ، ومولى رؤوف رحيم ، فجرّأنا مع قبح أعمالنا علمنا بذلك ، وحمّلنا مع البعد عنك رجاؤنا وطمعنا في نوالك ، فاستجب لنا واغفر لنا ، وارحمنا وتب علينا وعافنا واعف عنا ،وحقق رجاءنا ، واسمع دعاءنا برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .



المجلس التاسع عشر

في قصة داود عليه السلام

الحمد لله رب الأرباب ، ومسبب الأسباب ، ومنزل الكتاب ، حفظ الأرض بالجبال من الاضطراب ، وقهر الجبارين وأذل الصعاب ، وسمع خفي النطق ومهموس الخطاب ، وأبصر فلم يستر نظره حجاب ، أنزل القرآن يحث فيه على اكتساب الثواب ، ويزجر عن أسباب العقاب (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) ص : ٢٩ . ابتلى المصطفين بالزلل ليعلم أنه تواب ، أما سمعت بزلّة آدم وماجرى عليه من عتاب (وهل أتاك نبؤ الخصم إذتسوروا المحراب) .

أحمده على رفع الشك والارتياب ، وأشكره على ستر الخطايا والمعاب ، وأقر له بالتوحيد إقراراً نافعاً يوم الحساب ، وأعترف لنبيه محمد أنه لب اللباب ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر خير الأصحاب ، وعلى عمر الذي إذا ذكر في مجلس طاب ، وعلى عثمان المقتول ظلماً وماتعدى الصواب ، وعلى علي البدر يوم بدر والصدر يوم الأحزاب ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة مستمرة الى يوم المآب ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى : (وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوّروا المحراب) المعنى : قد أتاك فاستمع له نقصصه عليك ، والخصم يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى (إذ دخلوا على داود) وهو داود بن ايشا بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب عليه السلام وكان من مبدأ أمره أن الله تعالى لما بعث طالوت ملكاً خرج من بني إسرائيل معه ثمانون ألفاً لقتال جالوت ، فقالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وكان فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابناً له أصغرهم داود ، فمر بثلاثة أحجار فكلمنه وقلن : ياداود خذنا تقتل بنا جالوت ، فأخذهن ومشى الى جالوت ، فوضعهن في

قذافته فصارت حجراً واحداً ، ثم أرسله ، فصك به بين عيني جالوت فقتله ، ثم هلك طالوت فملك داود ، وجعله الله تعالى نبياً ، وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد وألانه له ، وأمر الجبال والطير أن يسبّحن معه ، وكان إذا قرأ الزبور يصيخ له الوحش حتى يؤخذ بأعناقها ، وكان كثير التعبد . وتذاكر بنو إسرائيل يوماً عنده هل يأتي على الإنسان يوم لايصيب فيه ذنباً ؟ فأضمر أنه يطيق ذلك ، فابتلي يوم عبادته بالنظر ، وذلك أنه رأى طائراً في محرابه ، فمد يده إليه فتنحى ، فأتبعه بصره فاذا بامرأة ، فخطبها مع علمه أن أوريا قد خطبها فتزوجها ، فاغتم أُوريا ، فعوتب اذ لم يتركها لخاطبها الأول . هذا أجود ماقيل في فتنته ، ويدل عليه قوله تعالى (وعزّني في الخطاب) . وأما ماينقل أنه بعث زوجها في الغزوات حتى قتل فلايجوز أن يكون صحيحاً . فجاءه الملكان فتسورا عليه من سور داره ، ففزع منهم لأنهما أتياه على غير صفة مجيء الخصوم ، وفي غير وقت الحكومة ، وتسورا من غير اذن ، قالوا : لاتخف خصمان ، أي : نحن خصمان . وهذا مثل ضرباه له ، والتقدير : ماتقول إن جاءك خصمان (بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أي : لاتجر (واهدنا إلى سواء الصراط) أي : إلى قصد الطريق . والمعنى : احملنا على الحق ، فقال داود عليه السلام : تكلما . فقال أحدهما : (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) قال الزجاج : كنى عن المرأة بالنعجة . قال المفسرون : إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود ، ولي نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، أي : انزل أنت عنها ، واجعلني أنا أكفلها ، وعزني في الخطاب ، أي : غلبني في القول . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . فإن قيل : كيف حكم قبل أن يسمع كلام الآخر ؟ فالجواب أن الآخر اعترف ، فحكم عليه باعترافه ، وحذف ذكر ذلك اكتفاءً بفهم السامع .

قوله تعالى : (وظن داود) أي : أيقن وعلم أنما فتناه ، أي : ابتليناه بما جرى له في حق المرأة . وفي سبب تنبهه لذلك ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الملكين أفصحا له ذلك ، قال السُّدي : قال داود للخصم الآخر :

ماتقول؟ قال : نعم أُريد أن آخذها منه فأكمل بها نعاجي وهو كاره، قال : اذن لا ندعك فإن رمت هذا ضربنا منك هذا وهذا ـ يشير الى أنفه وجبهته ـ فقال : أنت ياداود أحق أن يضرب هذا منك ، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة. فنظر داود فلم ير أحداً ، فعرف ماوقع .

والثاني : أنهما عرجا الى السماء وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ، فعلم أنه عُني بذلك . والثالث : أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما الى صاحبه وضحك ، ثم صعدا الى السماء وهو ينظر ، فعلم أن الله ابتلاه بذلك (فاستغفر ربه،وخر راكعاً وأناب) ص:٢١-٢٤ . قال ابن عباس : أي : ساجداً ، فعبر بالركوع عن السجود ، لأنهما بمعنى الانحناء.

قال المفسرون : بقي في سجوده أربعين ليلة لايرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لابد منها ، ولايأكل ولايشرب ، فأكلت الأرض من جبهته ، ونبت العشب من دموعه وهو يقول : رب زلّ داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب .

وروي عن يحيى بن أبي كثير قال : بلغنا أنه إذا كان يوم نوح داود عليه السلام مكث قبل ذلك سبعاً ، لايأكل الطعام ولايشرب الشراب ، ولايقرب النساء . فاذا كان قبل ذلك بيوم أَخرج له منبر الى البرية، وأمر سليمان منادياً لسفريّ البلاد وماحولها من الغياض ، والآكام والجبال والبراري ، والديارات والصوامع والبيع ، فينادي فيها: ألا من أحب ان يسمع نوح داود ، فليأت ذاك ، فتأتي الوحوش من البراري والآكام ، وتأتي السباع من الغياض ، وتأتي الهوامّ من الجبال ، وتأتي الطير من الأوكار ، وتأتي الرهبان من الصوامع والديارات ، وتأتي العذارى من خدورها ، ويجتمع الناس لذلك اليوم ، ويأتي داود حتى يرقى على المنبر ، وتحيط به بنو اسرائيل، وكل صنف على حدته. قال : وسليمان قائم على رأسه ، قال : فيأخذ في الثناء على الله عز وجل ، فيضجون بالبكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار ، فيموت طائفة من السباع والهوام والوحوش وطائفة من الرهبان والعذارى المتعبدات ، ثم يأخذ في ذكر الموت واهوال القيامة ، ثم يأخذ في النياحة ، فيموت من كل صنف طائفة ، فاذا رأى سليمان ماقد كثر من الموتى

نادى يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الرهبان والوحوش ، فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء ، ويغشى عليه فيحمل على سرير ، فاذا أفاق قال : ياسليمان مافعل عبّاد بني اسرائيل؟ مافعل فلان وفلان؟ فيقول : ماتوا! فيقوم فيدخل بيت عبادته ، ويغلق عليه بابه ، وينادي أغضبان أنت على داود إله داود؟ أم كيف قصّرت به أن يموت خوفاً منك .

قال علماء السير : كان لداود عليه السلام جاريتان قد أعدهما ، فكان إذا جاءه الخوف سقط واضطرب ، فقعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ، وكان قد نقش خطيئته في كفه لكيلا ينساها ، وكان إذا رآها اضطربت يداه ، ويقال: لو وزنت دموعه عدلت دموع الخلائق ، ولم يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله عز وجل .

إبك من جرمك حزناً   فحقيق بك أن تبكي
كم ركبت الذنب مغرورا   وكم أسرعت في الفتك
من إذا ألبستك الذ   لّ يُراعيك ويشكي
من ترى يسترك اليو   م إذا عمّك هتكي
كم تجردت لإغضابي   وكم خالفت نسُكي
أترى يُجهل عزي   أم ترى يصغر ملكي؟

ياسكران الهوى متى تصحو؟ ياكثير الذنوب متى تمحو؟ الى كم تهفو ونعفو ؟ ! وتتكدر ونعمنا تصفو ؟ ! إبك لما بك ، واندب في شيبك على شبابك ، وتأهب لسيف المنون فقد علّق الشبابك .

إخواني : تأملوا عواقب الذنوب ، تفنى اللذة وتبقى العيوب ، احذروا المعاصي فبئس المطلوب ، ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب ، الخطيئة اليوم قليل ، وحزنها في غدٍ طويل ، مادام المؤمن في دار التقوى فهو يبصر طريق الهدى ، فإذا طبق ظلام الهوى عدم النور .

انتبه الحسن ليلة فبكى ، فضج أهل الدار بالبكاء ، فسألوه عن حاله فقال : ذكرت ذنباً لي فبكيت . يامريض الذنوب ، مالك دواء كالبكاء .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار عين بكت في جوف الليل ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

وقال محمد بن علي بن الحسين : ما أغرورقت عين بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار : فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة .

لا تحبسن ماء العيون فإنه   لك يا لديغ هواهم درياق
شنوا الإغارة في القلوب بأسهم   لا يرتجى لأسيرها الإطلاق
واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا   الأسرار حتى دره الآماق

فصــل

في قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) القيامة : ٣٦ أي : هملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يحاسب بعمله في الآخرة .

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا ابن آدم لا تزول قدماك يوم القيامة بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن أربع ؛ عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته ، ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته [وعلمك ماذا عملت به] » .

وقال بعض المعتبرين : لما خلوت بالعقل في بيت الفكر ؛ علمت أن مخلوق التكليف معاقب على التحريف ، لست بمهمل فأسهو ، ولا بمتروك فألهو ، يحصى علي قليل العمل وكثيره ، ويكر علي الزمان ويبين لي تأثيره ، ورأيت الليل والنهار يقودانني إلى قبري ، ويفنيان في سيرهما عمري ، ويريانني من العبر ما يتضح به طريق الهدى ويبين ، بسلب الكبير والصغير ، والرفيق والقرين ، فعلمت أن الهلاك آخر السلامة ، وأن عاقبة التفريط الندامة ، وأن وهن البدن أبين دليل على الموت ، وأقوى علامة ، وعرفت بدليل السمع الجزاء يوم القيامة ، فلما تيقنت أني مكلف محاسب ، محفوظ على عملي مراقب ، مثاب على الفعل ومعاقب ، مأخوذ بالتفريط ومطالب ، هممت أن أنهض نهضة عازم صدوق ، إلى داء التكليف وقضاء الحقوق ، فقيدتني نفسي بقيود الهوى ، وأفسدت من حالي ما استقام واستوى ، فبقيت اتفكر فيما جرى ، وأمسح عيني من سنة الكرى ، وأقول ماذا منعني

عن مقصودي ؟ وأي شيء شغلني عن معبودي ؟ ومالي أُقصر في سيري و كيف سبقني الى الفضائل غيري ؟ فتعجبت مما نابني ، وحزنت لما أصابني ، ولم أزل أنظر في الموانع حتى فهمتها ، وأَتدبر طريق الهدى حتى علمتها ، وذاك أن الله سبحانه جبل النفوس على حب الشهوة ، وجعلها في حبس الغفلة ، وخلق من رائق مقصودها ، ما يشغلها وجوده عن وجودها ، فهي تميل الى مشتهاها ، وإن أدى الى المهالك ، لما وضع في طبعها من حب ذلك ، وتنهمك على تحصيل غرضها ، وإن أَعقبها طول مرضها ، فينسيها عاجل ما يسر ، آجل ما يضر ، فلما وضعها الحق على هذا ، وألفها خاطبها بمخالفة طباعها وكلفها ، وبيّن لها طريق الهدى وعرفها ، ولطف بها في أحوالها وتألفها ، وذكرها من النعيم ما سلفها ، وأَقامها على محجة التعليم ووقفها ، وحذرها من فعل الزلل وخوفها ، وضمن لها أَنها إن جاهدت أسعفها ، وإن تركت أَغراضها أخلفها ، وما وعدها وعداً قط فأخلفها ، وأوضح لها عيوب العاجلة وكشفها ، ورغبها في لذات جنة وصفها ، فذكر لها منازلها وغرفها ، وأَنهارها وطرقها ، وحذرها جهنم وأَسفها ، وغيظها على العصاة ولهفها ، وأَعلمها أن لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت فلقد أَنصفها ، فعذلتها وقرعتها ، وأوعدتها وأَسمعتها ، فلم ترتدع عن هواها ، ولم تنزع عن ما آذاها ، ورأَت مصارع القرناء وما كفاها ، ولم تأنف من ذنوبها وذل المعاصي قد علاها ، و كأن الخطاب الذي أتى ممن سوّاها الى سواها ، فعلمت أَنها تحتاج حينئذ الى من يحاسبها ، وتفتقر الى من يطالبها ، ولا تستغني عن موبخ يعاتبها ، ولا بد من رائض إن ونت يعاقبها ، فالعجب لمن عرف نفسه كيف أَهملها ، والله لقد ضرها وقتلها .

عليك بما يفيدك في المعاد	وما تنجو به يوم التناد
فمالك ليس ينفع فيك وعظ	ولا زجر كأنك من جماد؟!
ستندم إن رحلت بغير زاد	وتشقى إذ يناديك المناد
فلا تفرح بمال تقتنيه	فإنك فيه معكوس المراد
وتب مما جنيت وأنت حيٌّ	وكن متنبهاً عن ذا الرقاد

يا كثير الذنوب متى تقضي ؟ يا مقيما وهو في المعنى يمضي ، أفنيت الزمان في الهوى

ضياعاً ، وساكنت غروراً من الهوى وأطاعا ، وصرت في طلب الدنيا خبيراً صناعاً ، تصبح جامعاً وتمسي مناعاً ، فتش على قلبك ولبك فقد ضاعا ، وتفكر في عمرك فقد مضى نهباً شعاعاً .

إخواني : الأيام سفن ومراحل ، وما يحس بسيرها الراحل ، حتى يبلغ البلد أو الساحل ، ما هذه الغفلة والفتور؟ أما المال إلى اللحود والقبور ، أما علمتم منتهى السرور؟! أما الأجداث المنازل إلى النشور .

أيها الشاب ضيعت الشباب في جهلك ، أيها الكهل ببعض فعلك تهلك ، أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك ، أيها المغتر بالأمل قد نقضت كفُّ الأجل مجدول حبلك ، أيها الغافل أما أنذرك من كان قبلك ، لقد نطقت العبر فأين سامعها ، واستنارت طريق الهدى فأين تابعها ؟ وتجلت الحقائق فأين مطالعها ؟ أما المنية قد دنت واقتربت ، فما بال النفوس قد غفلت ولعبت ، يا من إذا دعي لنفعه تولى وفر ، يا من على ما يضره قد استمر ، يامن أعلن المعاصي وأَسر ، أما تعتبر بمن رحل من القرناء ومر ؟ أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر ؟ أما الموت إذا أتى حمل وكرّ ، كأني بك إذا برق البصر تطلب المفر . الى متى تؤثر الفساد على السداد ؟ وتسرع في جواد الهوى إسراع الجواد . متى يتيقظ القلب ويصحوا الفؤاد ؟ كيف بك إذا حشرت وخسرت يوم المعاد .

يسرك أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

يا من أفعاله حتى الخطا خطا ، يا حاملاً على الأوزار الوزر أَتعبت المطا ، يا من إذا قدر ظلم ، وإذا خاصم سطا ، يا مسرعاً في الشر فإذا لاح الخير جاء البطا .

جزت الثلاثين خطا ... فاعدد مشيباً وخطا
وابك زماناً لم تزل ... لله فيه مسخطا
وامهد على آثاره ... مستدركاً ذا الغلطا
واعدد صواب العيش ما ... فارقه التقوى خطا

أيها الضال عن طريق الهدى ، أما تسمع صوت الحادي قد حدا ؟ من لك إذا ظهر الجزاء وبدا ؟ وربما كان فيه أن تشقى أبداً (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) القيامة:٣٦

يا من تكتب لحظاته ، وتجمع لفظاته ، وتعلم عزماته ، وتحسب عليه حركاته ، إن راح أو غدا (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ويحك الرقيب حاضر ، يرعى عليك اللسان والناظر ، وهو إلى جميع أفعالك ناظر ، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر ، وسينقضي هذا المدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) مالي أراك في الذنوب تعجل ؟! وإذا زجرت عنها لا تقبل ، ويحك انتبه لقبح ما تفعل ، إن الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) كأنك ببساط العمر قد انطوى ، وبعود الصحة بعد قد ذوى . وبسلك الإمهال قطع فهوى ، انتبه لنفسك فقد أشمت والله العدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) فبادر زمنك واحذر الفوت ، وأصخ للزواجر فقد رفعت الصوت ، وتنبه فطالما قد سهوت ، واعلم قطعاً ويقيناً أن الموت لا يقبل الفدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) انهض إلى التقى بقريحة ، وابك الذنوب بعين قريحة ، وأزعج للجد أعضاءك المستريحة ، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة ، لتندمن غدا (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) .

اللهم وفقنا لقول الحق واتباعه ، وخلصنا من وساوس قلوبنا الحاملة على التورط في هوة الباطل وابتداعه ، واجعل إيماننا إيماناً محمدياً ، أحمدياً ثابتاً راسخاً قوياً ، وكن لنا يداً مؤيداً ، ولا تجعل لفاجر علينا يداً ، واجعل عيشنا عيشاً رغدا ، ولا تشمت بنا عدواً ولا حاسدا . وارزقنا في محبتك علماً نافعاً . ورزقاً واسعاً ، وعملاً متقبلاً ، وحفظاً كاملاً ، وفهماً ذكياً ، وطبعاً صفياً ، وأدباً مرضياً ، وشفاء من كل داء ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس العشرون

في قصة سليمان عليه السلام

الحمد لله المتعالي عن الأنداد ، المتقدس عن الأضداد ، المتنزه عن الأولاد ، الباقي على الآباد ، رافع السبع الشداد ، عالية بغير عماد ، مزينة بكل كوكب منير وقاد ، وواضع الأرض للمهاد ، مثبتة بالراسيات الأطواد ، خالق المائع والجماد ، ومبدع المطلوب والمراد ، المطلع على سر العبد وضمير الفؤاد ، مقـــدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد ، والصلاح والفساد ، في بحار لطفه تجري مراكب العباد ، وعلى عتبة بابه مناخ العباد ، وفي ميدان حبه تجول خيل الزهاد ، وعنده مبتغى الطالبين وآمال القصاد ، وبعينه ما يتحملون من ثقل الاجتهـــاد ، رأى حتى دبيب النمل السود في السواد ، وعلم ما في سويداء السر وباطن الاعتقاد ، وجاد على السائلين فزادهم من الزاد ، وأعطى فلم يخف من العوز والنفاد ، وألف الأجساد وليس بمشبه للأجساد ، وخلق من كل شيء زوجين وتوحد بالانفراد ، ابتلى بالغفلة أهل اليقظة والاجتهاد ، لينكسروا بالزلل وانكسار العبد المراد ، بسط لسليمان النيل فوقع الميل إلى الخيل عن بعض الأوراد (إذ عرض عليـــه بالعشي الصافنات الجياد) .

أحمده حمداً يفوت الأعداد ، وأشهد أنه الواحد لا كالآحاد ، وأصلي على رسوله المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي بذل نفسه وماله وجاد ، وعلى الفاروق الذي بالغ في نصر الاسلام وأجاد ، وعلى عثمان الشهيد فيا فخره يوم تقوم الأشهاد ، وعلى علي الذي يفنى البحر ومالعلمه نفاد ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة إلى يوم التناد ، وسلم تسليماً .

قال الله تعالى (ووهبنا لداود وسليمان نعم العبد) ص : ٣٠ . هذا نهاية في المدح لسليمان من الفطنة مابان بها الصواب في حكمه ، دون حكم أبيه في قصة الحرث وغيره ، قال الله عزوجل (ففهمناهاسليمان) الأنبياء : ٧٩ . وحين مات داود ، ملك سليمان ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة ،فزاده الله تعالى على ملك داود ، وسخر له الجن والإنس والطير والوحش ،وكان عسكره مائه فرسخ ، خمسةوعشرون الانس ، وخمسةوعشرون للجن ،وخمسة وعشرون للوحش ، وخمسةوعشرون للطير ،وكان له ألف بيت من قوارير ، فيهاثلاثمئة امرأة ، وسبعمائة سرية ، ولا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه ، وكان إذا جلس ، جلس على البساط ، وأشراف الإنس مما يليه ، وأشراف الجن وراءهم ، ثم يدعو الطير فيظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم ، والطباخون في أعمالهم لايتغير عليهم عمل ، فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر ، وكان يطعم كل يوم مائة ألف ، فان اقلل ، أطعم ستين ألفاً ، وكان يذبح كل يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة ، ويطعم الناس النقي ، ويطعم أهله الخشكار ، ويأ كل هو الشعير .

قوله تعالى (إنه أواب) ص : ١٧ . أي : رجاع بالتوبة إلى الله عزوجل مما يقع من سهو وغفلة (إذ عرض عليه بالعشي) وهو ما بعد الزوال ، (الصافنات) ، وهي الخيل ، (الجياد) وهي السراع في الجري ، قال المفسرون : لم يزل تعرض عليه إلى أن غابت الشمس ، ففاتته العصر ، ولم يذكروه لانه كان مهيباً ، لايبتدئه أحد بشيء ، فلما غابت ، ذكر ، (فقال إني أحببت حب الخير) يعني الخيل (عن ذكر ربي) والمعنى : آثرت ذلك على ذكر ربي ، (حتى توارت) يعني : الشمس (بالحجاب ، ردوها علي) أي : أعيدوا الخيل (فطفق) أي : أقبل (مسحاً بالسوق) وهي جمع ساق ، أي ضربها بالسيف

قال ابن عباس : مسح أعناقها وسوقها بالسيف ، قال وهب : لما فعل ذلك ،شكراً فسخر الله تعالى له الريح مكانها .

قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان) أي : ابتليناه بسلب ملكه (وألقينا على كرسيه) أي : سريره (جسداً) وهو شيطان ، يقال له : صخر ، ولم يكن ممن سخر له (ثم أناب) أي : رجع عن ذنبه ، وقيل إلى ملكه .

وفي سبب ابتلائه ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه كانت له امرأة ، فكان بين بعض أهلها ، وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن لو كان الحق لأهلها، فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً . والثاني : أن هذه الزوجة كانت آثر نسائه عنده ، فقالت له يوماً : إن بين أخي وبين فلان خصومة ، وإني أحب أن تقضي له، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي لأجل ما قال ، والثالث : أن هذه الزوجة كان قد سباها فأسلمت ، وكانت تبكي الليل والنهار وتقول : أذكر أبي وما كنت فيه ، فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في داري أتسلى بها ، ففعل ، وكان إذا خرج ، تسجد لها هي وولائدها ، فلما علم سليمان، كسر تلك الصورة ، وعاقب المرأة وولائدها ، واستغفر ، فتسلط الشيطان عليه بذلك

وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان. أحدهما : أنه كان جالساً على شاطىء البحر فوقع منه ، والثاني : أن شيطاناً أخذه ثم ان الشيطان ألقى عليه شبه سليمان فجلس على كرسيه وتحكم في سلطانه إلا أنه كان لايقدر على نسائه ، وكان يحكم بما لايجوز فأنكره بنو اسرائيل ، فأحدقوا به ، ونشروا التوراة فقرؤوها فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر.

واما سليمان فإنه لما ذهب ملكه ،انطلق هارباً في الأرض ، و كان يستطعم ولا يطعم فيقول لو عرفتموني ، أعطيتموني ، أنا سليمان فيطردونه ، حتى أعطته امرأة حوتاً فشقه فوجد الخاتم في بطن الحوت بعد أربعين ليلة ، وقيل : بعد خمسين ليلة ، فلما لبسه ، رد الله عليه ملكه ، وبهاؤه ، وأظلته الطير ، فاقبل، لايستقبله إنسي ولاجني ، ولاطائر ولاحجر ولاشجر ، الا سجد له حتى انتهى إلى منزله ، ثم أرسل إلى الشيطان ، فجيء به، فجعله في صندوق من حديد ، وأقفل عليه ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فألقي في البحر وهو فيه إلى أن تقوم الساعة.

قوله (رب اغفرلي وهب لي ملكاً لاينبغي لاحد من بعدي .) ص : ٣١ - ٣٥ إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ، ويعرف منزلته بإجابة دعائه ، ولم يكن حينئذ في ملكه الريح ، وكانت الشياطين تغوص في البحر ،فتستخرج له الدر ، وتعمل له الصور والجفان ، وهي القصاع الكبار يجتمع على القصعة الواحدة ألف وجل يأكلون سنها ، ويأكل من كل قدر ألف رجل ، وكانت لاتنزل من مكانها ، فأملوا .

إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزلزل ، واختلفت أموره اذا دخل عليه الخلل فخطؤه أوجب خروجه من المملكة ، ولقمة آدم كادت توقعه في مهلكة فعليكم بالتقوى فإنها سبب السلامة ، فمن أخطأها اخطأته الكرامة

عمر ينقضي وذنب يزيد ورقيب يحصي علي شهيد
واقتراب من الحمام فأمي ل لطول البقاء غض جديد
أنا ساه وللمنية حتم وحياتي تنفس معدود
كم أخ قد رزئته فهو ان أضـ حى قريب المحل مني بعيد
خلسته المنون مني فمالي خلف منه في الورى موجود
هل لنفسي بموعظات الجديدين ازدجار عن منزل سيبيد

ألا متيقن لما بين يديه ، ألا متأهب للقادم عليه ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه ، ياواقفاً مع هواه واغراضه ، يامعرضاً عن ذكر عوارضه الى اغراضه ، ياغافلاً عن الموت وقد بت بمقراضه ، سيعرف خبر ، إذا اشتد أشد أمراضه ، وأورده حوضاً مريراً من أصعب حياضه ، ونزل به مايمنعه لذة اغتماضه وأخرج عن خضر الربا وروضه وغياضه ، وألقي في لحد وعر يخلو برضراضه ، كأنكم بالسماء قد انشقت (وأذنت لربها وحقت) وباقدام الصالحين قد ترقت ، وبأيمانهم الصحائف قد تلقت .

قال أحمد ابن أبي الحواري : قلت لزوجتي رابعة أصائمة أنت اليوم؟ قالت : ومثلي يفطر في الدنيا وكانت إذا طبخت قدراً ، تقول كلها ياسيدي ، فما نضجت إلا بالتسبيح ، وكانت تقول : ماسمعت الاذان إلا ذكرت منادي القيامة ولارأيت جراداً إلا ذكرت الحشر وربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون ، وربما رأيت الحور يستترن عني با كمامهن ، وكانت لها احوال شتى ، فمرة يغلب فتقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ولا لسواه في قلبي نصيب
حبيب غاب عن بصري وسمعي ولكن عن فؤادي لايغيب

وتارة يغلب عليها الأنس فتقول

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي   وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس   وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول

وزادي قليل ماأراه مبلغي   اللزاد أبكي ام لطول مسافتي
أتحرقني بالنار ياغاية المنى   فأين رجائي منك أين محبتي

ويح قلبك ماهذه القسوة ، أتغلبك وأنت رجل نسوة ،يامن بالهوى كلامه وحديثه يامن في المعاصي قديمه وحديثه ، من له إذا لم يجد في كربه من يغيثه ،ياقاسي القلب ، ابك على قسوتك ، ياذاهل الفهم بالهوى نح على غفلتك ، يادائم المعاصي ، خف غب معصيتك أما علمت أن النار قد أعدت لعقوبتك :

ومجلسنا مأتم للذنوب   فابكوا فقد حان منا البكا
ويوم القيامة ميعادنا   لكشف الستور وهتك الغطا

فصل

في قوله تعالى : (القارعة ماالقارعة) القارعة : هي القيامة ، سميت قارعة لانها تقرع بالاهوال ، وقوله (ماالقارعة) استفهام، معناه التفخيم لشأنها : (وماأدراك ماالقارعة) اي : لانك لم تعانيها ، ولم ترمافيهامن الاهوال (يوم يكون الناس كاالفراش المبثوث) قال الفراء : غوغاء الجرادوهو صغاره ، وقال ابن قتيبة : ماتهافت في النار من البعوض ، شبه الناس بذلك لانهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض ، والمبثوث : المنتشر المتفرق ، (وتكون الجبال كالعهن) أي كاالصوف ، شبهها به في ضعفها ولينها ، والمنفوش الذي قد ندف فإذا رأيت الجبل ، قلت هذا جبل وإذا مسسته ، لم ترشيئاً وذلك من شدة الهول (فأما من ثقلت موازينه) أي رجحت بالحسنات (فهو في عيشة راضية) أي ترضيه وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) فيه قولان. احدهما: امرأسه هاوية والمعنى ?أنه يهوي في النار على رأسه ، والثاني أن المعنى فمسكنه النار ، فالنار له كالأم ، لأنه يأوي إليها.

روي عن أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن المؤمن إذا مات تلقته البشرى من الملائكة ومن عباد الله ، كما يتلقى البشرى في دار الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض روحوه ساعة ،فقد خرج من كرب شديد فينفسونه ، ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون : مافعل فلان مافعلت فلانة ، هل تزوجت فلانة ، فإن سألوه عن إنسان قد مات ، قال : هيهات ماذلك قبلي فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به الى امه الهاوية ،فبئست الام وبئست المربية ،قال : وتعرض على الموتى اعمالكم ،فان رأوا خيراً استبشروا وقالوا : اللهم هذه نعمتك فأتمها على عبدك ،وإذا رأوا سيئة قالوا : اللهم راجع بعبدك ، فلا تحزنوا موتاكم بأعمال السوء ، فان أعمالكم تعرض عليهم» ألك عمل إذا وضع في الميزان زان ؟ عملك قشر لا لب ، وللب تثقل الكفة لا للقشر ، يامن أغصان إخلاصه ذاوية ، وصحيفته من الطاعات خاوية ، لكنها لكتاب الذنوب حاوية ، يامن همته أن يملأ الحاوية ، كم بينك وبين البطون الطاوية ، كما بين طائفة الهدى والغاوية ، اعلم أعضاءك أنها في التراب ثاوية ، لعلها تنفرد بالجد في زاوية قبل أن تعجز عن الموت القوة المقاوية ، وترى عنق الميزان لقلة الخير ولاية ، (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) ، ذكر الحساب أطار عن اعين المتقين النعاس ، ولتثقيل الميزان فرغت الأكياس .

قالت مولاة أبي أمامة : كان أبو أمامة لايرد سائلاً ولو تمرة ، فأتاه سائل ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير ، فأعطاه ديناراً ، ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً ، ثم اتاه سائل فأعطاه ديناراً ، قالت : فغضبت وقلت لم تترك لنا شيئاً فوضع رأسه للقائلة ، فلما نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثم راح الى مسجده ، قالت : فرققت عليه وكان صائماً ، فاقترضت ماجعلته له عشاء ، وأسرجت له سراجاً ،وجئت إلى فراشه لامهده له فاذا بذهب فعددته فاذا ثلاثمائة دينار ، فقلت : ماصنع الذي صنع إلا وقد وثق بما عنده ، فأقبل بعد العشاء ، فلما رأى المائدة والسراج تبسم ، وقال : هذا خير من غيره ، فقمت على رأسه حتى تعشى ، وقلت : رحمك الله خلفت هذه النفقة في سبيل مضيعة ولم تخبرني ، فأرفعها ،

قال : وأي نفقة ؟ ما خلفت شيئاً ، قالت : فرفعت الفراش فلما رآه فرح واشتد تعجبه قالت فقطعت زناري ، وأسلمت وكانت تعلم الناس القرآن والفرائض والسنن .

انظروا ثمرة المعاملات ، هذا نقد فكيف الوعد ، ماخسر معنا معامل ولا قاطعنا من نواصل .

قوله تعالى (وما أدراك ماهية) ، يعني : الهاوية ، (نار حامية) ، أي : حارة قد انتهى حرها .

كان الأحنف بن قيس رحمه الله يقدم اصبعه إلى المصباح ، فاذا وجد حرارة النار ، قال لنفسه : ماحملك على ماصنعت يوم كذا ؟

وقال بعض السلف ، دخلت على عابد وقد أوقد ناراً بين يديه ، وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار ، فمازال يبكي حتى خر ميتاً .

ودخل ابن وهب الحمام ، فسمع قارئاً يقرأ (وإذ يتحاجون في النار) . غافر :٤٧ فسقط مغشياً عليه فحمل .

وجاءت امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب ، وقصدت أن تفتنه ، فقالت : هذا المطر ولا مأوى لي ، ففتح لها ، فاضطجعت ، وجعلت تريه محاسنها ، فدعته نفسه إليها ، فقال لنفسه : لاحتى أنظر صبرك على النار ، فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فعاودته نفسه ، فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه فاحترقت ، ثم عاد إلى صلاته فعاوده إبليس ، فلم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس ، فلما رأت المرأة ذلك صعقت فماتت .

وكان عطاء السلمي رحمه الله إذا عوتب في كثرة البكاء يقول: اني إذا ذكرت أهل النار مثلت نفسي فيهم ، فكيف لنفس تغل وتسحب الا تبكي ؟!

وبكى هشام الدستوائي حتى فسدت عينه .

وكان الفضيل قد ألف البكاء ، فربما بكى في نومه ، فيسمعه أهل الدار . رحم

الله أعظماً نصبت في الطاعة وانتصبت ، جن عليها الليل فلما تمكن وثبت وتبت ، كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت ، وكلما صورت ذنوبها ناحت عليها وندبت .

بكى الباكون للرحمن ليلا ... وباتوا دمعهم لا يسأمونا
بقاع الأرض من شوق إليهم ... تحن متى عليها يسجدونا

يامن أركان إخلاصه واهية ؟ أمالك من عقلك ناهية ؟ الى متى نفسك ناهية؟ معجبة بالدنيا زاهية ، مفاخرة للأقران مضاهية ؛ النار بين يديك وتكفي داهية (وما أدراك ماهيه ، نار حامية) . تقوم من قبرك ضعيف الجأش ، قد جال قلبك في بدنك وجاش ، ووابل الدمع يسبق الرشاش ، أتدري ما يلاقي العطاش الظامئة (نار حامية). أين من عتى وتجبر ؟ أين من علا وتكبر ؟ أين من للدول بالظلم دبّر ؟ ماذا أعد للحفرة الهاوية ؟ (نار حامية). لو رأيت العاصي وقد شقي ، يصيح في الموقف واقلقي ، اشتد عطشه وما سقي ، وشرر النار اليه يرتقي ، فمن يتقي تلك الرامية ؟(وما أدراك ما هيه ، نار حامية) . لو رأيته يقاسي حرها ، ويعاني جحيمها وقعرها ، والله لا يدفع اليوم شرها ، إلا عين هامية (وما أدراك ماهيه ، نار حامية). يفر الولد من أبيه ، والأخ من أخيه ، وكل قريب من ذويه ، أسمعت يا من معاصيه نامية (وما أدراك ماهيه ، نار حامية) . لهذا كان المتقون يقلقون ، ويخافون ويتقون ، وكم قد جرت من عيونهم ، عيون ، كانت جفونهم دائمة دامية ، من خوفهم من (نار حامية).

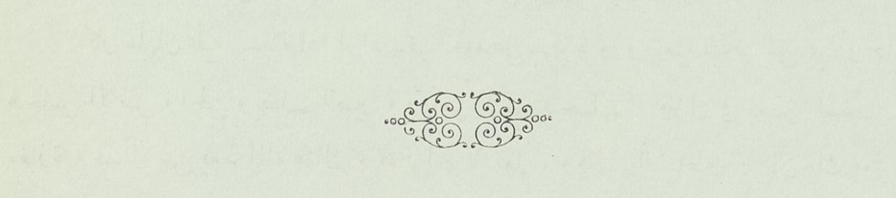
اللهم نجنا برحمتك من النار ، وعافنا من دار الخزي والبوار ، وأدخلنا بفضلك الجنة دار القرار ، وعاملنا بكرمك ومغفرتك يا كريم يا غفار .

اللهم إنا نسألك برحمتك التي ابتدأت بها الطائعين ، حتى قاموا بطاعتهم ، أن تمن بها على العاصين بعد معصيتهم ، فإنك المحسن بادئاً وعائداً .

اللهم إنك ما أمرتنا بالاستغفار إلا وأنت تريد المغفرة ، ولولا كرمك ما ألهمتنا المعذرة ، أنت المبتدىء بالنوال قبل السؤال ، والمعطي من المن والإفضال ، فوق

الأراجي والآمال ، ونحن لا نرجو إلا غفرانك ، ولا نطلب إلا إحسانك ، ندعوك بلسان أملنا ، لما كل لسان عملنا ، إن أطعناك رجونا إحسانك ، وإن عصيناك رجعنا اليك طالبين غفرانك .

اللهم أنت المحسن ونحن المسيؤون ، ومن شأن المحسن تمام إحسانه ، ومن شأن المسيء الاعتراف بعدوانه ، يا من أمهل وستر ، حتى كأنه قد غفر ، عُد على فقرنا بغناك ، ولا تكلنا إلى أحد سواك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الحادي والعشرون

في قصة بلقيس

الحمد لله الذي لقدرته يخضع من يعبد ، ولعظمته يخشع من يركع ويسجد ، ولطيب مناجاته يسهر العابد ولا يرقد ، ولطلب ثوابه يقوم المصلي ويقعد ، يجل كلامه عن أن يقال مخلوق ويبعد ، جدد التسليم لصفاته مستقيم ، فمن شبه أو عطل لم يرشد ، ما جاء في القرآن قبلنا أو في السنة لم نردد ، أليس هذا اعتقادكم يا أهل الخير ؟ وكيف لا أتفقد العقائد خوفاً من الضير ؟ فإن سليمان تفقد الطير (فقال مالي لا أرى الهدهد) .

أحمده حمد من يرشد بالوقوف على بابه ولا يشرد ، وأصلي على رسوله محمد الذي قيل لحاسده فليمدد ، صلى الله عليه وعلى الصديق الذي في قلوب محبه فرحات ، وفي صدور مبغضه قرحات تنفد ، وعلى عمر الذي لم يزل يقوي الإسلام ويعضد ، وعلى عثمان الذي ينسف زرع الكفر بسيفه ويحصد ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة لقائلها تعضد ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد)

كان سليمان عليه السلام إذا أراد سفراً قعد على سريره ؛ ووضعت الكراسي يميناً وشمالاً ، فيجلس الإنس والجن ويظلهم الطير ، ويأمر الريح فتحملهم ، فنزل في بعض أسفاره مفازة ، فسأل عن بعد الماء هناك ؛ فقالوا : لا نعلم . وقالت الشياطين : إن يك من يعلم فالهدهد . فقال : علي بالهدهد فلم يوجد . فقال : مالي لا أرى الهدهد ، والمعنى : ماللهدهد لا أراه ؟ (أم كان) أي : بل كان من الغائبين (لأعذبنه عذاباً شديداً) .

قال ابن عباس : ينتف ريشه ، وقال الضحَّاك : يشد رجليه ويشمسه (أو لأذبحنه أو ليأتيَنّي بسلطان مبين) . أي : حجة ، وكان الهدهد حين نزل سليمان قد ارتفع في السماء يتأمل الأرض ، فرأى بستاناً لبلقيس ، فمال إلى الخضرة فإذا هو بهدهد لها ، فقال :

من أين أقبلت ؟ قال : من الشام مع صاحبي سليمان ، فمن أين أنت ؟ قال : من هـذه البلاد وملكها بلقيس ، فانطلق معه فرأى بلقيس وملكها ، وبلقيس : لقب ، واسمها : بلقمة بنت ذي سرح ، قيل : بنت الشيصبان ، ملك سبأ ، فلما احتضر استخلفها لما علم من رأيها وتدبيرها فملكت ، وكانت ساكنة في أرض سبأ ، وهي مأرب ، وكانت تحت يدها الملوك ، فلما رآها الهدهد جاء قال له سليمان : ما الذي غيبك عني ؟ (قال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ) . وسبأ : هي القبيلة التي من أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، وهو اسم رجل (إني وجدت امرأة تملكهم) . يعني : بلقيس (وأُوتيت من كل شيء) . يعطاه الملوك (ولها عرش عظيم) . وهو السرير وكان من ذهب قوائمه من جوهر مكلل .

قوله تعالى : (قال سننظر أصدقت) . إنما شك سليمان في خبر الهدهد ، لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطاناً ، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى الهدهد ؛ وقال : (إذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تولّ عنهم) . أي : استتر (فانظر ماذا يرجعون) . أي : يردون من الجواب ، فحمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة ، والناس ينظرون ، فرفعت رأسها ، فألقى الكتاب في حجرها ، فلما رأت الخاتم ، أُرعدت وخضعت وقالت : (إني أُلقي إلي كتاب كريم) . لأنه كان مختوماً ، ثم استشارت قومها ، فقالت : (يا أيها الملأ) . يعني : الأشراف ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً مع كل رجل عشرة آلاف ، وقيل : كان معها مائة ألف قيل ، مع كل قيل مائة ألف (أفتوني في أمري) . أي : بينوا لي ما أفعل وأشيروا علي (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) . أي : تحضرون ، وأقطع بمشورتكم (قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) . المعنى : نقدر على القتال ، والأمر اليك في القتال وتركه (فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية) . أي : عنوة (أفسدوها) . أي : خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) فصدقها الله عز وجل فقال (وكذلك يفعلون وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) وذلك أنها أرادت أن تعلم هل هو نبي فلا يريد

الدنيا ، أو ملك فيرضى ؟ فبعثت ثلاث لبنات من ذهب ، في كل لبنة مائة رطل وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة ، وألبسهم لباساً واحداً فلا يعرف الذكر من الأنثى ، ثم كتبت اليه قد بعثت كذا و كذا فأدخل في الياقوتة خيطاً ، واختم على طرفيه بخاتمك وميز بين الجواري والغلمان ، فأخبره أمير الشياطين بما بعثت قبل القدوم ، فقال : انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال لبناً من ذهب ، فبعث الشياطين ، فقطعوا اللبن من الجبال ، وطلوه بالذهب ، وفرشوه ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر ، فلما جاء الرسل ، قال بعضهم لبعض : كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات ، وعنده ما رأيتم ؟! فقالوا : إنما نحن رسل ، فلما دخلوا عليه قال : (أتمدونن بمال ، فما آتاني الله خير مما آتاكم). ثم دعا ذرة فربط فيها خيطاً ، وأدخلها في ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر ، ثم جمع طرفي الخيط ، فختم عليه ، ثم ميز بين الغلمان والجواري ، بأن أمرهم بالوضوء ، فبدأ الغلمان بغسل ظواهر السواعد قبل بطونها ، والجواري على عكس ذلك ، هذا قول قتادة .

وقال سعيد بن جبير : بدأ الغلام من مرفقيه إلى كفيه ، وبدأت الجارية من كفها الى مرفقها ، ثم قال للرسول : (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) . فلما عادت الرسل ، وأخبرت بلقيس ، بعثت اليه أني قادمة عليك لأنظر ما تدعو اليه ، ثم أمرت بعرشها فجعل وراء سبعة أبواب ، ووكلت به حرساً يحفظونه ، وشخصت الى سليمان في اثني عشر ألف ملك ، تحت يد كل ملك ألوف ، فجلس يوماً على سرير ملكه فرأى رهجاً ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت بهذا المكان ، فقال (أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت) . وهو القوي الشديد (من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) . أي : مجلسك ، فقال : أريد أسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) وهو آصف بن برخيا (أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) وكان يعرف الاسم الأعظم ، وكان يقوم على رأس سليمان بالسيف ، فدعا .

قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والإكرام ، فبعث الله الملائكة ، فحملوا السرير

تحت الأرض يخدون به الأرض خدّاً ، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان فقال : نكّروا لها عرشها) فغيروه وزادوا فيه ونقصوا (فلما جاءت قيل لها : أهكذا عرشك؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها) أي : قالت : قد أوتيت العلم بصحة نبوّة سليمان بأمر الهدهد والرسل التي بعثت من قبل هذه الآية (وكنا مسلمين) . فأمر سليمان الشياطين ، فبنوا لها صرحاً ، وهو القصر على الماء من زجاج ، وكانت الشياطين قد وقعت فيها عنده . وقالت : رجلها كرجل الحمار فأراد أن يرى ذلك فقال لها : (ادخلي الصرح ، فحسبته لجّة) وهو معظم الماء (وكشفت عن ساقيها) لدخول الماء فقال سليمان (إنه صرح ممرّد) أي : مملّس من قوارير ، أي : زجاج . فعلمت أن ملك سليمان من من الله تعالى . فقالت : (رب إني ظلمت نفسي) أي : بما سبق من الكفر (وأسلمتُ مع سليمان لله رب العالمين) النمل : ٢٠-٤٤ . ثم تزوجها سليمان ، وردها الى ملكها ، فكان يزورها في كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام ، وبقي ملكها الى أن توفي سليمان فزال ملكها بموته .

وضح البيان وأنت في غور الهوى ... متشاغل ببطالة وتصابي
ترتاح في حلل الشباب منعّماً ... أأخذت ميثاقاً من الأوصاب؟
كم ناضر قد راق حسناً ناظراً ... أبلاه بالآفات شر مصاب
لم يغن عنه جلاله وجماله ... ومقام ملك في أعز تصابي
وافاه من حدث المنون معابل ... صعب شديد الوهن غير محابي
وحواه لحد ضيّق متهدمٌ ... يعلوه كرب جنادل وتراب
فأفق لنفسك فالنجاء مساعد ... واطع نصيحك ساعياً لصواب
وارجع الى مولاك حقاً تائباً ... من قبل أن تعيى برد جواب

ألا متيقظ لما بين يديه ، ألا متأهب للقادم عليه ، ألا عامر للقبر قبل الوصول اليه ، إن العبَر قد وضحت ، وان النُّذر قد نصحت ، وان المواعظ قد أفصحت ، ولكن النفوس من سكرها ماصحت . أين الهم المجتمع؟ تفرق فما تنتفع ، يدعوك الهوى فتتبع

ويحدثك المنى فتستمع ، كم زجرك ناصحك فلم تطع؟ وصل الصالحون يامنقطع ، شروا بما يفنى مايبقى وأنت لم تشر ولم تبع ، أين تعبهم نُسخ بالروح ولم يضع؟ تلمّح العواقب فلتلمُّحها العقل وضع ، كأنه ماشبع من جاع ولاجاع من شبع . أين الهمم المجدّة؟ أين النفوس المستعدة؟ أين المتأهب قبل الشدة؟ أين المتيقظ قبل انقضاء المدة؟ عاتب نفسك على قبح الشيم ، وحذرها من مثمرات الحزن والندم ، وامنعها تخليطها فقد طال السقم ، وذكّرها لحاقها من سبقها من الأمم ، ونادها في الخلوات إلى كم؟ مع السيآت وكم .

تسمع فإن الموت ينذر بالصوت ... وبادر بساعات البقا ساعة الفوت
وإن كنت لاتدري متى أنت ميت ... فإنك تدري أنّ لابد من موت

فصل

في قوله تعالى (لا أُقسم بيوم القيامة) قال المفسرون: «لا» زائدة والمعنى : أقسم وقال بعضهم : لارد على منكري البعث كما تقول : لا والله ماذاك كما تقول ، قوله (ولا أُقسم بالنفس اللوامة) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها التي تلوم نفسها حين لاينفعها اللوم . والثاني : أنها نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على تقصيره ، فعلى هذا تكون ممدوحة . والثالث : جميع النفوس .

قال الفراء : ليس من نفس برّة ولافاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً وقالت : هلا زدت ؛ أو شراً قالت : ليتني لم أفعل ، وجواب القسم محذوف تقديره لتبعثنّ يدل عليه .

قوله تعالى (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) والمراد به الكافر (بلى قادرين على أن نُسوي بنانه) والبنان أطراف الأصابع . وفي المعنى قولان .

أحدهما : أن نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً ، كخف البعير وحافر الحمار ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : نقدر على تسوية بنانه كما كانت ، وإن صغرت عظاماً ، ومن قدر على جمع صغار العظام كان على جمع كبارها أقدر .

قوله (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) أي : يكذب بما أمامه من البعث والحساب (يسأل أيان يوم القيامة) أي : متى هو تكذيباً به (فإذا بَرق البصر) وذلك يوم القيامة يشخص بصر الكافر فلايطرف ، لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في الدنيا ، قاله الأكثرون ، وقيل عند الموت (وخسَف القمر) أي: ذهب ضوؤه (وجُمع الشمس والقمر) قال عطاء بن يسار : يجمعان ثم يُقذفان في البحر وقيل في النار (يقول الإنسان) يعني : المكذب بيوم القيامة (يومئذ أين المفر) أي: الفرار (كلا لا وَزَر) أي: لا ملجأ (الى ربك يومئذ المستقر) أي : المنتهى والرجوع (ينبَّؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر) القيامة : ٢-١٤ . فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : بما قدّم قبل موته ، وما سن من سيء يعمل به بعد موته . والثاني : بأول عمله وآخره . والثالث : بما قدم من الشر وأخّر من الخير .

واأسفاً من الصحيفة إن نشرَها ، واحزناً على الذنوب إن أظهرها ، واحسرتا على خطايا ماغفرها ، من لمن حاد عن الطريق وقد أبصرها ، من لمن شاهد نجاته وكأنه لم يرها ، تالله لقد أذى العاصي نفسه وعثّرها ، كم سمع موعظة من مُذكِّر قد قررها ، ثم أعرض عنها بعد أن فهمها وتدبرها ، ويحك الى كم تضيع زمنك؟ والى متى إيثار فتنك ؟ أما آن التنبه من وسنك ؟ يالاهياً أتنسى وقت حزنك؟ يابائعاً نفسه أرضيت الفاني بثمنك؟ أين فهمك الثاقب في فطنك ؟ كم بين سركّ وعلنك ؟ أين زاد رحيلك! وعدة كفنك؟ كيف السبيل الى صلاحك وتلافيك؟ وكلما ذكره الغائب وتلي فيك . أما يزعجك تخويف (وتلك القرى أهلكناهم) . أما ينذرك إعلام (وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى) أما يقصم عرى عزمك (وكم قصمنا من قرية) أما يقصر من قصورك (وبئر معطلة وقصر مشيد) . أما يكفي مثلك مثل (ولقد خلت من قبلهم المثلات) . أما رأيت شمال العقوبة كيف فرقت شملهم ، لقد مرت تهتف بالعصاة (فكلًا أخذنا بذنبه) .

ألا تسلو فتقصر عن هواكا　　فقدو مشيب رأسك حان ذاكا
أكُل الدهر أنت كما أراكا　　تُراك الى الممات كذا تراكا؟
أراك تزيد حذقاً بالمعاصي　　وتغفل عن نصائح من دعاكا

يامدمن الذنوب مذ كان غلاماً ، على من عولت قل لي علام؟ أيأمن ماأتى من أتى حراما ، آه لجفن علم ماسيلقى كيف يلقى مناما . أين أرباب الأسماء والندامى ؟ كل القوم في قبورهم نـــدامى ، قل لي من اتخذت في أمورك إماما؟ أماجرى على العصاة مايكفي أماما! إلى كم نضيع حديثاً طويلاً وكلاما؟ ما أرى ذاك إلا داءً عقاما .

فذكر النفس هولاً أنت راكبه　　وكربة سوف تلقى بعدها كُربا
إذا أتيت المعاصي فاخش غايتها　　من يزرع الشوك لايحصد به عنَبا

الى متى أعمال كلها قباح ؟ أين الجد الى كم مزاح ؟ كثر الفساد فأين الصلاح ؟ ستفارق الأجساد الأرواح ، إما في غدو وإما في رواح ، سينقضي هذا المساء والصباح ، وسيخلو البلى بالوجوه الصباح ، أفي هذا يشك والأمر صراح ؟ أين سكران الراح راح؟ عليه نطاق من التراب ووشاح ، فمن لمحتج مرعوب ومقاتل بلا سلاح ، مشغول عن من مدح أو ذم أو بكى أو ناح .

أنس الناس بالغير　　وتعاموا عن العبر
قل للاهٍ بيومه　　في غد تعرف الخبر
يا ضجيع البلى على　　فرش الصخر والمدر
قد تزودت مأثماً　　وإلى ربك السفر

يامن يرفل في ثياب الغفلة ويتبختر ، متناسياً للممات ويتجبر ، وقبائحه تكتب وهو لا يحس ولا يتأثر ، بين يديك يوم قريب ما يتأخر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) يا متعرضاً للذنب والعقاب ، يا غافلاً عن يوم السؤال والجواب ، يا مبارزاً بالمعاصي رب الأرباب ، من أعظم جرأة منك على العذاب ؟ قل لي ومن أصبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) . نسيت معادك وأطلت أملك ، وأعرضت إلى الهوى عن أمر من ملك ،

أعظم ذلك وأكبر (ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) لقد أناخ التقصير والتمادي ببابك، وقل أن يعبق بريح الثواب شيء من أثوابك ، والشيطان يجري منـك مجرى الدم من آرابك ، فهو متمكن منـك إذا قمت في محرابك ، من حين قولك: الله اكبر: (ينبؤ ، الإنسان يومئذ بمـا قدم وأخر) تقوم إلى صلاتك وأنت متكاسل ، وتدخل في العبـادة والقلب غافل ، وتستعجل في الصلاة لأجل العاجل ، وإذا نظرنا بعد الفراغ إلى الحاصل ، فالجسد أقبل والقلب أدبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بماقدم وأخر) يامن ذل المعاصي يعلوه ، يا مظلم القلب متى تجلوه؟ هذا القرآن يتلى عليك وتتلوه ولكن ماتتدبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) يامغتراً بالزخارف والتمويه ، يامعجباً بما يجمعه من الدنيا ويحويه ، هلك والله ذو عجب أو كبر أوتيه ، ونجي والله أشعث أغبر، (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أنت في دار انزعاج فاحذر منها ، لاتركن إليها ولا تأمنها ، إنما أسكنتها لتخرج عنها ، فتأهب للنقلة فما يستوطن معبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أين من كان يتنعم في قصورها ؟ قد فسح لنفسه في بوانيها وقصورها ، خدعته والله بغرورها ، بعد أن ساس الرعايا ودبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) خلا بعمله في ظلام لحده ، ولم ينفعه غير اجتهاده وجده، ولو قضي برجوعه إلى الدنيـا ورده ، لحدثنا بهذا وأخبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) فتنبه ياهذا من رقداتك، وكن وصي نفسك مادمت في حياتك، فلقد بالغت الزواجر في عظـاتك ، كم تسمع موعظـة وتجلس تحت منبر (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر .

اللهم انفعنا بما علمتنا ، ووفقنا للعمل بما فهمتنا ، وزدنا علماً وعلمنا ماينفعنا .

اللهم عودتنا كرم نوالك ، وأطمعتنا بكثرة إفضالك ، في جميل إقبالك، كم سألناك فأعطيتنا فوق منانا ، وكم رجوناك فحققت فيك حسن رجانا .

اللهم إن كنا مقصرين في حفظ حقك ، والوفاء بعهدك فأنت تعلم صدقنا في رجاء رفدك ، وخالص ودك .

اللهم أنت أعلم بنا منا ، فبكمال جودك تجاوز عنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا ارحم الراحمين . آمين .

المجلس الثاني والعشرون

في قصة سبأ

الحمد لله المتفرد بالعز والجلال ، المتفضل بالعطاء والافضال ، مسخر السحاب الثقال ، يربي الزروع تربية الأطفال ، جل عن مثل ومثال ، تعالى عن حكم الفكر والخيال ، قديم لم يزل ولا يزال ، يتفضل بالانعام فان شكر زاد ، وإن لم يشكر زال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال) .

أحمده على كل حال ، وأصلي على رسوله محمد أشرف من نطق وقال ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر باذل النفس والمال ، وعلى عمر العادل فما جار ولا مال ، وعلى عثمان الثابت للشهادة ثبوت الجبال ، وعلى علي بحر العلوم وأسد الأبطال ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة بلا زوال ، وسلم تسليماً .

قال الله عزوجل (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) سبأ : هي القبيلة التي من أولاد سبأ ، وكانت بلقيس لما ملكت قومها رأتهم يقتتلون على ماء واديهم ، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها ، وتركت ملكها ، وانتقلت إلى قصرها فنزلته ، فلما كثر الشر بينهم أتوها فسألوها أن ترجع إلى ملكها فأبت ، وقالت : إنكم لا تطيعوني ، فقالوا : إنا نطيعك فجاءت إلى واديهم ، وكانوا إذا مطروا أتاه السيل من مسيرة أيام ، فأمرت ، فسد ما بين الجنتين بمسناة ، وحبست الماء من وراء السد ، وجعلت أبواباً بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة ، وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدد أنهارهم فكان الماء يخرج منها بالسوية إلى أن أسلمت مع سليمان ، وكانت لهم جنتان عن يمين واديهم وشماله ، فأخصبت أرضهم ، وكثرت فواكههم ، وكانت المرأة تمر بين الجنتين ،والمكتل على رأسها فترجع وقد امتلأ من الثمر ، ولا تمس بيدها شيئاً منه ، ولم يكن يرى في بلدهم

حية ولا عقرب ولا بعوضة ، ولا ذبابة ولا برغوث ، فبعث الله اليهم ثلاثة عشر نبياً ، وقيل لهم : (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) فأعرضوا عن الحق وكذبوا الأنبياء ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أن العرم الشديد ، والثاني : أنه اسم الوادي ، والثالث : أنها المسناة ، والرابع : أن العرم الجرذ الذي نقب عليهم السكر .

قال قتادة والضحاك : بعث الله تعالى عليهم جرذاً يسمى الخلد ، والخلد : الفأر الأعمى ، فنقبه من أسفله فأغرق الله به جناتهم وخرب به أرضهم .

قوله تعالى : (وبدلناهم بجنتيهم) يعني اللتين كانت تطعم الفواكه . (جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) الاكل : الثمرة والخمط : الآراك ، وقيل : كل شجرة ذات شوك ، وقيل : كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله ، والأثل : الطرفاء ، والسدر : شجرة النبق (ذلك جزيناهم بما كفروا) ، أي ذلك التبديل جزيناهم بكفرهم (وهل نجازي إلا الكفوز) .

قال الفراء : المؤمن يُجزى ولا يجازى . (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) : هي قرى الشام ، (قرى ظاهرة) أي متواصلة ينظر بعضها الى بعض (وقدرنا فيها السير) فيه قولان . أحدها : أنهم كانوا يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية . والثاني : أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً . (سيروا فيها) المعنى وقلنا لهم : سيروا فيها ، (ليالي وأياماً) أي : ليلا ونهاراً ، (آمنين) من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سبع أو تعب ، فبطروا النعمة وملوها كما مل بنو اسرائيل المن والسلوى (فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا) .

روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما ، بطروا عيشهم ، وقالوا لو كانت جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه ، (وظلموا أنفسهم) بالكفر وتكذيب الرسل (فجعلناهم احاديث) لمن بعدهم يتحدثون بما فعل بهم (ومزقناهم كل ممزق) سبأ : ١٦ - ٢٠ . أي : فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق لأن الله تعالى لما أغرق مكانهم وأذهب

جنتهم تبددوا في البلاد فصارت العرب تتمثل في الفرقة بقوم سبأ فيقولون: تفرقوا ايدي سبأ. وقد حذرت هذه القصة من الخلاف وبينت عقاب تاركي الشكر.

تعلقت بآمال طوال اي آمال وأقبلت على الدنيا
ملحاً أي إقبال فيا هـذا تجهز ا فراق الاهل والمال

متى يمرض هذا المرض المراض ؟ متى تستدرك هذه الأيام الطوال العراض ؟ وقد أنذر الرحيل هـذا البياض ، كم يقبل عليك الهدى وأنت في إعراض ، ياغافلا عن سهام الموت الحداد المواض ، ياعرض المنون كم تبقي على الرمي الأغراض ، تالله لقد آن لجمع الحياة الشتات والانقضاض ، وحان لبنيان السلامة الخراب والانتقاض ، ودنا من مبسوط الأمل الاجتماع والانقباض ، وحق للمقرض أن يطالب المقرض بالاقراض ، أما الاعمال فكل يوم في انقراض ، أما ترى الراحلين ماضياً خلف ماض ، انهض بجدك فالعاقل ناهض قبل الإنهاض ، إن الموت إليك كما كان الى أبويك في ارتكاض ، إن لم تقدر على مشاريع الصالحين فرد باقي الحياض ، يامن باع نفسه بلذة ساعة بيعاً عن تراض ، ياعلة لا كالعلل ويامرضاً لا كالامراض ، إنما تجزى بقدر عملك عند أعدل قاض ، ذنوبك ظاهرة لاتحتاج الى تفتيش حية لسانك في المناهي من الحيات المناهيش ، كيف تلحق الصالحين وهل يطير طائر بلا ريش تغتاب الفقراء وتعيب الأصدقاء مع من تعيش ؟ لا عملك لمولاك خالص ، ولاتقاك لهواك قانص ، كم اشخص الردى من طرف شاخص ، كأنك قد جاءك الغافص ، ورأيت هولا ترعد منه الفرائص ، وبكى لمصرعك الصديق والولي المخالص

فكم صحيح بات للموت آمناً أتته المنايا بغتة بعد ما هجع
فلم يستطع إذجاءه الموت فجأة فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح يبكيه النساء مقنعاً ولم يسمع الداعي ولو صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيله وفارق ماقد كان بالامس قدجمع

العاقل من راقب العواقب ، والجاهل من مضى قدماً ولم يراقب ، أين لذة الهوى زالت ، وكأنها لم تكن إذ حالت ، أين الذين بروا أقلام المنى وقطوا؟ وكتبوا اصكاك الآمال

وخطوا ،وتفردوا بما اجمعوا فخزنوا ولم يعطوا ، علوا على اعالي الهوى ماأسرع ماانحطوا وسارت بهم مطايا الرحيل تجري بهم وتمطوا ، ياحريصاً على الدنيامضى عمرك في لاشيء إنقشع غيم الزمان لاعن هلال الهدى ، مالذت لذة الدنيا إلا لكافر لايؤمن بالآخرة أولقليل العقل لاينظر في عاقبة ، الدنيا خراب وأخرب منها قلب من يعمرها ، أما يكفيك ماقد مضى ، إلى كم هذا الكرى ؟ كم قد قتل قبلكم المنى ، وإنما يفهم أولوالنهى ، ياأسير رقاده ، يامريض فساده ، يامعرضاً عن رشاده ، يامن حب الدنيافي سواء سواده ، ماينفعه النصيح على كثرة ترداده ، سواء عليه ناداه أم لم يناده ، تالله لقد غمزتك الحوادث بسلب القرناء غمزاً ، ولزك المتقاضي بالاجل لو فهمت لزا ، أما في كل يوم بمحبوب تعزى ، أما ترى الأسنة تعمل طعناً ووخزاً ، ماتشاهد مهندات المنون تهز هزاً ، أين من أوعد ووعد ؟ (هل تحس منهم من أحد أوتسمع لهم ركزا) ? مريم : ٩٨ .

حصرك الشيب فاقض ماأنت قاض — ببدار من قبل حين البياض
ان شرخ الشباب قرض الليالي — فابصروا فيه قبل يوم التقاضي

فصل

في قوله تعالى (رفيع الدرجات) قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني : رافع السموات ، (ذو العرش) أي : خالقه ومالكه ، زين السماء بالنجوم تزين النقش ، وجمع الثريا وفرق بنات نعش ، ومد الأرض لتمهيد الفرش ، وجمل الآدمي على الفرش والنعش ، بينا هو يلهو جاءه أمر زاد على الحرش ، وضج لمرضه وما يصبر على الخدش ، ثم يقيمه القيامة بالبعثرة والنبش ، سبحانه من عظيم شديد البطش ، رفيع الدرجات ذو العرش .

قوله تعالى (يلقي الروح) وهو الوحي من أمره ، أي بأمره ، (على من يشاء من عباده) وهم الأنبياء ، (لينذر يوم التلاق) فيه يلتقي أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرون ، والخالق والمخلوقون والمظلومون والظالمون ، يوم تذل فيه الأعناق ، لهيبة الخلاق ويحشر أهل الشقاق ، والرياء والنفاق ، وتشهد الصحف والأوراق بالأعمال

والأخلاق ، وتسيل دموع الآماق ، من الأحداق ، وتبرز الجحيم ، فيها الحميم والغساق ، معد للفجار والفساق ، لفحتهم وأحالت جمالهم ، و (مالهم من الله من واق) واطلعت على الأفئدة وبواطن الأعماق ، حرها شديد ، تزيد باطباق الأطباق ، وا أسفاً كم يجدون ، و كم كم إحراق ، هذا وأهل الجنة قد نالوا الرضى بالوفاق ، فازوا فحازوا مراتب السباق ، وهم في ضياء نور كامل وإشراق ، ونعيم لايحاط بوصفه ، و كؤوس مملوءة فياحسن الدهاق ، كانوا يشتاقون المحبوب . وهو إليهم بالاشواق ، وقدأعلمنا بما يجري على الفريقين يوم الافتراق ، (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) .

قوله تعالى : (يوم هم بارزون) أي : ظاهرون من قبورهم ، (لايخفى على الله منهم شيء) أي : لايخفى عليه من أعمالهم شيء ، والمراد التهديد بالجزاء ، وإن كان لايخفى عليه اليوم شيء ، (لمن الملك اليوم) ؟ يقول الله عز وجل هذا بعد فناء الخلق فيرد هو على نفسه فيقول : (لله الواحد القهار) إذا خلت الديار ، وذهب الليل والنهار ، والإنس والجن والأطيار ، ونضبت البحار والأنهار ، وبست الجبال فصارت كالغبار ، وقال الملك العظيم الجبار : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) قامت الأقدام حتى تعبت ؛ ونصبت ، وكلما سعت تعثرت ، في الطريق و كبت ، وسقطت الجبال لطالما انتصبت ، وظهرت المخبآت التي كانت قد احتجبت ، والحوض غزير الماء و كم نفس ماشربت ، وجيء بالنيران فزفرت ، وغضبت ونهضت مسرعة الى أربابها ووثبت ، فانزعجت القلوب ورهبت وهربت ، و كيف لاتنزعج وهي تدري أنها قد طلبت ؟ وموازين الأعمال على العدل قد نصبت ، ونادى المنادي فبكت العيون وانتحبت ، (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) .

قوله تعالى : (لاظلم اليوم) ميزان العدل تبين فيه الذرة فاحذروا الظلم فانه ظلمات يوم القيامة ، واذكروا قوله تعالى : (إن الله سريع الحساب) (وأنذرهم يوم الآزفة) يعني : القيامة ،وسميت آزفة لقربها ، (إذ القلوب لدى الحناجر) وذلك أنها ترتقي الى الحناجر فلا تخرج ولا تعود ، (كاظمين) أي : مغمومين ممتلئين خوفاً وحزناً (ماللظالمين

مِنْ حَميم) أي : قريب ينفعهم (ولاشفيع يطاع) فيهم فتقبل شفاعته . لو رأيت الظلمة قد ذلوا بعد الارتفاع ، وصاروا تحت الأقدام وقد كانوا على يفاع ، وبكوا ولا ينفعهم على وفاق الطباع ، وكيل لهم الجزاء عدلاً بأوفر صاع ، وعلموا أن الأعمار مرت بالغرور والخداع ، وأن ما كانوا فيه كان بئس المتاع ، مرضوا بالحسرات والحسرات أشد الأوجاع ، وندم من مد الباع منهم فاشترى مايفنى وباع ، لاينظر إليهم في القيامة كانهم رديء المتاع ، ظهر ذلهم بين الخلائق كلهم وشاع ، ورأوا من الأهوال ما أزعجهم وراع ، حشر الخلائق كلهم يومئذ في قاع ، وطارت الصحف والرقاع في تلك البقاع ، ونفعت الشفاعة للمؤمنين وما للفجار انتفاع (ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)

قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين) وذلك أن الرجل يكون في القوم ، فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره ، فاذا رأى منهم غفلة لحظ إليها ، فان خاف أن يفطنوا له غض بصره (وما تخفي الصدور) غافر : ١٥ - ٢٠ . أي : ما تضمره القلوب من الفعل لو قدرت على ما نظرت إليه .

يامن عليه منازل الموت يدور ، وهو مستأنس بالمنازل والدور ، لا بد أن تخرج من القصور ، لابد من الرحيل إلى بلاد القبور ، أهلكك والله الغرور ، بفنون الخدع والغرور ، يامظلم القلب وما للقلب نور ، الباطن خراب والظاهر معمور ، لو تذكرت القبر المحفور ، كانت عين العين منك تفور ، لو تفكرت في الكتاب المسطور ، دفنت الاستغفار بين السطور ، ولو تصورت النفخ في الصور ، والسماء تتغير وتمور ، والنجوم تتكدر وتغور ، والصراط ممدود ولابد من عبور ، وأنت متحير في الأمور ، تبكي على خلاف المأمور ، ستحاسب على الأيام والشهور ، وترى مافعلته من فجور ، في النهار والديجور ، ستحزن بعد السرور ، على تلك الشرور ، إذا وفيت الأجور ، وبان المواصل من المهجور ، ونجى المخلصون دون أهل الزور ، تصلي ولكن بلا حضور ، وتصوم والصوم بالغيبة مغمور ، لو أردت الولدان والحور ، لسألتهم وقت السحور ، كم نتلطف بك يانفور ، كم ننعم عليك ياكفور ، كم بارزت بالقبيح والكريم غفور (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) .

اللهم عاملنا بغفرانك وامنن علينا بفضلك وإحسانك ، واجعلنا مع الذين انعمت عليهم في دار رضوانك ، يامن ظهرت معرفته للقلوب ، فلا يخفى وجوده ، وعم جميع الخلق كرمه وجوده ، ياأول فلا بداية لأزليته ، يا آخر فلا نهاية لأبديته ، يا ظاهر بما أبدع من إفضاله ، يا باطن فالعقول عاجزة عن وصف كماله ، ياقدوس فلا شبيه له ، يا واحد فلا شريك له ، خلقتنا مسلمين فسلمنا من عذابك ، وجعلتنا مؤمنين فآمنا من عقابك ، أعطيتنا الإيمان قبل السؤال ، وهو أفضل ما أعطيته من النوال ، والكريم لايرجع في هبته ، والغني لايعود في عطيته .

اللهم اجعل الإيمان هادماً للسيآت ، كما جعلت الكفر هادماً للحسنات .

اللهم ارحم عباداً غرهم طول إمهالك ، وأطمعهم دوام إفضالك ، ومدوا أيديهم الى كرم نوالك ، وتيقنوا أن لاغنى لهم عن سؤالك .

اللهم ارحم غربتنا في القبور ، وآمنا يوم البعث والنشور ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .



المجلس الثالث والعشرون

في قصة يونس عليه السلام

الحمد لله الواحد الماجد العظيم ، الدائم العالم القديم ، السميع البصير الحليم ، القوي العلي الغني الحكيم ، قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم ، وقدر فأعان الضعيف وأوهى القويم ، وقسم عباده على قسمين طائع وأثيم ، وجعل مالهم إلى دارين ؛ دار النعيم ودار الجحيم ، فمنهم من عصمه عن الخطايا ، ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم ،ومنهم من تردد بين الامرين والعمل بالخواتيم ، خرج موسى راعياً فعاد وهوا لكليم ، وذهب ذو النون مغاضباً فالتقمه الحوت وهو مليم ، وكان محمد يتيماً فصار الكون لذلك اليتيم ، وعصى آدم وإبليس فهذا مرحوم وهذا رجيم ، أنعم علينا بالفضل الوافر العميم ؛ وهدانا بمنه إلى الصراط القويم ، وحذرنا بلطفه من العذاب الأليم ، ومن علينا بالكتاب العزيز القديم ، فهو مستحق ومستوجب للتعظيم .

أحمده وكيف لايحمد ، وأشهد أنه لم يلد ولم يولد ، وأن محمداً عبده الأمجد ورسوله الاوحد ، أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبعد ،وأقام عيسى يقول (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) الصف : ٦ وبه توسل آدم وقد أسجدله من اسجد من كل ملك كريم ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الرفيق حين يسافر وحين يقيم ، وعلى عمر الفاروق الذي عمر من الدين ماعمر بأحسن تدبير وأكمل تقويم ، وعلى عثمان الشريف قدره الجميل صبره على ماضيم ، وعلى علي مقدم الشجعان في حربهم والمؤمنون به من كربهم في مقعد مقيم ، وعلى سائر آله وأصحابه ماسلك الطريق المستقيم ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (وإن يونس لمن المرسلين) الصافات : ١٣٩ يونس : هو من أولاد يعقوب وكان عابداً من عباد بني اسرائيل فرأى ما هم فيه من الكفر فخاف أن تنزل بهم عقوبة فخرج هارباً بنفسه وذريته حتى كانوا بنينوى من ارض الموصل فبعثه الله رسولا اليهم فدعاهم إلى الله وأمرهم بترك عبادة الاصنام ، فلما لم يقبلوا أخبرهم أن العذاب مصبحهم بعد ثلاث ، فأقبل العذاب .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل ، ووجدوا حره على اكتافهم . قيل : غامت السماء غيماً أسود يظهر دخاناً شديداً ، فغشي مدينتهم واسودت سطوحهم ، فلما ايقنوا بالهلاك لبسوا المسوح ، وحثوا على رؤوسهم الرماد ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والانعام ، وعجوا إلى الله بالتوبة الصادقة ، وقالوا آمنا بما جاء به يونس ، فكشف الله عنهم العذاب ، فقيل ليونس : ارجع اليهم فقال : ارجع فيجدوني كاذباً ، وكان من يكذب فيهم يقتل ، فركب السفينة فلما ركبها وقفت ، فقال ما السفينتكم ؟ قالوا: لا ندري قال : لكني أدري ، فيها عبد أبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه ، قالوا : أما أنت يا نبي الله فوالله لا نلقيك ، قال : فاقترعوا فقرع يونس ، وذلك معنى قوله (إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين) فألقى نفسه في الماء (فالتقمه الحوت وهو مليم) أي : مذنب (فلولا أنه كان من المسبحين) أي من المصلين قبل التقام الحوت وقيل بل في بطن الحوت (للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات ١٤٠ - ١٤٥ وفي قدر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال . احدهما : أربعون يوماً ، والثاني : سبعة أيام ، والثالث : ثلاثة أيام ، والرابع : عشرون يوماً ، والخامس : بعض يوم .

قال الشعبي : ما مكث إلا أقل من يوم ، التقمه ضحى فلما كان بعد العصر وقاربت الشمس الغروب تثاءب الحوت ، فرأى يونس ضوء الشمس فقال : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) الأنبياء : ٨٧

قوله تعالى : (فنبذناه بالعراء) . وهي الارض التي لا يتوارى فيها بشجر ولا غيره ، وهو سقيم ، أي : مريض .

قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش (وأنبتنا عليه شجرة

من يقطين) الصافات : ١٤٥-١٤٦ وهو الدباء ، وإنما انبتت غايه دون غيرها ليغطيه ورقها ، ويمنع الذباب ، فإنه لايسقط على ورقها ذبابة ، وقيض له أروبة من الوحوش تروح عليه بكرة وعشياً ، فيشرب من لبنها .

قال وهب بن منبه : أنبت الله تعالى عليه الدباء فأظلته ، ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ وقد يبست ، فحزن عليها فقيل له : أنت لم تخلقها ولم تسقها ولم تنبتها تحزن عليها ، وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق عليك .

فانظروا إلى التوبة الصادقة كيف أثرت ، قاومت العذاب فدفعت فنفعت ،فليلجأ اللاجىء الى حرم الإنابة ، وليطرق بالاستجابة باب الإجابة ، فما صدق صادق فرد ، ولا أتى الباب مخلص فصد ، إنما الشأن في صدق التوبة وليست التوبة نطق اللسان ، إنما هي ندم القلب وعزمه أن لا يعود ، ومن شرط صحتها أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة ، فمن باشره العذاب أو عاين الموت ، فقد فاته موسم القبول .

يأتي على الناس إصباح وإمساء　　وكلنا لصروف الدهر نساء
تثوي الملوك ومصر في تغيرهم　　مصر على العهد والأحساء أحساء
أين الملوك وأبناء الملوك ومن　　كانت لهم عزة في الملك قعساء ؟
نالوا يسيراً من اللذات وارتحلوا　　برغمهم فإذا النعماء بأساء

إخواني : حاسبوا أنفسكم قبل الحساب ، وأعدوا للسؤال صحيح الجواب ، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام ، واغسلوا من الإجرام هذه الأجرام ، قبل ندم النفوس في حين سياقها ، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها ، قبل ذوق كأس مرة في مذاقها ، قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها ، قبل أن تجذب النفوس إلى القبور بأطواقها ، وتفترش في اللحود أخلاق أخلاقها ، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها ، وتشتد شدائد الحسرة حاسرة عن ساقها . وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندلاقها ، وتتقلب القلوب في ضنك ضيق خناقها ، وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها .

قال الحسن : تعرض على ابن آدم يوم القيامة ساعات عمره فكل ساعة لم يحدث فيها خيراً تتقطع نفسه عليها حسرات .

وكان يونس بن عبيدجالساً مع أصحابه يحدثهم فنظر في وجوههم وقال : لقدذهب من أجلي وأجلكم ساعة .

وكتب الأوزاعي إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب واعلم أنك يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والمقام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به والسلام . تأهب لحوض ستردده ، يا خاسراً رأس المال وما تفتقده ، يا مغروراً بالأمل بئس ما تعتقده ، يا طالباً طول البقاء ما تجده .

دهر يشيع سبته أحده ... متتابع ما ينقضي أمده

نبكي على زمن ومن زمن ... فبكاؤنا موصولة مدده

ونرى مكارهنا مخلدة ... والعمر يذهب فانياً عدده

من أقرض الأيام أتلفها ... وقضى جميع قروضها جسده

حتى يغيب في مطمطمة ... لا أهله فيها ولا ولده

الدنيا دار كدر ، بذلك جرى القدر ، فإن صفا عيش لحظة ندر ، الورود فيها كالصدر ، ودم قتيلها هدر ، بلاؤها متتابع متواصل ، وسيفها إذا ضرب سيف فاصل ، وخيرها مظنون وشرها حاصل ، أين أرباب البيض والسمر ، والمراكب الصفر والحمر ، ما زالوا يفعلون أفعال الغمر ، إلى أن تقضى جميع العمر ، تا الله لقد حال حلوهم إلى المر ، وصار ما كان ينفع يضر ، باعوا بخشلب الهوى ثمن الدر ، ولا يمكن أن يقال : إن البائع غر .

المشيدات التي رفعت ... أربع من أهلها درس

قام للأيام في أذني ... واعظ من شانه الخرس

مهجتي ضد تحاربني ... أنا مني كيف أحترس

إنما دنياك عائبة ... لم يهنا زوجها العرس

فالقها بالزهـد مدرعاً في يديك السيف والترس
ليس يبقى فرع نابتة أصلها في الموت مغترس

فصـل

في قوله تعالى : (أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧ .اعلم أن الآدمي ابن وقته ، لأن ما مضى لا لذة له ، فالأيام مراحل ، وسيصل الراحل .

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بي بؤس قـط ولا رأيت شدة قط » . رواه مسلم .

حبس بعض السلاطين رجلاً زمناً طويلاً ثم أخرجه فقال : كيف وجدت محبسك؟ قال : ما مضى من نعيمك يوم إلا ومضى من بؤسي يوم حتى يجمعنا يوم .

وروي أن داود عليه السلام أتى راهباً في قلة جبل ،فصاح به يا راهب من أنيسك؟ فقال : اصعد تره ، فصعد داود ، فإذا بميت مسجى قال : من هذا ؟ قال : قصته مكتوبة عند رأسه ، فدنا داود ، فقرأ الكتاب فإذا فيه : أنا فلان ابن فلان ملك الأمـلاك ، عشت ألف عام وبنيت ألف مدينة ، وهزمت ألف عسكر ، وأحصنت ألف امرأة ، وافتضضت ألف عذراء ، فبينا أنا في ملـكي ، أتاني ملك الموت فأخرجني ممـا أنا فيه ، فها أنا ذا التراب فراشي ، والدود جيراني ، قال : فخر داود مغشياً عليه .

وعن جرير بن عبد الله قال : افتتحنا بفارس مدينة فدلنا على مغارة ذكر لنا أن

فيها أموالاً ، فدخلناها ومعنا من يقرأ بالفارسية ، فأصبنا في تلك المغـــارة من السلاح والأموال شيئاً كثيراً ، ثم صرنا الى بيت يشبه الأزج ، عليه صخرة عظيمة ، فقلبناهـا فإذا في الأزج سرير ذهب ، وعليه رجل عليه حلل قـــد تمزقت ، وعند رأسه لوح فيه كتاب ، فقرأ علينا فإذا هو : أيها العبد المملوك لا تتجبر على خالقك ، ولا تعد قدرك ، واعلم أن الموت غايتك وإن طال عمرك ، وأنك الى مدة معلومة تترك ثم تؤخذ بغتة أحب ما كانت الدنيا اليك ، فقدم لنفسك خيراً تجده محضراً ، وتزود من متـــاع الغرور ليوم فاقتك .

أيها العبد المغرور اعتبر بي ، فإن فيّ معتبراً أنا بهرام بن بهرام ملك فارس ، كنت من أعتاهم بطشاً ، وأقساهم قلباً ، وأطولهم أملاً ، وأرغبهم في اللذة ، وأحرصهم على جمع الدنيا ، فدوخت البلاد النائية ، وقتلت الملوك الساطية ، وهزمت الجيوش العظـــام ، وعشت خمسمائة عام ، وجمعت من الدنيا ما لم يجمعه أحـد قبلي ، ولم أستطع أن أفتدي نفسي من الموت إذ نزل بي .

وقال محمد بن سيرين : أخذت معاوية قرّة ، فاتخذ لُحفاً خفافاً ، فكانت تلقى عليه فلا يلبث أن يتأذى ، فاذا أُخذت عنه سأل أن ترد عليه فقال : قبحـــك الله من دار ، مكثت فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ، ثم صرت الى ما أرى .

وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته : والله لوددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها وأني لم أل من هذا الأمر شيئاً .

حصلوا بأنواع من الأجداث ... من كل ما عمروا على الاحداث

فإذا الذي جمعوه طول حياتهم ... نُهب العدى وقسمة الورّاث

حالت منازلهم على طول المدى ... ووجوههم في الأرض بعد ثلاث

يامن تستّر بيته وأثاثـــه ... لك في الثرى بيت بغير أثاث

إخواني : تدبروا أموركم تدبر ناظر ، أين السلطان الكبير القاهر ؟ كم جمع في مملكته من عساكر ؟ وكم بنى من حصون ودساكر ؟ وكم تمتع بحُلل وأساور ؟ وكم علا على المنابر ؟

ثم آخر الامر المقابر ، العاقل من ينظر فيما سيأتي ، ويقهر بعزمه شر الهوى العاتي ، وإذا قالت النفس : حظي ، قال : حظي حياتي .

عجبت لما تتوق النفس جهلًا ... اليه وقد تصرّم الانبتات
وعصياني العذول وقد دعاني ... الى رشدي ومافيه نجاتي
اؤمّل أن أعيش وكل يوم ... بسمعي رنة من معولاتي
وأيدي الحافرين تكل مما ... تسوي من مساكن موحشات
نُراع إذا الجنائز قابلتنا ... ونسكن حين تخفى ذاهبات
كروعة ثلّةٍ لظهور ذئب ... فلما غاب عادت راتعات
فإن أمّلت أن تبقى فسائل ... بما أفنى القرون الخاليات؟
فكم من ذي مصانع قدبناها ... وشيدها قليل الخوف عاتي
قليل الهم ذي بال رخيّ ... أصم عن النصائح والعظات
فبات وما يُروّع من زوال ... صحيحاً ثم أصبح ذا شكات
فباكره الطبيب فريع لمّا ... رآه لايحير إلى الدّعاة
فلو أن المفرّط وهو حي ... توخّى الباقيات الصالحات
لفاز بغبطة واصاب حظاً ... ولم يغش الامور الموبقات
فيالك عندها عظة لحيّ ... ويالك من قلوب قاسيات
وكل أخي ثراءٍ سوف يمسي ... عديماً والجميع الى شتات
كأن لم يلف شيئاً ما تقضى ... وليس بفائت ما سوف يأتي

كأنك بك قد مل الناعت ، وحل بمحلتك المستلب الباغت ، وردك من محل ناطق الى محل صامت ، وبقيت متحيرا كالاسير الباهت ، وإنما هي نفَس يخرج ونفس خافت ، ومضى مامضى فمن يرد الفائت ، وصرت الى حالة يرثي لها الشامت ، ياعجباً كيف يفرح هالك فائت؟ عباد الله النظر النظر الى العواقب ، فإن اللبيب لها يراقب ، أين تعب من صام الهواجر؟ وأين لذة العاصي الفاجر؟ رحلت اللذات من الافواه الى الصحائف ، وذهب

نصب الصالحين بجزع الخائف ، فكأن لم يتعب من صابر الـلذات ، وكأن لم يلتذ من نال الشهوات .

كل حي لاقى الحمام فمودي ما لحيّ مؤمل من خلود
لاتهاب المنون شيئاً ولا تبقي على والد ولا مولود
وأرانا كالزرع يحصده الدهر فمن بين قائم وبين حصيد
أيها الجاهل الذي أمن الدهر وفي الدهر غابرات الجدود
أين عاد وتُبَّع وأبوسا سان كسرى وأين صحب ثمود؟
أين رب الحصن الحصين بسور قد بناه وشاده بالمشيد؟
شد أركانه وصاغ له العقيان باباً وحفه بالجنود
وترى حوله زرافات خيل حاقلات تعدو بمثل الاسود
فرمى شخصه فأقصده الدهر بسهم من المنايا شديد
ثم لم ينجه من الموت حصن دونه خندق وباب حديد
وملوك من قبله عمروا الدنيا أُعينوا بالنصر والتأييد
بينما ذاك مرت الطير تجري لهم بالنحوس لا بالسعود
ما وقاهم ما حاولوا عنت الدهر وما أكدوا من التأكيد

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون ؟ ويتجبرون على الخلق ولا يُغلبون ، مزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرعون (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون) مدوا أيديهم الى الحرام وأكثروا من الزلل والآثام ، وكم وُعظوا بمنثور ومنظوم من الكلام ، لو أنهم يسمعون ، (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) . أين أموالهم والذخائر؟ أين أصحابهم والعشائر؟ دارت على القوم الدوائر ، ففيم أنتم تطمعون؟ (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) شغلوا عن الاهل والاولاد ، وافتقروا الى يسير من الزاد ، وباتوا من الندم على أخشن مهاد ، وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) لو رأيتهم في حلل الندامة ، إذا برزوا يوم القيامة ، وعليهم للنفاق علامة ، يساقون بالذل لا بالكرامة ، الى النار فهم يوزعون (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) . يامعشر العاصين قد بقي القليل ، والأيام

تنادي وقد دنا الرحيل ،وقد صاح بهم الى الهدى دليل ،إن كنتم تسمعون (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) .

اللهم ياحبيب التائبين ، وياسرور العابدين ، ياقرة أعين العارفين ، ويا أُنس المنفردين ويامن حنّت اليه قلوب الصادقين ، اجعلنا من أوليائك المتقين ، وحزبك المفلحين .

اللهم إنك قبلت أُلوفاً ، من السحرة حين ذكروك مرة وسجدوا لك ، وإنا لم نزل مقرين بربوبيتك ، معترفين بوحدانيتـــك ، ماسجدنا قط إلا بين يديك ، ولا رفعنا حوائجنا إلا اليك .

اللهم جد علينا بكرمك ، وأفض علينا من نعمك ، وتغمـــدنا برحمتك ، وعاملنا برأفتك ، ووفقنا لخدمتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميـع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الرابع والعشرون

في قصة يحيى وزكريا عليهما السلام

الحمد لله الذي لم يزل عظيماً علياً ، يخذل عدواً وينصر ولياً ، أنشأ الآدمي خلقاً سويا ، ثم قسمهم رشيداً وغويّاً ، رفع السماء سقفاً مبنياً ، وسطح المهاد بساطاً مدحياً ورزق الخلائق برياً وبحرياً ، كم أعطى ضعيفاً مالم يعط قوياً ، فبلغه على الضعف ضعف الزاد ، ووهب له على الكبر الاولاد (كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا) .

أحمده اذ أفضل فأعطى شبعاً وريّاً ، وأصلي على رسوله محمد أفضل من امتطى شريّاً ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي أنفق وماقلل حتى تخلل ويكفي زيّاً ، وعلى عمر الذي كان مقداماً في الجد جريّاً ، وعلى عثمان الذي لم يزل عفيفاً حييا ، وعلى علي أشجع من حمل خطيّاً ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة دائمة مستمرة بكرة وعشيا ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل (كهيعص) للعلماء في تفسيرها قولان أحدهما : أنه من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، والثاني : حروف من أسماء الله عز وجل . فالكاف من الكافي ، والهاء من الهادي ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق .

قولى تعالى (وكانت امرأتي عاقراً) والعاقر من الرجال والنساء : الذي لا يأتيه الولد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان سنه يومئذ مائة وعشرين سنة ، وامرأته بنت ثمان وتسعين سنة (فهب لي من لدنك ولياً) أي : من عندك ، ولداً صالحاً يتولاني (يرثني ويرث من آل يعقوب) المراد ميراث النبوة من الكل (واجعله رب رضيا) أي:

مرضيا (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيي لم نجعل له من قبل سميا) قال ابن عباس : لم يسم يحيى قبله ، فشرف بأن سماه الله تعالى يحيى ولم يكل تسميته إلى أبويه (قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً) وإنما قال هذا ليعلم أيأتيه الولد على هذه الحالة أم يرد هو وزوجته إلى حالة الشباب؟ (وقد بلغت من الكبر عتيا) وهو نحول العظم ويبسه ، قال (كذلك) أي : كذلك الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكبر ،(قال ربك هو علي هين) أي : خلق يحيى على سهل (وقد خلقتك) أي : أوجدتك من قبل ولم تك شيئاً (قال رب اجعل لي آية) أي : علامة على وجود الحمل ، وأراد أن يستعجل السرور ويبادر بالشكر ، (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً) والمعنى : تمنع الكلام ، وأنت سوي من غير خرس (فخرج على قومه) وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته (من المحراب) أي : مصلاه (فأوحى إليهم أن سبحوا) أي : صلوا ، وفيه قولان . أحدهما : كتب إليهم في كتاب ، والثاني أومأ برأسه ويديه .

قوله عزوجل (يايحيى) المعنى : وهبنا له يحيى وقلنا له (يا يحيى خذ الكتاب)وهو التوراة، (بقوة) أي: بجد واجتهاد في العمل بما فيها (وآتيناه الحكم) وهو الفهم(صبياً) وفي سنه يومئذ قولان . أحدهما : سبع سنين،والثاني: ثلاث سنين (وحناناً) أي : وآتيناه حناناً ، أي رحمة (من لدنا وزكاة) أي : عملاً صالحاً (وكان تقياً) فلم يفعل ذنباً (وبراً بوالديه) أي : وجعلناه براً بوالديه، (ولم يكن جباراً عصياً ، وسلام عليه) أي: سلامة له (يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) .

قال سفيان بن عيينة : أوحش مايكون ابن آدم في ثلاثة مواطن ، يوم ولد فيخرج إلى دارهم ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيراناً لم ير مثلهم ، ويوم يبعث فيشهد مشهداً لم يشاهد مثله قط ، فسلمه الله في هذه المواطن .

قال علماء السير : لما حملت مريم اتهمت اليهود زكريا ، وقالوا : هذا منه ، فطلبوه ليقتلوه ، فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة ، فتجوفت له فدخل فيها فجاؤوا يطوفون بالشجرة ، فرأوا هدبة ثوبه ، فقطعوا الشجرة حتى خلصوا إليه فقتلوه . ونبيء يحيى صغيراً

في زمن أبيه ، وكان كثير البكاء ، يدعوا الناس إلى الله تعالى ، وكان طعامه الجراد ، وقلوب الشجر .

روي عن وهيب بن الورد قال : كان يحيى بن زكرياه خطان في خديه من البكاء ، فقال له أبوه زكريا : إني إنما سألت الله تعالى ولداً تقربه عيني ، فقال : ياأبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لايقطعها إلا كل بكاء .

واختلفوا في سبب قتل يحيى ، فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث عيسى يحيى بن زكريا عليهم السلام في جماعة من الحواريين يعلمون الناس ، فكان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ ، وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه ، فأراد أن يتزوجها ، وكان لها في كل يوم حاجة مقضية ،فبلغ ذلك أمها ، فقالت : إذا سألك الملك عن حاجتك ، فقولي له : أن تذبح يحيى ، فقالت له ، فقال : سلي غير هذا قالت : ما أسأل غيره ،فدعا بيحيى فذبحه ، فندرت قطرة من دمه على الأرض ، فلم تزل تغلي حتى بعث الله بختنصر ، فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً منهم حتى سكن .

وقال الربيع بن أنس : كانت للملك بنت شابة ، وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيقضيها لها ، وإن امها رأت يحيى ، وكان جميلاً ، فأرادته على نفسها فأبى ، فقالت لابنتها : إذا أتيت أباك فقولي : حاجتي رأس يحيى ، فجاءت فسألت ذلك ، فردها ،فرجعت ، فقال : سلي حاجتك ، فقالت : رأس يحيى ، فقال : لك ذلك . فأخبرت أمها فبعثت إلى يحيى إن لم تأت حاجتي قتلتك ، فأبى فذبحته ، ثم ندمت ، وجعلت تقول : ويل لها ويل لها حتى ماتت . فهي أول من يدخل جهنم .

سبيل الخلق كلهم الفناء ... فما أحد يدوم له بقاء
يقربنا الصباح إلى المنايا ... ويدنينا إليهن المساء
فلاتركب هواك وكن معداً ... فليس مقدراً لك ماتشاء
أتأمن أن تعيش وأي غصن ... على الأيام طال له النماء؟
تراه أخضر العيدان غضاً ... فيصبح وهو مسود غثاء

وجدنا هذه الدنيا غروراً　　متى ماتعط يرتجع العطاء
فلا تركن إليها مطمئناً　　فليس بدائم منها الصفاء

إخواني ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب ، كل طلابها قتلت فبئس المطلوب ، أين الذي اشترى سلع الشك بسلع اليقين ؟ يامستور الحال غداً يبين ، إذا حشرجت في الصدر وزاد الأنين ، وبرزت كماة الموت من الكمين ، وصرت بعد التجبر أذل مسكين ، وذبحت وشيكاً بغير سكين ، ونقلت إلى لحد أنت فيه رهين . انظر لنفسك أيها المتقاعد ، قم في خلاصك أيها القاعد ، تدبر عملك قبل عرضه على الناقد ، تأهب فكم بين يديك شدائد ، لاينفعك فيها ولد ولا والد .

حتى متى لاتراه معتذراً　　من زلة منك لاتجانبها
يعقبها مثلها وتعقبك الحسـ　　ـرة من مثلها عواقبها
لتوكك الذنب لاتفارقه　　أيسر من توبة تطالبها

عباد الله على نية النقض وضع البنيان ، وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان ، وإنما الدنيا معبر إلى دار الحيوان ، وليست للاقامة فالعجب لاغترار الانسان ، أين العقل والنظر ؟ إلام الجهل والبطر ؟ كم منزل دثر ، كما ساع عثر ، وأنت في الأثر ، إلام هذا الأشر ، وقد علمت مآل البشر ؟ أين العقول والفكر ؟ البلايا مثل المطر ، وإنك لعلى خطر ، كم حضرت لدى محتضر ، ودمع المآقي قد انهمر ، لقلة الزاد وطول السفر ، ويحك إلى متى تختار الضرر ؟ لقد بعت الدر بالبعر ، إن العاقل ليختار الأجود ، وإن الحازم لايرضى أن يستعبد . يامن كلما جمعناه تبدد ، يامن كلما زجرناه مداليد ، يامن إذا عدنا له بعزنا أنجد ، كيف يختار الضلال من يعرف الطريق الأرشد؟ كيف يؤثر النزول من يقال له : اصعد ؟ لو سمعت الحجارة وعظنا لانفطر الجلمد ، كم نصبنا لك شركاً وإلى الآن لم تصطد ، أين الهرب بمخباتك وعيني تراك ؟ تراك تستحيي من غيري ومني لاتراك ؟ من الذي سترك على القبيح فيما مضى ؟ من الذي تلطف بك في دين دينه إذا اقتضى ؟

ياهذا إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب ، وإن رأيت شراباً يلذ غير حكمنا

فاشرب ، لو أعلمت أباك مانعلم منك أباك ، ولو أريت أخاك ما أريتنا جفاك ،نعمناعليك قديمة ، كم نبعث ديمة لطف بعد ديمة ، أتراك تحن الى ودنا ؟ أو تراعي عهد عهدنا ؟

لـــك نفس يسرها　　كل شيء يضرهـا
هي تفنى على الزمان　　ويزادد شرهـــا

فصـــل

في قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً) البعث : إخراج أهل القبور أحياء عند النفخة الثانية في الصور ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماءماء ، فتنبت به الأجساد في القبور ، فتعود كما كانت ، ثم ينفخ إسرافيل في الصور ، فتشقق القبور ،فيقومون جميعاً إلى موقف العرض والحساب (فينبئهم بما عملوا) من المعاصي ، وتضييع الفرائض (أحصاه الله) أي : حفظه (ونسوه) المجادلة : ٦ .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا اغفرها لك اليوم » أخرجاه في « الصحيحين » .

إخواني مامن الموت بد ، باب الدنيا في البقاء سد ، كم خد في الأخدود خد ، يامن ذنوبه لاتحصى إن شككت عد ، يامن أتى باب الإنابة كاذباً فرد . ياشدة الوجل ، عند حضور الأجل ، ياقلة الحيل ، إذا حل الموت ونزل ، ياقوة الأسى . إذا نوقش من أسا ، ياحسرة المفرطين ، يا أسف المقصرين ، ياسوء مصير الظالمين ، كيف يصنع من بضائعه القبائح ؟ كيف يفعل من شهوده الجوارح ؟ عدموا والله الوسيلة ، وأظلمت في وجوههم وجوه الحيلة ، أصبحوا جثياً على ركبهم ، مأسورين بما في كتبهم ، لايدرون مايراد بهم ، قد جمعوا في صعيد ، ينتظرون حلول الوعيد ، والأرض بالخلق كلهم تميد ، والعبرات على العثرات تزيد ، (إن بطش ربك لشديد) البروج : ١٢٠ . زفرت والله الحطمة ، في وجوه الظلمة ، فذلوا بعد العظمة ، واخرسوا عن كلمة .

إخواني أيامكم قصيرة ، وقد ضاعت على بصيرة، وآخر الأمر حفيرة ، فيهاأهوال كثيرة ، يامشاهداً حاله بحال الخيرة، ألك عدة أم عندك ذخيرة،هذا الملك يحصى عملك حرفاً حرفاً ، يامن جمرات حرصه على الهوى ماتطفى ، يامن قد اشفى به مرض مانراه يشفى ؛ إلام هذا التعليل ؟ كم نقومك وتميل ، متى يبرأ هذا التعلل ؟ يامقابلاً جميلنا بغير الجميل ، أيها المعرض عنا تذكر عرضك ، أيها الراقد في غفلته اهجر غمضك ، ويحك استصغر أملاً يمنعه الفوت ، استقصر أجلا يقطعه الموت :

فربمـــا غوفص ذو غفلة　　　اصح ما كان ولم يسقم

ياواضـــع الميت في قبره　　　خاطبك القبر فـلم تفهم ؟

قال عتبة الغلام: رأيت الحسن عندالموت قـــد قهقه ومارأيته قط تبسم فقلت ياأبا سعيد من أي شيء تضحك ؟ فما كلمني لثقل حاله فلما مات ، رأيتـه في النوم ، فقلت : يامعلم الخير ، من أي شيء ضحكت؟ فقال : من أَمر ملك الموت ، إنه نودي وأنا أسمع ، شدد عليه ، فإنه قـــد بقيت عليه خطيئة ، فضحكت لذلك ، فقلت له : فما كانت فلم يجبني .

واأسفا . هذا حال الحسن ، وماعرف منه إلا الحسن ، فكيف يكون حالنا إذن مع مالنا من محن ، يامن قد لعب الهوى بفهمه ، وسودت شهواته وجه عزمـه ، يامبنياً قد عزم الباني على هدمه ، يامحمولا إلى البلى لتمزيق لحمه ، أما يكفيه منذراً وهن عظمه ، كم نقربك وأنت متباعد ، كم ننهضك إلى العلى وأنت قاعد ؟ كم نحرضك وماتساعـد كم نوقظك وأنت في اللهو راقد ؟ياأعمى البصيرة وماله قائد ، ياقتيل الأمل لست بخالد ، يامفترق الهموم والمقصود واحـــد ، إن لاحت الدنيا فشيطان مارد ، تقاتل عليها فتكد وتطارد ، فإذا جاءت الصلاة فقلب غائب ، وجسم شاهد ، وتقول : قـد صليت اتبهرج على الناقد ؟ ماتعرفنا إلا وقت الشدائد ، أما ذنوبك كثيرة فما للطرف جامد ، كم ليلة سهرتها في الذنوب ، كم خطيئة أمليتها في المكتوب ، كم صلاة تركتها مهملا للوجوب كم أسبلت ستراً على عيبة عيوب ، ياأعمى القلب بين القلوب ،ستعرف خبرك عند الحساب

والمحسوب ، أين الفرار وفي كف الطالب المطلوب ؟ تنبه للخلاص ايها المسكين ، اعتق نفسك من الرق يارهين ، إقلع أصل الهوى فعرق الهوى مكين ، احذر غرور الدنيا فما الدنيا بمين ، يادائم المعاصي سجن العاصي سجّين، تثب على الخطايا ولا وثبة تنين ، كأنك بالموت قد برز من كمين ، وآن الأمر فوقعت في الأنين ، واستنبأت أنك في أحوالك غبين ، كيف ترى حالك إذا عبثت الشمال باليمين ؟ثم نقلت ولقبت بالميت الدفين، واأسفا لعظم حسرتك ساعة التلقين ، يامستوراً على الذنوب غداً ينجلي ويبين ، ترى متى هذا القلب القاسي يلين ؟ يا عجباً لقسوته وهو مخلوق من طين ، ساعات السلامة ، بين يديك مبذولة فسابق سيوف الآفات فإنها مسلولة ، وبادر مادامت المعاذير مقبولة ، وافتح عينك فإلي كم بالنوم مكحولة ؟ يالها نصيحة غير ان النفس على الخلاف مجبولة .

آن رحيل فاعد الزاد آن معاد فاذكر المعاد

لايلهك العمر وإن تمادى

ويح العصاة لقد عجلوا ، لو تأملوا العواقب مافعلوا ، أين ماشربوا أين ماأكلو ؟ ماذا يجيبون إذا حضروا وسئلوا ؟ فينبئهم بما عملوا ، آه لهم في أي حزن من الحزن نزلوا مانفعهم مااقتنعوا من الدنيا وحصلوا ، إنما كانت ولاية الحياة يسيراً ثم عزلوا ، وانفردوا في زاوية الأسى واعتزلوا ، فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذهلو (فينبئهم بما عملوا) .

وقبل شخوص المرء يجمع زاده وتملأ من قبل الرماء الكنائن

حصادك يوماً مازرعت وإنما يدان امرؤ يوماً بما هو دآئن

الكلمة تجمع إلى النظرة ، إلى خاطر قبيح إلى فكرة ، في كتاب يحصي حتى الذرة ، والعصاة عند المعاصي في سكرة ، فجنوا من جناء ماجنوا اثمار ماغرسوه، (أحصاه الله ونسوه) كم تنعم بمال المظلوم ظالم ؟ وبات لايبالي بالمظالم ، والمسلوب يبكي فيبكي الحمائم ، ما كفاهم أخذ ماله حتى حبسوه (أحصاه الله ونسوه) أين ما كان جمعوا ؟ كم ليموا وماسمعوا ؟ كم قيل لهم ماارتدعوا ؟ ذهب العرض غير أن العرض دنسوه

(أحصاه الله ونسوه) كم كاسب للمال من حرامه وحلاله ؟ كان يحاسب شريكه على عود خلاله ، ولا ينفق منه شيئاً في تقويم خلاله ، فلما وقـــع صريعاً بين أشباله ، اشتغلوا عنه بانتهاب ماله ، ثم في اللحد نكسوه (أحصاه الله ونسوه) سلك الله بنا وبكم مسلك الهدى ، وجنبنا وإياكم سبل الردى ، وجعلنا وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه .

اللهم قد أطعنا أكبر الطاعات ؛ وهي الإيمان بك والافتقار إليك ، وتركنا أكبر السيئات ، وهي الشرك والافتراء عليك ، فاغفر لنا مابينهما ولا تخجلنا بين يديك .

اللهم لو أردت إهانتنا لم تهدنا ، ولو أردت فضيحتنا لم تسترنا ، فتمم اللهم مابه بدأتنا ، ولا تسلبنا مابه أكرمتنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . آمين .



المجلس الخامس والعشرون

في قصة مريم وعيسى عليهما السلام

الحمد لله الذي لا شأن يشغله ، ولا نسيان يذهله ، ولا قاطع لمن يصله ولا نافع لمن يخذله ، جل عن ضد يماثله ، أو ندٍّ يشاكله ، أو نظير يقابله ، أو مناظر يقاوله ، يثيب على العمل القليل ويقبله ، ويحلم على العاصي فلا يعاجله ، ويدعي الكافر له شريكا ويمهله ، ثم إذا بطش هلك كسرى وصواهله ، وذهب قيصر ومعاقله ، استوى على العرش وما العرش يحمله وينزل لا كالمنتقل تخلو منازله ، هذا جملة اعتقادنا وهذا حاصله ، من ادعى علينا التشبيه فالله يقاتله ، مذهبنا مذهب أحمد ومن كان يطاوله ، وطريقنا طريق الشافعي وقد علمت فضائله ، ونرفض قول جهم فقد عرف باطله ، ونؤمل رؤية الحق ومتى خاب آمله ؟ لقد حنت حنة إلى ولد فسألت من لا يرد سائله ، فانكسرت بوضع انثى فجبر المكسور قابله (فكفلها زكريا) فإذا وكيل الغيب يواصله ، فيالها من مكفول ما تعنى كافله ، فلما بلغت حملت بمن شرف حامله ، فعجبت من ولد لا عن والد يشاكله فقيل: هزي فهزت جذعاً يابساً تزاوله ، فأخرج في الحال رطباً يلتذ آكله ، فاستدلت على تكوين ولد تحمد شمائله ، فالنصارى غلت واليهود عتت (فأتت به قومها تحمله) .

أحمده حمداً أديمه وأواصله ، وأصلي على رسوله محمد الذي ارتجت ليلة ولادته أعالي الإيوان وأسافله ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر ثاني اثنين واعرفوا من قائله ، وعلى عمر الذي انتشر عدله في الأقطار واشتهرت فضائله ، وعلى عثمان الذي زارته الشهادة وما تعبت مفاصله ، وعلى علي بحر العلوم فما يدرك ساحله ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين صفا الإسلام بجدهم وعذبت مناهله ، وسلم تسليماً .

قال الله عزوجل (واذكر في الكتاب مريم) الكتاب: القرآن ومريم اسم امها

حنة . فتمنت ولداً فلما حملت ، جعلت حملها محرراً خادماً للكنيسة (فلما وضعتها انثى) حملتها اليهم (فكفلها زكريا) فلما بلغت خمس عشرة سنة ، (انتبذت) أي : تنحت عن أهلها (مكاناً شرقياً) مما يلي الشرق (فاتخذت من دونهم حجاباً) أي : حاجزاً يمنع عن النظر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت ستراً لتطهّر من الحيض وتمتشط (فأرسلنا اليها روحنا) وهو جبريل (فتمثل لها بشراً سوياً) أي : تصور في صورة البشر التام الخلقة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : جاءها في صورة شاب جعد قطط حين طرّ شاربه . قالت : (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) المعنى : إن كنت تتقي الله ، فستنتهي عني بتعوذي منك . قال : (إنما أنا رسول ربك) أي : فلا تخافي (لأهب لك) أي : أرسلني ليهب لك (غلاماً زكياً) أي : طاهراً من الذنوب (قالت : أنّى يكون لي غلام) أي : كيف يكون؟ (ولم يمسسني بشر) يعني الزوج (ولم أك بغيّاً) البغي : الفاجرة (قال : كذلك قال ربك هو علي هيّن) أي : يسير (ولنجعله آية للناس) أي : دلالة على قدرتنا (ورحمة منا) لمن اتبعه وآمن به (وكان أمراً مقضياً) أي : محكوماً به مفروغاً منه (فحملته). قال ابن عباس رضي الله عنهما : فنفخ جبريل في جيب درعها ، فاستمر بها حملها . واختلف في مقداره ، فقيل : حين حملت وضعت . وقيل : تسعة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر . فعاش ولم يعش مولود قط لثمانية أشهر . فكان هذا آية (فانتبذت به) أي : بالحمل (مكاناً قصياً) قال ابن إسحاق : مشت ستة أميال فراراً من قومها أن يعيّروها بولادتها من غير زوج (فأجاءها المخاض) أي وجع الولادة (الى جذع النخلة) وهو ساق نخلة يابسة في الصحراء ، ليس لها رأس ولا سعف (قالت يا ليتني مت قبل هذا) اليوم أو هذا الأمر قالته حياء من الناس (وكنت نسياً منسياً) أي : ليتني لم أكن شيئاً (فناداها من تحتها) وفيه قولان .

أحدهما : الملك ، وكانت على نشز من الأرض . والثاني : عيسى لما ولدته (ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً) وهو النهر الصغير . وكانت قد حزنت لجدب مكانها وخلوّه عن ماء أو طعام ، فقيل لها : قد أجرينا لك نهراً ، وأطلعنا لك رطباً ، وفي ذلك

آية تدل على قدرة الله عز وجل في إيجاد عيسى (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) : وهو الطري المجتنى (فكلي) : من الرطب (واشربي) : من النهر (وقرّي عيناً) : بولادة عيسى (فإما ترينّ من البشر أحداً ، فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً) وهو الصمت . وإنما أمرت بالسكوت لأنها لم تكن لها حجة عند الناس .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مضت عليه أربعون يوماً ، وطهرت من نفاسها ، جاءت الى قومها ؛ فبكوا وكانوا صالحين (قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً) أي : عظيماً (يا أُخت هارون) وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه أخ لها من أمها كان أمثل فتى في بني اسرائيل . والثاني: أنها كانت من بني هارون أخي موسى . والثالث: أنه رجل صالح في بني إسرائيل شبهوها به في الصلاح. والرابع : أنه رجل من فساق بني إسرائيل (ما كان أبوك) يعنون عمران (امرأ سوء) أي : زانياً (وما كانت أُمك) : حنة (بغياً) أي : زانية (فأشارت إليه) أي : أومأت الى عيسى عليه السلام أن كلموه ، وكان عيسى قد كلمها قبل قومها ، قال : يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه فلما أشارت اليه أن كلموه عجبوا وقالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً فنزع فمه من ثديها وجلس وقال : (إني عبد الله آتاني الكتاب) .

قال عكرمة : قضى أن يؤتيني الكتاب ، وقال غيره : عُلّم التوراة وهو في بطن أمه ، وأوحى الله اليه وهو ابن ثلاثين سنة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وكان يبرىء الأكمه والأبرص ، وكان يجتمع على بابه من المرضى خمسون ألفاً فيداويهم بالدعاء ،فاتبعوه وسألوه أن يحيي سام بن نوح ، فأتى قبره ، فناداه فانشق القبر وقام . فقال : هذا عيسى بن مريم ، فاتبعوه ، ثم قال له : سل ربك أن يردني كما كنت ، فدعا فعاد .

وكان عيسى يلبس الصوف وينتعل من لحا الشجر شراكها ليف. وكان يقول: لباسي الصوف ، وشعاري الخوف ، وبيتي المسجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، ودابتي رجلاي ، وسراجي بالليل القمر ، ومصطلاي في الشتاء مشارق الشمس ، وفاكهتي وريحاني

بُقُول الارض ، وجلسائي المساكين . وكان يقول لأصحابه : أهينوا الدنيا ، تكرم الآخرة عليكم ، إنكم لا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تبلغون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون .

وروي عن محمد بن سباع النميري قال : بينا عيسى عليه السلام يسيح في بعض بلاد الشام ، اشتد به المطر والرعد والبرق ، فجعل يطلب شيئاً يلجأ اليه ، فرفعت له خيمة من بعيد ، فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف جبل فأتاه ، فإذا في الكهف أسد فرفع يده وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لي مأوى ، فأجابه الجليل عز وجل : مأواك عندي في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء حليتهن بيدي ، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن منادياً ينادي : أين الزاهدون في الدنيا ؟ زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : دخل عيسى خوخةً فدخل وراءه رجل من اليهود ، فألقى الله عليه شبه عيسى فقتلوه وصلبوه .

قال علماء النقل : رفع لثلاث ساعات من النهار ، وأُلبس النور ، وكسي الريش ، وقطعت عنه لذة المطعم والمشرب ، وأصبح إنسياً ملكياً . وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة وأشهر . وماتت أمه مريم بعد رفعه بست سنين ، وكان عمرها نيفاً وخمسين سنة .

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ : « أن عيسى ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقاتل الناس على الإسلام ، ويقتل الدجال ، ويتزوج ، ويولد ، ويمكث خمساً وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن مع رسول الله ﷺ » .

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبراً ... حتى يرى خبراً من الأخبار
طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

وإذا رجوت المستحيل فإنما | تبني الرجاء على شفير هار
والعيش نوم والمنية يقظة | والمرء بينهما خيال ساري
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت | منقادة بأزمة الأقدار
فاقضوا مآربكم عجالاً إنما | أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا | أن تسترد فإنهن عواري

لقد خرقت المواعظ المسامع ، وما أراه انتفع السامع ، ولقد بدا نور الهدى في المطالع ، ولقد أبانت عبر من عبر لمن عبر المصارع ، فما لها ما انسكبت المدامع ، يامن شبابه قد مضى ، هل ما مضى من العمر راجع؟ تيقظ تيقُّظ الحذر ثم اعتذر وراجع ، فالهول شديد ، والحساب دقيق ، والطريق شاسع (إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع) آه لنفس انفصلت ساعاتها ، وما حصَّلت طاعاتها ، تبعتها تبعاتها ، وما نفعتها دُعاتها ، شهورها وجمعاتها ، ومجالسها وجماعاتها ، ومذكروها ودعاتها ، وقصائدها وسجعاتها ، والمحن وجرعاتها ، والمنون ووقعاتها ، وما لانت مع هذا ممتنعاتها ، ولا خفَّت من رقاد الغفلة هجعاتها .

كان الحسن رحمه الله يقول : يا ابن آدم بع عاجلتك بعاقبتك ، تربحهما جميعاً ، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك ، فتخسرهما جميعاً ، يا ابن آدم دينَك دينك ، فإن سلم لك دينك سلم لك لحمك ودمك ، وإن تكن الأخرى فإنها نار لا تطفى ، ونفس لا تموت ، وأنت معروض على ربك ، ومرتهن بعملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، يا ابن آدم ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . يا ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا ، فتعلقه بشَر متعلق ، قطع حبالها ، واغلق عنك بابها ، حسبك ما بلّغك المحل .

قد تناهت في بلائي حيلتي | وبلائي كله من قبلي
كلما قلت تجلت غمرتي | عدت في ثانية لا تنجلي
لعبت بي شهواتي وانقضت | لي حياتي في غرور الامل

وأحلت بي ذنوباً سقماً ... كيف لي بالبرء منه كيف لي؟
وأتى شيبي وحالي كالذي ... كنت فيه في الزمان الأول

فصل

في قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التوبة النصوح ، أن يتوب العبد من الذنب ، وهو يحدث نفسه أن لايعود .

وسئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال : ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لايعود .

وقال ابن مسعود : التوبة النصوح تكفر كل سيئة . ثم قرأ هذه الآية . واعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقته لنفسه على قبح زلته ، فمنهم من قوي مقته لها ، ورأى تعريضها للقتل ، كما فعل ماعز والغامدية .

روي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل يقال له ماعز بن مالك ، فقال : يانبي الله! إني قد زنيت ، وأنا أريد أن تطهرني . فقال له النبي ﷺ : ارجع ، فلما كان من الغد أتاه أيضاً ، فاعترف عنده بالزنا ، فقال له النبي ﷺ ارجع ، ثم أرسل النبي ﷺ إلى قومه فسألهم عنه ، فقال لهم : « ماتعلمون عن ماعز بن مالك الأسلمي ؟ هل ترون به بأساً أو تنكرون من عقله شيئاً؟ » فقالوا : مانرى به بأساً ، ومانكر من عقله شيئاً ، ثم عاد إلى النبي ﷺ الثالثة ، فاعترف عنده بالزنا ، وقال : يانبي الله طهرني ، فأرسل النبي ﷺ إلى قومه أيضاً فسألهم عنه ، فقالوا كما قالوا في المرة الاولى: مانرى به بأساً ومانكر من عقله شيئاً ، ثم رجع الى النبي ﷺ فاعترف عنده بالزنا ، فأمر النبي ﷺ فحفروا له حفيرة ، فجعل فيها الى صدره ثم أمر النبي ﷺ الناس أن يرجموه.

قال بريدة : وكنت جالساً عند النبي ﷺ ، فجاءته امرأة من غامد ، فقالت : يانبي الله إني قد زنيت وأنا أريد أن تطهرني ، فقال لها النبي ﷺ : ارجعي . فلما كان الغد أتته

فاعترفت عنده بالزنا وقالت : يانبي الله طهرني ، فلعلك أن تردني كما رددت ماعز بن مالك فوالله إني لحبلى يانبي الله . فقال لها النبي ﷺ : ارجعي حتى تلدي ، فلما ولدت ، جاءت بالصبي تحمله ، فقالت : يانبي الله هذا قد ولدت ، قال : اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته جاءت بالصبي في يده كسرة خبز ، فقالت : يانبي الله هذا قدفطمته ، فأمر النبي ﷺ بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين ، وأمر بها فحفر لها حفرة ، فجعلت فيها إلى صدرها ، ثم أمر الناس أن يرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه بحجر فرمى رأسها ، فنضح الدم على وجنة خالد فسبّها ، فسمع النبي ﷺ سبّه إياها ، فقال : « مهلاً ياخالد لاتسبّها ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة ، لوتابها صاحب مكس لغفر له » فأمر بها فصلي عليها ودفنت . فانظر إلى مقت هؤلاء أنفسهم ، حتى أسلموها إلى الهلاك غضباً عليها لما فعلت . ومن الناس من لم يجز له التعرض لقتلها ، فكان ينغص عيشها .

قال بعض السلف : رأيت ضيغماً العابد قد أخذ كوزاً من ماء بارد ، فصبه في الحب واكتاز غيره ، فقلت له في ذلك ، فقال : نظرت نظرة وأنا شاب ، فجعلت على نفسي أن لا أذيقها الماء البارد أنغص عليها أيام الحياة . لهج بعض العبّاد بالبكاء ، فعوتب على كثرته فقال :

بكيت على الذنوب لعظم جرمي وحُق لكل من يعصي البكاء
فلو كان البكاء يرد همي لأسعدت الدموع معاً دماء

ياهذا : ماء العين في الارض حياة الزرع ، وماء العين في الخد حياة القلب . ياطالب الجنة بذنب واحد أخرج أبوك منها ، أفتريد دخولها بذنوب ماتبت عنها؟ وإن امرأً تنقضي بالجهل ساعاته ، وتذهب في المعاصي أوقاته ، لخليق أن تجري دائماً دموعه ، وحقيق أن يقل في الدجى هجوعه . يامن ذهب عمره في الخلاف ، وصار قلبه بالخطايا في غلاف ، إلى كم تعصي وتتمرد؟ وأقبح من قبيحك أنك تتعمد ، ياردىء العزم ياسيء المقصد ، يانقي الثوب والقلب أسود ، ماهذا الأمل ولست بمخلّد ، أما تخاف من أوعد وهدد؟ يامسؤولاً

عن القبيح أتقر أم تجحد؟ يامن شاب وماتاب، هذا الدأب مذ أنت أمرد ؟ يامشترياً لذة تزول بالعذاب السرمد ، بالله عليك تأمل نصحي وتفقد . أما الطريق طويلة فمتى تتزود؟ تخلص من أسر الهوى فإلى كم مقيّد؟ ميّز مايبقى ممايفنى، ثم اطلب الأجود. أسفاً لنفس لاتعقل أمرها ، مضت أيامها في الذنوب وجهلت قدرها ، ولم تزل في المعاصي تضيّع عمرها ، يانادماً على الذنوب أين أثر ندمك؟ أين بكاؤك على زلة قدمك؟ أين حذرك من أليم العقاب؟ أين قلقك من خوف العتاب؟ أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟ إنما التوبة نار تحرق الإنسان . جرّد الإقرار ، ثم ألبسه الاعتذار ، ثم حله بحلية الإنكسار ، ثم أقمه على باب الدار ، اكتب قصة الرجوع ، بقلم النزوع ، بمداد الدموع ، واسع بها على قدم الخضوع ، إلى باب الخشوع ، وأتبعها بالعطش والجوع ، وسل رفعها فرب سؤال مسموع مناجاتك نجاتك ، وصلاتك صِلاتك ، ناد في نادي الأسحار ، والناس نائمون ، يا أكرم من أمّله الآملون ، إن طردتني فإلى من أذهب ؟ وإن أبعدتني فإليك أُنسب ، علمت ذنبي وخلقتني ، رأيت زللي ورزقتني .

لئن جل ذنبي وارتكبت المآثما — وأصبحت في بحر الخطيئة عائماً
فها أنا ذا يارب أقررت بالذي — جنيت على نفسي وأصبحت نادماً
أجلُّ ذنوبي عند عفوك سيدي — حقير وإن كانت ذنوبي عظائماً

لو رأيت التائب رأيت جفناً مقروحاً ، تراه في الأسحار على باب الاعتذار مطروحاً سمع قول الإله يوصي فيما يوحي ، (توبوا إلى الله توبة نصوحاً) التحريم: ٨. مطعمه يسير ، وحزنه كثير ، ومزعجه مثير ، وكأنه أسير ، قدرمي مجروحاً ، (توبوا إلى الله توبة نصوحاً). أنحل بدنه الصيام ، وأتعب قدمه القيام ، وحلف بالعزم على هجر المنام ، فبذل بدناً وروحاً ، (توبوا إلى الله توبة نصوحاً) ، الذل قد علاه ، والحزن قد وهاه ، يذم نفسه على هواه ، وبهذا صار ممدوحاً ، (توبوا إلى الله توبة نصوحاً) ، أين من يبكي جنايات الشباب ؟

التي بها قد اسوّد الكتاب ، أين من يأتي الى الباب ؟ يجد الباب مفتوحاً ، (توبوا الى الله توبة نصوحاً) .

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكّرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها ، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها ، وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها ، بالروح والريحان الى الجنة ونعيمها ، ومتعنا بالنظر الى وجهك الكريم ، في جنات النعيم ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، آمين .



المجلس السادس والعشرون

في قصة أهل الكهف

الحمدلله الذي لا يتأثر بالمدى، ولا يتغير أبدا ، لم يزل واحداً أحداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، اختار من شاء فنجاه من الردى ، أنقذ أهل الكهف وأرشد وهدى ، وأخرجهم بقلق راح بهم وغدا ، فاجتمعوا في الكهف يقولون كيف حالنا غدا ، فأراحهم النوم من لغب التعبد مددا (إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً ، فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ، ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) الكهف : ١٢

أحمده ما ارتجز حادٍ وحدا، وأصلي على رسوله محمد أشرف متبوع وأفضل مقتدى، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر المتخذ بإنفاقه عند الإسلام يدا ، وعلى عمر العادل فما جار في ولايته ولا اعتدى ، وعلى عثمان الصابر في الشهادة على وقع المدى ، وعلى علي محبوب الأولياء ومبيد العدا ، وعلى جميع آله وأصحابه صلاة مستمرة على مر الزمان أبداً ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) الكهف : ٩. سبب نزولها : أن اليهود سألوه عن أهل الكهف ، والكهف المغارة في الجبل ، واختلفوا في الرقيم فقيل : إنه لوح من رصاص فيه أسماء الفتية مكتوبة ، ليعلم من اطلع عليهم يوماً من الدهر ما قصتهم ، وقيل : إنه اسم الوادي الذي فيه الكهف . وقيل إنه اسم الجبل ، وقيل غير ذلك (إذ أوى الفتية الى الكهف) . أي : جعلوه مأوى لهم ؛ والفتية جمع فتى والفتى الكامل من الرجال ، واختلف العلماء في بدوّ أمرهم ومصيرهم الى الكهف على ثلاثة أقوال .

أحدهما : أنهم هربوا ليلاً من ملكهم حين دعاهم الى عبادة الأصنام ، فمروا براع له كلب ، فتبعهم على دينهم ، فآووا الى الكهف يتعبدون .

والثاني : أن أحد الحواريين جاء الى مدينة أصحاب الكهف ، فلقيه هؤلاء الفتية؛ فآمنوا به فطلبوا فهربوا الى الكهف .

والثالث : أنهم كانوا عظماء المدينة وأشرافهم فخرجوا واجتمعوا وراء المدينة على ميعاد . فقال أكثرهم : إني لأجد في نفسي شيئاً ما أظن أحداً يجده قالوا : ما هو ؟قال: أجد أن ربي رب السموات والأرض ، فتوافقوا فدخلوا الكهف فناموا .

قوله تعالى : (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) الكهف : ١٧. أي : لأن أعينهم مفتحة وهم نيام لئلا تذوب (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون في كل عام مرتين ، ستة أشهر على هـــذا الجنب ، وستة أشهر على هذا الجنب (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) وهو الفنــاء والباب (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) لأنهم طالت شعورهم وأظفارهم جداً . قال : وخرج الملك وأصحابه في طلبهم فوجدوهم نياماً ،فكان كلما أراد أحدهم أن يدخل أخذه الرعب . فقال قائل للملك : أليس أردت قتلهم ؟ قال : بلى . قال : فابن عليهم باب الكهف حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ففعل .

فأما سبب بعثهم ؛ فقال عكرمة : جاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلمــاً ، فاختلفوا في الروح والجسد ، فقال قائل : تبعث الروح ، وأما الجسد فتأكله الأرض . وقال قائل : تبعث الروح والجسد ، فشق اختلافهم على الملك ، فانطلق فلبس المسوح وقعد على الرماد ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم ، فبعث الله تعالى أهل الكهف ، وقال وهب : جاء راع قد أدركه المطر الى الكهف ، ففتح بابه ليؤوي اليه الغنم ، فرد الله اليهم أرواحهم .

قال ابن إسحاق : جلسوا فرحين يسلم بعضهم على بعض ، لا يرون في وجوههم ولا أجسادهم ما ينكرونه ، إنما هم كهيئتهم حين رقدوا ، فهم يرون أن ملكهم في طلبهم

فصلوا وقالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : انطلق فاستمع ما نذكر به ، وابتغ لنا طعاماً ، فوضع ثيابه وأخذ ثياباً يتنكر فيها ، وخرج مستخفياً متخوفاً أن يراه أحد ، فرأى على باب المدينة علامة تكون لأهل الإيمان ، فخيل اليه أنها ليست بالمدينة التي يعرف ، ورأى ناساً لايعرفهم فجعل يتعجب ويقول: لعلي نائم ، فلما دخلها رأى قوماً يحلفون باسم عيسى فقام مسنداً ظهره الى جدار وقال في نفسه : والله ما أدري عشية أمس لم يكن على وجه الأرض من يذكر عيسى إلا قتل ، واليوم أسمعهم يذكرونه ، لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف ، والله ما أعرف مدينة قرب مدينتنا . فقام كالحيران وأخرج ورقاً فأعطاه رجلا وقال : بعني طعاماً ، فنظر الرجل الى نقشه فجعل يتعجب ثم ألقاه الى آخر فجعلوا يتطارحونه بينهم ويتعجبون ويتشاورون ، وقالوا : هذا قد أصاب كنزاً ، ففرق منهم وظن أنهم قد عرفوه فقال : امسكوا طعامكم فلا حاجة لي اليه فقالوا له : من أنت يافتى؟ والله لقد وجدت كنزاً فشاركنا فيه ، وإلا أتينا بك السلطان فلم يدر ما يقول . فطرحوا كساءه في عنقه وهو يقول : فرق بيني وبين إخوتي ، ياليتهم يعلمون ما لقيت . فأتوا به الى رجلين كانا يدبران أمر المدينة ، فقالا : أين الكنز الذي وجدت ؟ قال : ما وجدت كنزاً ولكن هذه ورق آبائي ، ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ماشأني ، ولا ماأقول لكم . وكان الورِق مثل أخفاف الإبل ، فقالوا له : من أنت؟ وما اسمك؟ وما اسم أبيك؟ فأخبرهم فلم يجدوا من يعرفه ، فقال له أحدهما : أتظن أنك تسخر منا؟ وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولادينار ، إني سآمر بك فتعذب عذاباً شديداً ، ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز ، فقال تمليخا : أنبئوني عن شيء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتكم قالوا : سل . قال : مافعل الملك دقيانوس؟ قالا : لانعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً يسمى دقيانوس ، وإنما هذاملك قد كان منذ زمان طويل ، وهلكت بعده قرون كثيرة ، فقال : مايصدقني أحدبماأقوله لقد كنا فتية فأكرهنا الملك على عبادة الأوثان ، فهربنا منه عشية أمس فنمنا ، فلما انتبهنا ، خرجت أشتري لأصحابي طعاماً ، فإذا أنا كما ترون. فانطلقوا معي إلى الكهف

أُريكم أصحابي ، فانطلق معه أهل المدينة ، وكان أصحابه قد ظنوا لإبطائه عليهم أنه قد أُخذ ، فبينما هم يتخوفون ذلك ، إذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل ، فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، فسبق تمليخا اليهم وهو يبكي فبكوا معه ، وسألوه عن شأنه . فأخبرهم خبره وقص عليهم الخبر ، فعرفوا أنهم كانوا نياماً بأمر الله تعالى وانما أُوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث . وجاء ملكهم فاعتنقهم وبكى . فقالوا : نستودعك الله ، ونقرأ عليك السلام ، حفظك الله وحفظ ملكك . فبينا الملك قائم رجعوا إلى مضاجعهم ، وتوفى الله عز وجل نفوسهم ، وحجبهم بحجاب الرعب ، فلم يقدر أحد أن يدخل عليهم . وأمر الملك فجعل على باب الكهف مسجداً يصلى فيه ، وصار عندهم ذلك اليوم عيداً في كل سنة ، وقد نبَّهت قصتهم على أن من فر إلى الله عز وجل حرسه ولطف به وجعله سبباً لهداية الضالين .

سل الأجداث عن صور بلينا وعن خلق نعمن فصرن طينا
وعن ملك تعزز بالأماني وكان يظن أن سيعيش حينا
هي الدنيا تفرق كل جمع وإن ألف القرين بها القرينا

ياويح عزيمة نقضت بالهوى عهودها ، ترقَّت في درجات العلى ثم انعكس صعودها ، بينا ثمرها يُجذ يبس عودها ، لقد سودت الصحائف في طلب مالاتصادف ، متى تذكر المتالف؟ إلى كم وكم تخالف؟ كم طوى الدهر طوائف؟ انما يسلم من الشدة من هو في الرخاء خائف ، الى متى تضيع الوقت الشريف؟ وتعرض عن الإنذار والتخويف ، وتؤثر الفاني على الباقي ، وهذا الرأي السخيف ، أين لذة فرحك وبعد ترحك؟ وأين سرور مرحك في مجترحك؟ انما العمر أيام معدودة ، والسلامة عوار مردودة.

فأي هوىً أو أي لهو أصبته على لذة إلا وأنت مفارقه
ألا أيها الباكي على الميت بعده رويدك لاتعجل فإنك لاحقه
أرى صاحب الدنيا مقيماً بجهله على ثقة من صاحب لايوافقه

أين من جمع الأموال بعضها على بعض؟ وتصرف لشهواته في طول المنى والعرض ،

ونسي الحساب يوم السؤال والعرض ، ولم يبال بعد نيل غرضه بضياع الواجب والفرض ، أما حُطّ عن ظهر قصره إلى بطن أمه الأرض ، خلا والله بقبيحه وحسنه ، وانتبه في قبره من وسنه ، فما نفعته الإفاقة في أيام الفاقة ، ولا أفاده التيقظ ، وقد انقضى وقت التحفظ ، تُبدل بالأتراب التراب ، وواجه أليم الحساب ، وندم على ماخلى في خلاف الصواب ، وتقطعت به الوُصل والاسباب (فاعتبروا يا أولي الالباب) :

جدوا فقد زمّت مطاياكم لنقلكم عن دار دنياكم
وحصّلوا زاداً لمسراكم من قبل أن تدنو منايا كم
إيمانكم دعوى فطوبى لكم إن صح في الإيمان دعواكم

فصــل

في قوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) المؤمنون : ١-٢

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أنزلت علي عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ علينا (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر . قال ابن قتيبة : أصل الفلاح : البقاء . فالمفلحون : الفائزون ببقاء الأبد . وأصل الخشوع : الخضوع والتواضع ، وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : أنه ترك الالتفات في الصلاة . والثاني : السكون فيها . والثالث : النظر الى موضع السجود .

وروي عن المعلى بن منصور الرازي : أنه كان يوماً يصلي ، فوقع على رأسه كور الزنابير ، فما التفت ، حتى أتم صلاته فنظروا فإذا رأسه قد صار هكذا من شدة الانتفاخ وكان مسلم بن يسار لايلتفت في صلاته . ولقد انهدمت ناحية من المسجد ، ففزع لها أهل السوق فما التفت ، وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا ، علماً منهم بأن قلبه مشغول عنهم ، وكان يقول : إلهي متى ألقاك وأنت عني راض .

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلت اشتغالي فيك يامنتهى شغلي

فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرضى ومن لي بأن ألقاك والكل لي من لي؟

ياهذا : بين صلاتك وصلواتهم كما بين وقتك وأوقاتهم . عن أبي أيوب الأنصاري أن النبي ﷺ قال : « إن الرجلين ليتوجهان إلى المسجد فيصليان فينصرف أحدهما من صلاته أوزن من أحد ، وينصرف الآخر وماتعدل صلاته مثقال ذرة » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن مصلّ إلا وملك عن يمينه وملك عن يساره ، فان أتمها عرجا بها ؛ وإن لم يتمها ضربا بها وجهه » . ياغائباً في صلاته ، ياشتيت الهم في جهاته ، يامشغولاً بآفاته عن ذكر وفاته ، ياقليل الزاد مع قرب مماته ، لقد ربح القوم وأنت نائم ، وخبت ورجعوا بالغنائم ، بالليل راقد وبالنهار هائم ، وغاية ماتشتهي مشاركة البهائم ، نظروا في عواقب الأمور ، فقبروا أنفسهم قبل القبور ، وخرجوا من ظلام الشبَه الى أجلى نور ، فما استفزهم فان ولا آذاهم غرور ، عرضوا على النفوس ذكر العرض فاعترضها القلق ، وتفكروا في نشر الصحائف فأزعجهم الارق ، وتذكروا شدة المخاوف فسالت الحدق ، أطار خوف النار نومهم ، وأطال ذكر العطش الاكبر صومهم ، وهوّن فكرهم في العتاب نصيبهم ، ونصبهم على الاقدام ذكر القيام وأنصبهم ، أما الاجسام فالخوف قد أنحلها ، وأما العقول فالحذر قد أذهلها ، وأما القلوب فالفكر قد شغلها ، وأما الدموع فالاشفاق قد أرسلها ، وأما الاكف فقد كفّت عما ليس لها ، وأما الاعمال فقدوا لله قبلها ، حوانيتهم الخلوات ، وبضائعهم الصلاة ، وأرباحهم الجنات ، عرفوا طريق النجاة ، فوقفوا على قدم الادب في المناجاة ، فنال كل منهم مارجاه ، فلهم عنده أعظم قدر وجاه .

كان السلف لمعرفتهم بالمتكلم يلهجون بتلاوة القرآن .

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه : لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم . وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات . وكان في السلف من يمنعه التفكر من كثرة التلاوة ، فيقف في الآية يرددها .

قام تميم الداري ليلة الى الصباح بآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم

كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الجاثية : ٢١. وقام سعيد بن جبير ليلة بآية (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) يس: ٥٨. وقال أبو سليمان الداراني : إني لأتلوا الآية وأقيم فيها أربع ليال أو خمساً ، ولولا أني أقطع الفكر ما جاوزتها .

وقال أسلم بن عبد الملك : صحب رجل رجلا شهرين ، فما رآه نائماً بليل ولا نهار . فقال : مالي أراك لا تنام؟ فقال : إن عجائب القرآن أطرن نومي ، فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى .

يا من يعاتبه القرآن وقلبه غافل، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل ، أعرف قدر المتكلم وقد عرفت الكلام ، واحضر قلبك الغائب وقد فهمت الملام .

يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة ، و كتابه قد حوى حتى مقدار خردلة ، وما ينتفع بنذير والنذر متصلة ، وما يرعوي لنصيح وكم قد عذله ؟ ونور الهدى قد بدا وما رآه ولا تأمله ، وهو يأمل في البقاء وقد رأى مصير من أمله ، وأجله قد دنا لكن أمله قد شغله ، ويحضر بدنه في الصلاة فأما القلب فقد أهمله . كن كيف شئت ونعِّم جسدك ، فلا بد للدود أن يأكله ، يا عجباً من فتور مؤمن بالجزاء والمسألة ، أيقن بالنجاة أم غرور وبله بادر ما بقي من العمر واستدرك أوله ، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له . يا مشغولاً باللهو والهذيان ، معرضاً عن تلاوة القرآن ، ستدري من يندم يوم الخسران ، استدرك ما قد فات في هذا الزمان ، وقم في الأسحار فللسحر مع الرحمة شان ، وسل العفو عما سلف وكان ، وناد في نادي الذل يا صاحب الإحسان .

مولاي جئتك والرجاء — قد استجار بحسن ظني
أبغي فواضلك التي — تمحو بها ما كان مني
فانظر إلي بحق لطفك يا إلهي واعف عني
لا تخزني يوم المعاد بما جنيت ولا تهني

إخواني : حُسن الأدب في الصلاة دليل على معرفة الرب ، والتفات البدن دليل على إعراض القلب ، وقد وصفت لك أحوال الخاشعين ، فهل أنت منهم أو من الغافلين ؟

سبحان من قوّمهم وأصلحهم ، وعاملوه باليسير فأربحهم ، واعتذروا من التقصير فسامحهم ، وقد اثنى عليهم ومدحهم ، أفتعون ؟ (الذين هم في صلاتهم خاشعون) . اغتنم القوم الأيام ، واجتنبوا الخطايا والآثام ، وصمتوا عن رديء الكلام ، وصموا عن استماع الحرام ، فكأنهم ما يسمعون (الذين هم في صلاتهم خاشعون) . كفوا الأكفّ عن الفساد ، وهجرت الرؤوس الوساد ، وحضر القلب للمناجات وانقاد ، وأنتم في سكر الرقاد وهم يسجدون ويركعون (الذين هم في صلاتهم خاشعون) . ما أوفى تلك الأحوال ، ما أصفى تلك الخصال ، ما أزكى تلك الأعمال ، جمعوا الهموم فأما الأموال فما يجمعون (الذين هم في صلاتهم خاشعون) .

إخواني : توانيتم وسير القوم حثيث ، وصفت أعمالهم وفعلكم كدر خبيث ، ونصحناكم ولكن قدضاع الحديث ، وما أراكم تسمعون (الذين هم في صلاتهم خاشعون)

يا رب وفقنا لما وفقت القوم ، وأيقظنا من سنة الغفلة والنوم ، وارزقنا الاستعداد لذلك اليوم ، الذي يربح فيه العاملون (الذين هم في صلاتهم خاشعون) .

اللهم وعاملنا بإحسانك وداركنا بفضلك وامتنانك ، وتولنا برحمتك وغفرانك ، واجعلنا من عبادك الذين (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) البقرة : ٣٨ .

اللهم دلّنا عليك ، وارحم ذلنا بين يديك ، واجعل رغبتنا فيما لديك ، ولا تحرمنا بذنوبنا ، ولا تطردنا بعيوبنا ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .



المجلس السابع والعشرون

في فضل نبينا محمد ﷺ وابتداء أمره

الحمد لله قاهر المتجبر ومذله ، ورافع المتواضع ومجله ، القريب من عبده فهو أقرب من ظله ، وهو عند المنكسر لأجله حال ذله ، لا يعزب عن سمعه وقع القطر في أضعف طله ، ولا يغيب عن بصره في الدجا دبيب نمله ، رفع من شاء بإعزازه كما حط من شاء بذله ، اختار محمداً من الخلق فكأن الكل خلقوا من أجله (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) الفتح : ٢٨ .

أحمده على أجل الإنعام وأقله ، وأشهد بوحدانيته شهادة مصدق قوله بفعله ، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله لنقض الكفر وحله ، صلى الله عليه ما قام معجزه ينادي (فأتوا بسورة من مثله) البقرة : ٢٢. وعلى صاحبه أبي بكر الصديق واصل حبله ، وعلى عمر الذي كان يفرق الشيطان من ظله ، وعلى عثمان مجهز جيش العسرة وعاقد شمله ، وعلى علي أخيه وابن عمه ومقدم أهله ، وعلى سائر آله وأصحابه والمقتفين لشريعته وعدله ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله). اعلموا أن نبينا المصطفى اعلى الخلق كلهم ،فصان الله إباءه من زلة الزنا ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح » .

قال علماء السيّر : لما حملت آمنة قالت : ما وجدت له ثقلا . وكانت ولادته يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، وقال بعضهم : لعشر خلون منه ، فلما ظهر خرج

معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، وتوفي أبوه وهو حمل ، وماتت أمه وهو ابن ست سنين . فكفله جده عبد المطلب ، ومات وهو ابن ثمان سنين ، فأوصى به أبا طالب. وكان يسمى في صغره الأمين .

وكانت آيات النبوة تظهر عليه قبل النبوة ، فكان يرى النور والضوء ، ولا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، وقال : «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن» ثم رميت الشياطين بالشهب لبعثه .

وأما نسبه فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وأما صفته فإنه كان ربعةً ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ، رجل الشعر ، أدعج العينين . أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً ثم قدمت حليمة فأكملت رضاعه .

وكان ﷺ أجود الناس وأصدقهم لهجة ، وأكرمهم عشيرة ، تزوجته خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، فأتت منه بزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب . وقيل : ولدت له عبد الله في الإسلام ، فلقب بالطاهر والطيب ، وولدت له مارية ، إبراهيم ، وبعث لأربعين سنة ، فنزل الملك عليه بحراء يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان ، وبقي ثلاث سنين يستتر بالنبوة ، ثم نزل عليه (فاصدع بما تؤمر) الحجر : ٩٤ . فأعلن الدعاء ، ولقي الشدائد من قومه وهو صابر .

وفي « الصحيحين » : أنه كان يصلي وسلا جزور قريب منه ، فأخذه عقبة بن أبي معيط فألقاه على ظهره ، فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره » فقال حينئذ : « اللهم عليك بالملأ من قريش » وكان في كل موسم يخرج فيعرض نفسه على القبائل فيقول : من يوقيني ؟ من ينصرني ؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي .

ثم أسري به ﷺ في سنة اثنتي عشرة من النبوة ، وبايعه أهل العقبة ، وتسلل أصحابه

الى المدينة ، وخرج هو وأبو بكر الى الغار فأقاما فيه ثلاثاً ثم دخل المدينة ، فتلقاه أهلها بالرحب والسعة ، فبنى مسجده ومنزله .

وغزا سبعاً وعشرين غزاة ، وبعث ستاً وخمسين سرية ، وما زال يلطف بالخلق ويريهم المعجزات ، فانشق له القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وحن له الجذع ، وأخبر بالغائبات فكان كما قال ، وفضّل على الأنبياء فصلى بهم في ليلة المعراج ، وهو المقدم عليهم يوم الشفاعة .

وفي «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » . وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ، ولا فخر » . قال ابن الأنباري : أراد : لا أتبجح بهذه الاوصاف ، ولكن أقولها شكراً وتنبيهاً على إنعام ربي علي .

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه . قالت : وكان إضجاعه الذي ينام عليه من أدم حشوه ليف .

وفيها أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : ماشبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا . وعن أنس رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبي ﷺ فقال : ماهذه الكسرة؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة . فقال : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ

ثلاثة أيام . ماضره من الدنيا مافات وهو سيد الأحياء والاموات .

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى علي واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات » . وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ان لله عز وجل في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام » فالحمد لله الذي جعلنا من أمته حشرنا الله على كتابه وسنته .

ضيعت وقتك فانقضى في غفلة　　　وطويت في طلب الحوادع أدهرا
أفهمت عن هذا الزمان جواره　　　فلقد أبان لك العظات وكررا
عاينت ماملأ الصدور مخافة　　　وكفاك من عاينته من أخبرا

كأنك بما يزعج ويروع ، وقد قطع الاصول وقطع الفروع ، ياناثماً الى كم هذا الهجوع؟ الى متى بالهوى هذا المولوع؟ اتنفعك وقت الموت الدموع؟ كم لك الى التقى عند النزع نزوع؟ هيهات لاينفع الذل إذاً والخضوع . تقول فرقوا المال فالعجب يجود المنوع . هذا وملك الموت يسلها من بين الضلوع ، رشقك بسهم المنون فما أغنت الدروع ، وخلت منك المساكن وفرغت الربوع ، وتمنيت أن لوزدت من سجود وركوع ، فاحذر مكر العدو ولاتقبل قول الخدوع .

إخواني : الدنيا في إدبار ، وأهلها في استكثار ، والزارع فيها غير التقى لايحصد إلا الندم .

قال لقمان لابنه : يابني لكل انسان بيتان ، بيت شاهد وبيت غائب ، فلا يلهينك بيتك الحاضر الذي عمرك فيه قليل ، عن بيتك الغائب الذي عمرك فيه طويل .

وكم من طالب رزقاً بعيداً　　　أتاه الرزق من أمد قريب
فأجمل في الطلاب وكن رفيقاً　　　بنفسك في معالجة الخطوب
فما الانسان إلا مثل شلوٍ　　　تؤاكله النوائب بالنيوب

فغربان المنية إن يفتهـــا فليس بفائت رخم المشيب

يا ناسياً ملماً عن قليل حادث ، حادث قلبك بما بين يديه حادث ، يا راحلاً وهو يظن أنه مقيم لابث ، يانائماً قد أزعجته المقلقات البواحث ، يامقبلاً على سحّار من الهوى نافث ، يالاعباً والليالي في سيره حثائث ، يامعجباً بزخارف في ضمنها الحوادث ، يامخموراً بالمنى الخمر أم الخبائث ، يامطلوباً بالجد وفعله فعل عابث ، ياحريصاً على المال ماله حظ وارث ، إياك والدنيا إن حلفها حلف حانث ، لاتسمعن قولها فالعزم عزم ناكث :

قـد أصبحت ونعـاتها نعـّاتها وكذلك الدنيا يخيب سعاتها

كرّارة أحزانهـــا ضرّارة أشجانها مرّارة ساعاتهـــا

فصـــل

في قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الأنفال : ٢ قال الزجاج : المعنى : إذا ذكرت عظمته وقدرته ، وماخوف من عصاه فزعت قلوبهم . وقال السدي : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فينزع عنها .

كان الحسن رحمه الله يقول : إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى . قال أبو طارق : شهدت ثلاثين رجلاً ماتوا في مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحاً إلى المجلس ، وأجوافهم والله قريحة ، فاذا سمعوا الموعظة انصدعت قلوبهم فماتوا . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

صلى زرارة بن أوفى بالناس فقرأ المدثر فلما بلغ (فاذا نقر في الناقور) المدثر : ٨ خر ميتاً . وكان ابراهيم التيمي يذكر وأبو وائل ينتفض انتفاض الطير . وكان عتبة الغلام طويل البكاء فقيل له : ارفق بنفسك فقال : إنما أبكي تقصيري . وقيل لعبد الواحد

بن زيد : مانفهم كلامك من بكاء عتبة فقال : أيبكي عتبة على نفسه وأنهاه أنا ؟ لبئس واعظ قوم أنا .

وكان يزيد بن مرثد دائم البكاء ، وكانت زوجته تقول : ويحي ماخصصت بـه من طول الحزن معك ماتقر لي عين .

ما كان يقرأواش ٍ سطر كتماني — لو أن دمعي لم ينطق بتبياني
ماء ولكنه درب الهموم وهل — ماء تولده نيران احزان
عجنا على الربع نستسقي له مطراً — ففاض دمعي فأرواه وأظماني

لما خفيت العواقب على المتقين ففزعوا إلى القلق واستراحوا الى البكاء ، أعقل الناس محسن خائف ، وأحمق الناس مسيء آمن . كان بشر الحافي لاينام الليل ، ويقول: أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم .

وكلما همّ بذوق الكرى — صاح به الهجران قم لاتنم

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلِّب ، من ظن أن عمر يسلم ،من اعتقد أن برصيصًا يكفر ، رب غرس من المنى أثمر ، وكم من مستحصد تلف ينادي البعدا (لاتقنطوا) الزمر: ٣٥. ويقال للمقربين (ويحذركم الله نفسه) آل عمران : ٢٨. رحم الله أعظماً طـالما نصبت وانتصبت ، جنّ عليها الليل فلما تمكن وثبت وثبت ، هبت على أرض القلوب عقيم الحذر فاقشعرت ورهبت ، فبكت عليها سحائب الرجاء فاهتزت وربت ، ذكرت نفوس القوم العذاب فأنت ، وتفكرت في شدة العقاب فرنت ، وتذكرت ما جنت مما تجنت فجنت ، أزعجها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنت ، آه لنفس ضنت بما بذلوه ، ثم رجت ما نالوه بئسما ظنت ، ما نفس سابقة كنفس تأنت ، فحسبك أن قوماً موتى تحيى بذكرهم النفوس ، وأن قوماً أحياء تقسوا برؤيتهم القلوب . رحل القوم وبقيت الآثار ، سلوا طـول التعبد عنهم فقد خلت الديار .

طلول إذا دمعي شكى البين بينها — شكى غير ذي نطق الى غير ذي فهم .

جال الفكر في قلوبهم فألاح صوابهم ، وتذكروا التوفيق فمحا التذكر إعجابهم ، وترنموا بالقرآن فأمسى مزهرهم وربابهم ، وكلفوا بطاعة الإله فألفوا محرابهم ، وخدموه مبتذلين في خدمته شبابهم ، فيا حسنهم وريح الأسحار قد حركت أبوابهم ، وحملت قصص الغصص ثم ردت جوابهم .

نسيم الصبا إن زرت أرض أحبتي　　فخصهم عني بكل سلام
وبلغهم أني رهين صبابة　　وأن غرامي فوق كل غرام
وإني ليكفيني طروق خيالهم　　لو ان جفوني متعت بمنام
ولست أبالي بالجنان ولا لظى　　إذا كان في تلك الديار مقامي
وقد صمت عن لذات دهري كلها　　ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

لا يطمعن البطال في منازل الأبطال ، إن لذة الراحة لا تتناول بالراحة ، من زرع حصد ومن جد وجد ، أي مطلوب نيل من غير مشقة ؟ وأي مرغوب لم تبعد على طالبه الشقة ؟ المال لا يحصل إلا بالتعب ، والعلم لا يدرك إلا بالطلب ، واسم الجواد لا يناله بخيل ، ولقب الشجاع لا يحصل إلا بعد تعب طويل

لا يدرك المجد إلا سيد فطن　　لما يشق على السادات فعَّال
لولا المشقة ساد الناس كلهم　　الجود يفقر والإقدام قتال
إنا لفي زمن قول القبيح به　　من أكثر الناس إحسان وإجمال

يا من عمره كلما زاد نقص ، يا من يأمن الموت وكم قد قنص ، يا مائلاً إلى الدنيا هل سلمت من نغص ؟ يا مفرطاً في الوقت هلا بادرت الفرص ، يا من إذا ارتقى في سلم الهدى فلاح له الهوى نكص ، من لك يوم الحشر عند نشر القصص ، ذنوبك كثيرة جمة ، ونفسك بغير الصلاح مهتمة ، وأنت في المعاصي إمام وأمة ، يا من إذا طلب في المتقين لم يوجد ثمة ، يا من سيلحق في مصرعه وإن أباه أباه وأمه ، متى تنقشع هذه الظلمة والغمة ، يا من قد

أعماه الهوى ثم أصمه ، يا من لا يفرق بين المديحة والمذمة ، يا من باع فرحه ثم اشترى غمه.

يا آدمي أتدري ما منيت به
أم دون ذهنك ستر ليس ينجاب؟
يوم ويوم ويفنى العمر منطويا
عام جديد وعام فيه إخصاب

سبحان من أيقظ المتقين ، وخلع عليهم خلع اليقين ، وألحقهم بتوفيقه في السابقين ، فباتوا في جلباب الجد مسابقين ، كلما أذهب الأعمار طلوعهم وغروبهم ، سالت من الأجفان جزعاً غروبهم ، وكلما لاحت لهم في مرآت الفكر ذنوبهم ، تجافت عن المضاجع جنوبهم ، وكلما نظروا فساءهم مكتوبهم ،وجلت قلوبهم دموعهم على الدوام تجري ، وعزتي لأربحن في معاملتي تجري ، عظمت قدرتي في صدورهم وقدري ، فاستعاذوا بوصالي من هجري ، عاملوا معاملة من يفهم ويدري ، فنومهم على فراش القلق وهبوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)الأنفال : ٢ . أموات عن الدنيا ما دفنوا ، غمضوا عنها عيونهم وحزنوا ، ولو فتحوا أجفان الشره لفتنوا ، باعوها بما يبقى فلا والله ما غبنوا ، تالله لقد حصل مطلوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) حبسوا النفوس في سجن المحاسبة ،وبسطوا عليها ألسن المعاتبة، ومدوا نحوها أكف المعاقبة ، ويحق لمن بين يديه المناقشة والمطالبة ، فارتفعت بالمعاينة غيوبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) شاهدوا الأخرى باليقين كرأي عين ، فباعوا العقار وأخرجوا العين ، وعملوا بمقتضى الدين أن التقى دين ، فدنياهم خراب وأخراهم على الزين ، قنعوا بكسرتين وجرعتين ، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم).

اللهم إنا قد أمسينا لا نملك دفعاً ولا رفعاً ، ولا ضراً ولا نفعاً ،فقراء لا شيء لنا، ضعفاء لا قوة لنا ، والخير كله بيدك ، وأمر كل شيء راجع إليك .

اللهم فقونا على ما أمرتنا ، وأعنا على ما كلفتنا .

اللهم خذ بأيدينا إليك ، أخذ الكرام عليك ، وقومنا إذا اعوججنا ، وأعنا إذا استقمنا ، وكن لنا حيث كنا .

اللهم أنت ربنا ونحن عبيدك ظلمنا أنفسنا ، واعترفنا بذنوبنا فاغفرها لنا جميعاً ، واغننا بفضلك إنك واسع المغفرة .

اللهم أحينا في الدنيا مؤمنين طائعين ، وتوفنا مسلمين تائبين ، واجعلنا عند السؤال ثابتين ، واجعلنا ممن يأخذ الكتاب باليمين : واجعلنا يوم الفزع الأكبر آمنين ، وأوصلنا برحمتك وكرمك إلى جنات النعيم ، ونجنا بعفوك وحلمك من العذاب الأليم ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، برحمتك يا ارحم الراحمين .



المجلس الثامن والعشرون

في ذكر المعراج

الحمد لله فالق الحَبّ والنوى ، وخالق العبد وما نوى ، المطلع على باطن الضمير وما حوى ، بمشيئته رشد من رشد وغوى من غوى ، وبإرادته فسد ما فسد واستوى ما استوى ، صرف من شاء الى الهدى ، وعطف من شاء إلى الهوى ، قرّب موسى نجيا ، وقد كان مطويا ، من شدة الطوى ، فمنحه فلاحاً وكلمه كفاحاً وهو بالواد المقدس طوى ، وعرج بمحمد إليه فرآه بعينيه ثم عاد وفراشه ما انطوى ، فأخبر بقربه من ربه ، وحدّث بما رأى وروى ، فأقسم على تصديقه من حرسه بتوفيقه عن التوى (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) .

أحمده على صرف الهم والجوى ، حمد من أناب وارعوى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيما نشر وطوى ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله وعود الهدى قد ذوى ، فسقاه ماء المجاهدة حتى ارتوى ، صلى الله عليه وعلى الفاروق الذي وسم بجده جبين كل جبار وكوى ، وعلى ذي النورين الصابر على الشهادة وما التوى ، وعلى علي الذي زهد في الدنيا فباعها واجتوى ، وعلى جميع آله وأصحابه الذين هم كزرع على سوقه استوى ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (والنجم إذا هوى) هذا قسم وفي النجم خمسة أقوال :

أحدها : أنه الثريا . والثاني : الرجوم من النجوم . وهي ما يرمى بها الشياطين . والثالث : أنه القرآن ، نزل نجوماً متفرقة . والرابع : نجوم السماء كلها . والخامس : أنها الزهرة (ما ضل صاحبكم وما غوى) هذا جواب القسم ، والمعنى : ما ضل عن طريق الهدى ، والمراد به رسول الله ﷺ (وما ينطق عن الهوى) . أي : ما يتكلم بالباطل ،

وذلك أنهم قالوا : إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه : (إن هو إلا وحيٌ يوحى) . أي : ما القرآن إلا وحي من الله يوحى (علّمه شديد القوى) . أي : علّم جبريل النبي ﷺ (ذو مرة) أي : قوة ، وكان من قوته أنه قلع قرى قوم لوط ، وحملها على جناحه فقلبها عليهم وصاح بثمود فاصبحوا خامدين (فاستوى وهو بالأفق الاعلى) فيه قولان . أحدهما : فاستوى جبريل وهو يعني النبي ﷺ ، المعنى : أنهما استويا بالافق الأعلى ، لما أُسري برسول الله ﷺ . والثاني : فاستوى جبريل ، وهو يعني جبريل بالأفق الاعلى ، على صورته الحقيقية ، لأنه كان يتمثل لرسول الله ﷺ ، إذا هبط عليه بالوحي في صورة رجل ، فأحب رسول الله ﷺ أن يراه على حقيقته ، فاستوى في أُفق المشرق ، فملأالافق فيكون المعنى : فاستوى جبريل بالأفق الأعلى في صورته ، والافق الاعلى : مطلع الشمس ، وانما قيل له : الأعلى لانه فوق جانب الغرب ، في صعيد الارض في الهوى (ثم دنى فتدلى) قال الزجّاج : دنا بمعنى قرب . وتدلى : زاد في القرب . وفي المشاراليه بذلك ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الله جل جلاله ، والمراد به القرب المذكور في قوله : « من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعاً » والثاني : ثم دنا محمد من ربه . والثالث : أن جبريل دنا من محمد ﷺ (فكان قاب قوسين) ألقاب : القدر .

قال الكسائي : أراد بالقوسين قوساً واحداً (أو أدنى) بل أدنى (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال ابن عباس : رأى ربه عز وجل ، والمعنى : ماأوهمه فؤاده أنه رأى ولم ير (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) هي شجرة النبق فوق السماء السابعة (عندها جنة المأوى) .

قال ابن عباس : هي عن يمين العرش ، وهي منزل الشهداء ، قوله تعالى (مازاغ البصر) أي : ماعدل بصر رسول الله ﷺ ، يميناً وشمالاً (وماطغى) النجم : ١ ـ ١٧ أي : ماجاوز مارأى ، وهذا كان في ليلة المعراج . واتفق العلماء على أن هذا المعراج كان بمكة قبل الهجرة .

يا صاح إن كنت لبيباً حازماً   فكن لأسباب الهوى مراغما

وإن أردت أن تفوز في غد فكن تقياً واهجر المحارما
لا تهو دنياك فإن حبها رأس الخطايا تكسب المآثما
غدارة فكل من حلت له لابد أن تذيقه العلاقما
وأنها تخدم من أهانها كما تهين من أتاها خادما
فكن بها مثل غريب مصلح أزواده على الرحيل عازما
فانما عمر الفتى سوق له يروح عنه خاسراً وغانما
يا عجباً لمعشر أتتهم الد نيا فلم يبنوا بها المكارما
ولا شروا مع علمهم زوالها بها جناناً ونعيماً دائما
إياك والتسويف فالعاقل من ينجز ما كان عليه عازما
وإنما الموت مُغير هائل أعظم به على النفوس هاجما
والقبر إما روضة للمتقي أو حفرة النار تصيب الظالما
يالهفي من اشتقاق حفرتي ومحشري إلى الحساب راغماً
وموقفي أُسأل عما قد جنت يداي من سوء فأبقى واجما
وحين يأتيني كتابي فأرى فيه الذي أتيته مُكاتما
فإن يناقشني فعبد هالك وإن عفا نجوت منه سالما

يامن بين أياديه الموت والحساب ، والتوبيخ الشديد والعتاب ، وعليه بأقواله وأفعاله كتاب ، وقد أذنب كثيراً غير أنه ماتاب ، فكلما عوتب خرج من باب الى باب ، إلى متى هذا الجهل وإلام هذا العاب ، ما أظنك حاضراً عدّوه فيمن غاب ، ألست الذي دمت على الخطايا وعصيت ، وبارزت بالقبيح وماستحيت ، وعلمت تحريم الذنب ثم أتيت ، وعرفت عظيم الجزاء وتناسيت ، ستكف الخمس بعد الحركة واللمس ، ويذهب اليوم كما ذهب أمس ، وسيبدل النطق بالسكوت والهمس ، وستعدم ضوء القمر ونور الشمس . وسيُقلع البستان وييبس الغرس ، وقد قرب وقت الغمس في بحر الرمس ، وسينسى ذو العلم الدرس بالدرس .

يامن يُنصح وليس منه إلا الإباء ، أين الآباء أين القرباء؟ أين العمّود أين الخباء؟ أدرك القوم بعد القهر السباء ، فبكى لسوء منقلبهم الغرباء ، تالله لقد قامت بالمواعظ الخطباء ولقد آذنت برحيل الجيش النقباء ، ولكن قد عمت الغفلة والغباء .

ويحك أنت في القبر محصور . إلى أن ينفخ في الصور ، ثم راكب أو مجرور ، حزين أو مسرور . مطلق أو مأسور . فما هذا اللهو والغرور؟ .

أأغفل والدهر لا يغفل ... وأنسى الذي شأنه أعضل
ويطمعني أنني سالم ... وداء السلامة لي أقتل
ويمضي نهاري وليلي معاً ... بما غيره الخير والأجمل
وآمل أني أفوت الحما ... م أماناً لعمرك لي يضلل
وكيف يرى آخر أنه ... سيبقى وقد هلك الأول
فحتى متى أنا لا أرعوي ... وكم ذا أقول ولا أفعل
أيا ذاهلاً ونداء الحتوف ... في الناس يوقظ من يذهل
ألا أين أهل النعيم الغزير ... وأين الأخالد والنزّل؟
تناولهم من قلال القصور ... فأهلكهم مزعج يُعجل

لله در أقوام بادروا الأعمال واستدركوها ، وجاهدوا النفوس حتى ملكوها ، وعرفوا عيوب العاجلة فتركوها .

أقل قليلها يكفيك منها ... ولكن لست تقنع بالقليل

قل للذين أعرضوا عن الهدى فما تبعوا ، وخوّفوا يوم الردى فما ارتدعوا ، وسمعوا المواعظ وكأنهم ماسمعوا ، تقلبوا كيف شئتم وماشئتم فاصنعوا .

غداً توفّى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون مازرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساؤوا فبئس ماصنعوا

فصــل

في قوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى) الاسراء : ١

روي أن نبي الله ﷺ حدّث عن ليلة أسري به قال : « بينما أنا في الحطيم مضطجع إذ أتاني آتٍ ، فقدّ ـ أي شق ـ مابين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى شِعرته قال: فاستخرج قلبي . قال : فأُتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة ، فغُسل قلبي ، ثم حشي ، ثم أُعيد ، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض يقع خطوه عند أقصى طرفه .

قال :فحُملت عليه ، فانطلق بي جبريل حتى أتيت السماء الدنيا ، فاستفتح ،فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قدأرسل إليه؟قال : نعم . فقيل : مرحباً به ونعم المجيء جاء ؛ قال : ففتح . فلما خلصت إذا فيها آدم ،فقال: هذا أبوك آدم ، فسلم عليه ،قال : فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحبـــاً بالابن الصالح والنبي الفالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية ، فاستفتح فقيل : من هـذا ؟ قال : جبريل ،قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : أَوقـد أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قال : مرحباً به فنعم المجيء جاء ؛ قال : ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة . قال : هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما ، فسلمت ، فردا السلام ، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الفالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة ،فاستفتح ، فقيل من هذا ؟قال: جبريل ، قيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل :أوقـد أُرسل إليه ؟ قال : نعم ، قال : مرحباً به ونعم المجيء جاء . قال : ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف قال : هذا يوسف ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد علي السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الفالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة ، فاستفتح فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟قال : محمد . قيل : أَوقد أُرسل إليه؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ونعم المجيء

جاء ؛ قال : ففتح ، فلما خلصت إذا إدريس . قال : هـذا إدريس ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الفالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أوقد أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ونعم المجيء جاء ؛ قال : ففتح ، فلما خلصت إذا أنا بهارون . قال : هذا هارون ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الفالح ، ثم صعد حتى أتى السماء السادسة ، فاستفتح قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل أوقد أُرسل إليه ؟ قال : نعم ، قيل : مرحباً به . ونعم المجيء جاء قال : ففتح ، فلما خلصت إذا أنا بموسى . قال : هذا موسى ، فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد السلام . ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الفالح ، قال : فلما جاوزته بكى ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي ، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ، ثم صعد حتى أتى السماء السابعة ، فاستفتح ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : أَوقد أُرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ونعم المجيء جاء ؟ ففتح ، فلما خلصت إذا بإبراهيم ، فقال : هذا إبراهيم ، فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد علي السلام ، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح ، والنبي الفالح .

قال : ثم رفعت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، فقال : هذه سدرة المنتهى ، قال : وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل . قال : أما الباطنان فنهران في الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات .

قال : ثم رفع إلى البيت المعمور ، قال : ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم .

قال : فرجعت ، فمررت على موسى . فقال : بم أُمرت ؟ قلت : أُمرت بخمسين صلاة كل يوم ، فقال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة ، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف لأمتك . قال :

فرجعت ، فوضع عني عشراً ، فرجعت الى موسى ، فقال : بم أُمرت ؟ قلت : بأربعين صلاة كل يوم ، قال : فإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل ، أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف لأمتك . قال : فرجعت ، فوضع عني عشراً أخر ، فرجعت الى موسى ، فقال : بم أُمرت ؟ قلت : أُمرت بثلاثين صلاة كل يوم قال : إن أُمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم واني قد خبرت الناس قبلك ، وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة ، فارجع الى ربك ، واسأله التخفيف ، قال : فرجعت ، فوضع عني عشراً أُخر ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أُمرت ؟ فقلت : بعشرين صلاة كل يوم وليلة ، فقال : إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم ، فارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف قال : فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بم أُمرت ؟ قلت : بعشر صلوات كل يوم قال : فارجع الى ربك ، فاسأله التخفيف . قال : فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أُمرت ؟ قلت : أُمرت بخمس صلوات كل يوم قال : إن أُمتك لا تستطيع ذلك : فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قال : قلت سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم ، فلما نفذت نادى مناد: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي . أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي « أفراد مسلم » من حديث أنس عن النبي ﷺ ، قال : « أُوتيت بالبراق فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس ، فربطت الدابة بالحلقة التي يوبط بها الأنبياء ، ثم دخلت ، فصليت ركعتين » .

وانما كان الإسراء الى بيت المقدس والمعراج ، من هنالك إلى السماء لأربع فوائد.

الأولى : أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث لاشتد إنكارهم ، ولو وصفها لهم لم يكن عندهم علم بذلك ، فلما أخبرهم ببيت المقدس ، ووصفه لهم دل صدقه في ذلك ، على صدقه في حديث المعراج .

الثانية : أَنه سُيِّر في الأرض ليستأنس ، ثم درّج الى الصعود إلى السماء .

الثالثة : أن الأنبياء جمعوا له هناك ، فصلى بهم ، فبان فضله بالتقدم عليهم في دار التكليف .

الرابعة : أنه مر بالنواحي التي كلّم عندها موسى ، ثم صعد ، فكلم في السماء ليظهر التفاوت بينهما .

إخواني : الذي ناله المصطفى من الارتفاع والعلو . يحث أمته على التماس القرب والدنو ، فالسعيد من تأهب للقاء ربه ، بتأديب نفسه ، وتطهير قلبه .

بأي عين تراني ، يا من بارزني وعصاني . بأي وجه تلقاني ، يا من نسي عظمة شأني. خاب المحجوبون عني وهلك المبعدون مني .

يا من يحدّث نفسه — بدخول جنات النعيم
إن كنت متقياً فأنت على صراط مستقيم
لا ترجون سلامة — من غير ما قلب سليم
فاسلك طريق المتقين وظن خيراً بالكريم
واذكر وقوفك خائفاً — والناس في أمر عظيم
إما إلى دار الشقاوة — أو إلى العز المقيم
فاغنم حياتك واجتهد — وأنب إلى الرب الرحيم

سبحان من أسرى باسرى عبد فعاد الحساد أسرى ،قصرت دولته قيصر وكسرت هيبته كسرى .

أقامه بالليل من وطائه ودثاره ، ورفعه فوق السماوات بقوته واقتداره ، وأراه ما في جنته ، وما في ناره ، وأوحى إليه ما أوحى من أسراره ، ثم أعاده في الليل إلى مسكنه وقراره .

جاوز أفق الشمس والقمر ، وعلا على الملائكة والبشر ، وفاز بالتقريب والنظر ، وما حضر أحد قط حيث حضر .

ارتقى إلى مقام القرب بقدميه ، والأملاك تحف به من جانبيه ، وجبريل يمشي خادماً بين يديه ، والرب قد أنعم بتقريبه إليه ، وكشف له الحجاب حتى رآه بعينه .

حماه بألطافه ، من الزيغ في طريقه ، وأيده بإسعافه وإسعاده وتوفيقه ، وعضده في صدقه بتصديق صديقه .

سبحان من رفعه فوق الأفلاك ، وقدمه على الأنبياء والأملاك ، وإنه والله أهل لذاك ، لأنه أطول القوم في جهاد أهل الإشراك ذيلاً (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) .

أوقد لهداية الخلق سراجه ، وشاد قواعد دينة وأبراجه ، وقوى دليله وأظهر احتجاجه ، فالخزي كل الخزي لمن جحد معراجه ، وويلاً له ويلاً (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) .

كلّمه كفاحاً ، ومنحه فلاحا ، وسقاه من شراب المحبة واحا . يميل بأعطافه ميلاً (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) .

أصلح بتدميره طباع المرضى ، وجعل طاعته على الخلق فرضاً ، وضمن أن يعطيه حتى يرضى . كيلا يحصر ما يعطى وزناً و كيلا (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) .

سبحان من شرفنا بهذا الرسول ،ورزقنا موافقة المنقول ، فنحن أهل السنة لا أهل الفضول . لا يزال على الصراط ولا نزول . ما نعرف ميلاً (سبحان الذي أسرى بعبد ليلاً) .

فخر نبينا أجل وأعلا ، ومناقبه من الشمس أجلى ، وذكره في قلوبنا والله أحلى ، عند قيس من ليلى . (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) .

اللهم وفقنا لمتابعة نبيك الكريم ، وارزقنا الاستمساك بسنته ودينه القويم ، واحشرنا في زمرته ، وآمنا من الهول العظيم .

اللهم وأيقظ قلوبنا من رقدات الآمال ، وذكرنا قرب الرحيل ودنو الآجال ، وصبّرنا على أقوم الامور وأشرف الخصال ، في غدواتنا وفي الآصال .

اللهم اشف بلطفك مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، برحمتك ياأرحم الراحمين .



المجلس التاسع والعشرون

في فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

الحمد لله الذي أحكم بحكمته مافطر وبنى ، وقرّب من خلقه برحمته ودنا ، ورضي بالشكر من بريته لنعمه ثمناً ، وأمرنا بخدمته لالحاجته بل لنا ، يغفر الخطايا لمن أساء وجنى ، ويجزل العطايا لمن كان محسناً .

بيّن لقاصديه سبيلا وسننا ، ووهب لعابديه جزيلا يقتنى ، وأثاب حامديه ألذ مايجتنى ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) العنكبوت : ٦٩ .

أحمده مسرّاً للحمد ومعلناً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أشرف من تردد بين جمع ومِنى .

صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر المتخلل بالعباءة راضياً بالعنا . وهو الذي أراد بقوله تعالى وعنى « ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا » .

وعلى عمر المجد في عمارة الإسلام فما ونى ، وعلى عثمان الراضي بالقدر وقد حل بالفناء الفنا ، وعلى علي الذي بالغنا في مدحه والفخر لنا ، وعلى سائر آله وأصحابه الأمَنا ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (إلا تنصروه فقد نصره الله) التوبة : ٤٠ . المعنى : إلا تنصروه بالنفير معه ، فقد نصره الله . أعانه الله على أعدائه . إذ أخرجه الذين كفروا . أي : اضطروه إلى الخروج لقصدهم إهلاكه . ثاني اثنين . قال الزجّاج : المعنى نصره الله أحد اثنين . أي : نصره منفرداً إلا من أبي بكر ، وهذا معنى قول الشعبي عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر .

« إذ هما في الغار » وهو الثقب في الجبل ، وهذا الغار في جبل ثور ، وكان المشركون يؤذون المسلمين ، فتجهز أبو بكر ليلحق بالمدينة ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي » ثم خرجا إلى الغار ، فجعل أبو بكر يشق ثوبه ويسد الأثقاب ، فبقي ثقب فسده بعقبه ، فمكثا ثلاث ليال في الغار . فخرجت قريش تطلب الآثار ، فلما مروا بالغار ، رأوا نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على الباب (إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) التوبة : ٤٠ . يعني بالصاحب أبابكر.

روي عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر حدثه ، قال : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال : « ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما؟ » أخرجاه في «الصحيحين» .

واعلم أن أبا بكر رضي الله عنه معروف الفضل في الجاهلية والاسلام ، كان أول من أسلم ، واسمه : عبد الله بن عثمان بن عامر ، يلتقي مع رسول الله ﷺ في مرة ، ولقبه ﷺ عتيقاً لجمال وجهه ، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحلف بالله : أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق . وقال رسول الله ﷺ ليلة أسري به لجبريل : « إن قومي لايصدقوني » فقال له جبريل : يصدقك أبوبكر ، وهو الصديق . وهو أول من خاصم عن رسول الله ﷺ .

روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قالت : أتى الصريخ أبا بكر ، فقيل له : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وإن له غدائر فدخل المسجد وهو يقول : (ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) . فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا فجعل لايمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والاكرام .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبوبكر ، ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي عز وجل لاتخذت أبابكر ، ولكن اخوة الإسلام ومودته لايبقى في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مالأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبابكر ، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة ، ومانفعني مال أحدقط مانفعني مال أبي بكر فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالي إلا لك يارسول الله .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : رآني النبي ﷺ أمشي أمام أبي بكر فقال ياأبا الدرداء أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة . ماطلعت شمس ولاغربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر » .

وعنه أيضاً قال : « كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل ابو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدا عن ركبتيه ، فقال النبي ﷺ ، أما صاحبكم فقد غامر فسلم » . وقال إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء ، فأسرعت اليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي ، فأبى عليّ ، فأقبلت إليك ، فقال يغفر الله لك ياأبا بكر ثلاثاً ، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر ، فسأل أثمّ ابو بكر ؟ قالوا لا ، فأتى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، وقال يارسول الله إني كنت الظالم مرتين ، فقال النبي ﷺ : « إن الله بعثني إليكم ، فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر صدق ، وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين » . فما أوذي بعدها .

وقد انفرد أبو بكر رضي الله عنه ، بأن افتى في حضرة رسول الله ﷺ ، وقدمه في الصلاة ، ونص عليه نصاً خفياً بإقامته مكانه في الصلاة ، وبما روي عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « أتت امرأة النبي ﷺ ، فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : أرأيت إن جئت ولم أرك كأنها تقول الموت قال : إن لم تجديني فاطلبي أَبا بكر » أخرجاه في الصحيحين .

وفيهما أيضاً أنه ﷺ قال لعائشة : « ادعي لي أباك وأخاك حتى اكتب لأبي بكر كتاباً ، فإني أخاف ان يقول قائل ، ويتمنى متمن ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أَبابكر » .

واعلم ان خصال أَبي بكر معلومة من الورع والخوف والزهد والبكاء والتواضع ، وأنه لما استخلف ، أصبح غادياً إلى السوق ، وكان يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة ، فلما

بويع قالت جارية من الحي : الآن لاتحلب لنا ، فقال : بلى! لأحلبنها لكم وإني لأرجو ألا يغيرني مادخلت فيه .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « وددت أني في الجنة حيث أرى أبا بكر » .

يا أيها الرافضي! لاتسمع مدح أبي بكر من فيه ، اسمع قول علي فيه . روي عن محمد بن الحنفية قال : « قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ فقال : أبو بكر ، قلت : ثم من؟ قال : ثم عمر ، قال : وخشيت ان أقول ثم من ، فيقول ثم عثمان فقلت : ثم أنت ، فقال : ما انا إلا رجل من المسلمين » أخرجه البخاري .

وروي انه لما قبض ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، وسجى عليه ارتجت المدينة بالبكاء كيوم قبض رسول الله ﷺ ، فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستعجلا مسترجعاً ، حتى وقف على البيت الذي فيه ابو بكر ، فقال : رحمك الله ياأبا بكر ، فلقد كنت إلف رسول الله ﷺ ، وأنيسه ، ومستراحه ، وثقته ، وموضع سره ، وكنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم لله يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم عناء في دين الله عز وجل ، وأحوطهم على رسول الله ﷺ ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وافضلهم سوابق ، وارفعهم درجة ، واشبههم برسول الله ﷺ . هدياً وسمتاً ، واكرمهم عليه ، فجزاك الله عن رسوله وعن الإسلام افضل الجزاء .

صدّقت رسول الله ﷺ حين كذبه الناس ، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر ، وسماك الله في تنزيله صديقاً ، فقال : (والذي جاء بالصدق وصدق به) الزمر : ٣٣ . وأعطيته حين بخلوا : وقمت معه على المكاره حين قعدوا ، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة ثاني اثنين وصاحبه في الغار ، والمنزّل عليه السكينة ، ورفيقه في الهجرة ، وخلفته في دين الله وأُمته احسن الخلافة حين ارتدوا ، فقمت بالامر مالم يقم به خليفة نبي ، نهضت حين وهن أصحابه ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، ولزمت منهاج رسوله .

كنت خليفته حقاً لن تنازَع ، ولن تصارع ، برغم المنافقين وكبت الحاسدين .
قمت بالامر حين فشلوا ، واتبعوك فهدوا .

كنت أَخفضهم صوتاً ، واقلهم كلاماً ، وأَصدقهم منطقاً ، وأَبلغهم قولاً ،وأَشجعهم نفساً ، وأشرفهم عملاً .

كنت للمؤمنين رحيماً ، حين صاروا عليك عيالاً ، حملت أثقال ماعنه ضعفوا ، ورعيت ماأهملوا ، وعلمت ماجهلوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وراجعوا برأيك رشدهم فظفروا ، ونالوا برأيك مالم يحتسبوا .

كنت كما قال رسول الله ﷺ : « أمن الناس عليه في صحبتك ، وذات يدك » وكنت كما قال : « ضعيفاً في بدنك ، قوياً في أمر الله عز وجل ، متواضعاً في نفسك ، عظيما عند الله عز وجل ، جليلاً في أعين الناس ، كبيراً في أنفسهم » .

لم يكن لأحد فيك مغمز ولا لقائل فيك مهمز ، الضعيف الذليل ، عندك قوي عزيز ، حتى تأخذ بحقه ، القريب والبعيد عندك في ذلك سواء ، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله وأتقاهم .

شأنك الحق والصدق والرفق ، اعتدل بك الدين ، وقوي بك الإيمان ، فسبقت والله سبقاً بعيداً ، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً ، وفزت بالخير فوزاً مبيناً ، فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء ، وهدت مصيبتك الأنام فإنا لله وإنا إليه راجعون .

رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره ، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً ، كنت للدين عزاً ، وحرزاً وكهفاً ، فألحقك الله بنبيك ﷺ ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك ، فسكت الناس حتى قضى كلامه ، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا : صدقت يا ختنَ رسول الله ﷺ .

لم يسمحوا بزمام أمرهم ... حتى رأوه لكل خير جامعاً

لم يرهبوه مخافة من جيشه — ولما أظل ولا حساماً قاطعاً
كلا ولا خافوا برائق بأسه — إن خالفوه ولا رأوه مخادعاً
لكنهم علموا شريف محله — عند الرسول تقى وقدراً بارعاً
ورأوا نظام الدين عن رأي له — مستحكماً وسنا الشريعة طالعاً
أردى حنيفة واليمامة إذ طغت — فأعاد مأنوس الديار بلاقعا

جمع يوم الردَّة شمل الإسلام ، بعد أن نعق غراب البين ، وجهَّز عساكر العزم فمرت على أحسن زين ، وصاح لسان جده فارتاع من بين الصفين .

كانت فضائله الباطنة مستوردة « ما سبقكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره » .

لما طبع رسول الله ﷺ على أشرف الأخلاق ، كان منه الكرم ، فأعطى غنماً بين جبلين ، فلما سار في فيافي الجود تبعه صدّيقه ، فجاد بكل ماله ، فقال : ما أبقيت ؟ قال : أبقيت الله ورسوله .

تعب في المكاسب فنالها حلالاً ، ثم أنفقها حتى جعل في الكساء خِلالا ، كم حاز من المكرمات خِلالا ، هانت الدنيا لديه إذ عزت نفسه عليه لما علم قرب الممات فرقّ المال وتخلل بالعباءة .

حبب الفقر إليه أنه — سؤدد وهو بذاك الفقر يعنى
وشريف القوم من يبقى لهم — شرف الذكر وخل المال يفنى
يهدم الأموال من جدرانها — أبداً ما دامت العلياء تبنى

فصل

في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) المنافقون : ٩ . معنى تلهكم : تشغلكم . وفي المراد بذكر الله أربعة أقوال .

أحدها : طاعته في الجهاد . والثاني : الصلاة المكتوبة . والثالث : الفرائض كلها . والرابع : أنه على إطلاقه ، فحضهم على إدامة الذكر .

قال بعض السلف : كل شيء يشغلك عن الله عز وجل من مال أو ولدفهو مشؤوم عليك ، (ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) .

(وأنفقوا مما رزقناكم)المنافقون : ١٠ . في هذه النفقة ثلاثة أقوال .

أحدها : الزكاة . والثاني : النفقة في الحقوق الواجبة بالمال . والثالث : صدقة التطوع .

(من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أي : يعاين ما يعلم منه أنه ميت ، (فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب ؛ فأصدّق) يريد بذلك الاستزادة في أجله ليتصدق (وأكن من الصالحين) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : فأصدق ، أزكي من مالي ، وأكن من الصالحين . أي : أحج . قال : وما من أحد يموت وكان له مال لم يزكه وأطاق الحج فلم يحج إلا سأل الرجعة عند الموت .

واعلم أن أفضل الصدقة ، في حال الصحة والسلامة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ ، عن الصدقة فقال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل البقاء ، وتخاف الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، ألا وقد كان لفلان » أخرجاه في « الصحيحين » .

وقيل لميمون بن مهران : إن فلاناً أعتق كل مملوك له عند الموت ، فقال : يعصون الله مرتين ، يبخلون به وهو في أيديهم حتى إذا صار لغيرهم أسرفوا فيه ! . وليعلم البخيل أن ما أخرجه له وما تركه لغيره ، ففي « أفراد البخاري » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال : فإن ماله ما قدم . ومال وارثه ما أخر » .

وفي « أفراد مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول العبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاث ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأبقى ، وماسوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » .

من علم فضل الصدقة حمل النفس على الإخراج . بعث إلى عائشة رضي الله عنها بمال

عظيم ، ففرقته على الفقراء ، فقالت لها جاريتها : لو خبأت درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه. فقالت : لو ذكرتيني لفعلت .

أعاذل إن المال غير مخلد ... وإن الغنى عارية فتزود
فكم من جواد يفسد اليوم جوده ... وساوس قد خوفته الفقر في غد
كم ناداك مولاك وما تسمع ... وكم أعطاك ولكن ما تقنع

لقد استقرضك مالك فمالك تجمع ، وضمن أن تنبت الحبة سبعمائة وما تزرع .

إخواني : استدركوا قبل الفوت ، وانتبهوا قبل الموت ، وأصيخوا فقد أسمع الصوت . هذا حادي الممات قد أسرع ، هذه سيوف الملمات تقطع ، هذه قصور الإخوان بلقع ، مال صاحب المال فإذا المال يوزع ، إنما هذه الدنيا فخذ منها أو دع ، انظر سلبها يا مشغولاً بها ، وتوقع أين كسرى أين قيصر أين تبّع ؟ أين حاتم الجواد أين من كان يمنع ؟ إنها لتمحو العين ثم الأثر تقلع ، إن لك مقنعاً في وعظها لو كفاك المقنع ، يا مفرقاً في البلى قل لي لمن تجمع ؟ ! أترى أنت عندنا أو ما تسمع .

أومض لي على الغوير بارق ... فهاج من وميضه التأسُّف
لهفي على عيش مضى برامة ... لو رد شيئاً فائتاً تلهف
يا مالكي رق المحب قسماً ... عليكم بحبه تعطفوا
ويا حداة الظعن قد أسلمني ... إلى الفنا فراقكم لي فقفوا
لعلني أن أشتفي بنظرة ... يبل منها المستهام الدنف
ففي الضلوع جمرة ما تنطفي ... وفي الشؤون عبرة ما تنزف

واعجباً لنفس الموت موئلها ، والقبر منزلها ، واللحد مدخلها ، ثم يسوء عملها (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) المنافقون : ١١ .

كم مشغول بالقصور يعمرها ، لا يفكر في القبور ولا يذكرها ، يبيت الليالي في فكر الدنيا ويسهرها ، وقع في أشراك المنايا وهو لا يبصرها ، أفٍ لدنيا هذا آخرها ، وآهٍ من أخرى هذا أولها ، (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

كم قاطعٍ زمانه بالتسويف ، بائع دينه بالحبة والرغيف ، مشترٍ للويــل بتطفيف الطفيف ، يتمنى العود إذا رأت نفسه ما يذهلها ، (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

إذاسلك شمس الحياة المغيب ، قام عن المريض الطبيب ، فأخذ النفس من باطنهـا التوبيخ والتأنيب ، فلو رأيتها تسأل عما بها ولا تجيب من يسألهـا (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

آهٍ لساعات شديدة الكربات ، فيها غمرات ليست بنوم ولا سبات تتقطع فيهـا الأفئدة بالندم على الفوات ، وتبـكي عين الأسف لما مضى من هفوات ، والمريض ملقى على فراش الحرقات ، فآه ثم آه من جبال حسرات يحملها (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

لقد صاح بك الصائح ، بأخذ غاد وسلب رائح ، يكفي ما مضى من قبائح ، فاقبل اليوم هذه النصائح ، فإن المسكين من يهملها (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

اللهم إن ذنوبنا أوبقتنا ، وشهواتنا في وحل الهفوات أرهقتنا ، وليس لنا إلا رجاء نوالك ، وتحري جزيل برك وإفضالك .

يا من يرحم من عصى وأطاع ، يا من عم بمعروفه من حفظ وأضاع ، عُــد علينا برحمتك ، كما عدت علينا بمنتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميـع المسلمين ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، آمين .



المجلس الثلاثون

في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحمد لله خالق كل مخلوق ، ورازق كل مرزوق ، سابق الأشياء فما دونه مسبوق ، أنشأ الآدمي بالقدرة من ماء مدفوق ، وركب فيه العقل يدعو إلى مراعاة الحقوق ، والهوى يحث على مايوجب العقوق .

أحمده على مايقضي ويسوق ، وأقر له بالتوحيد هاجراً يغوث ويعوق .

وأشهد أن محمداً عبد ورسوله ، أرسله فدمغ بحقه أهل الزيغ والفسوق ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الصدوق ، وعلى عمر الملقب بالفاروق ، وعلى عثمان الصابر من الشهادة على مر المذوق ، وعلى علي مطلق الدنيا وهو أقرب الكل نسباً وأخص العروق ، وعلى سائر آله وأصحابه مامطرت سحب وأضاءت بروق ، وسلم تسليما .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إنه قد كان فيمن مضى قبلكم من الأمم ناس محدّثون . وإنه إن كان في أمتي أحد ، فإنه عمر بن الخطاب » . أخرجاه في « الصحيحين » .

واعلم أن عمر رضي الله عنه . ممن سبقت له الحسنى ، وكان مقدماً في الجاهلية والإسلام .

وهو عمر بن الخطاب بن نُفيل وعند كعب بن لؤي يلتقي مع رسول الله ﷺ في النسب .

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بالسيف ، فلقيه رجل من بني زهرة . قال : أين تعمد ياعمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً قال : وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ماأراك إلا قد صبأت ،وتركت دينك الذي أنت عليه . قال : أولا أدلك على العجب ياعمر! إن ختنك واختك قد صبوا وتركا

دينك الذي أنت عليه ، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له : خباب ، فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت ، فدخل عليهما فقال : ماهذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ قال: فكانوا يقرأوون «طه» فقالا : ماعدا حديثاً تحدثناه بيننا ، قال : فلعلكما قد صبأتما ، فقال ختنه له : أرأيت ياعمر إن كان الحق في غير دينك فوثب عمر على ختنه ، فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته ، فدفعته عن زوجها ، فنفحها نفحة بيده ، فدمي وجهها ، فقالت وهي غضبى : ياعمر ، إن كان الحق في غير دينك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فلما يئس عمر قال : أعطوني هذا الذي عندكم فأقرأه ، فقالت أخته : إنك رجس ، ولايمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ ، فقام فتوضأ ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ «طه» حتى انتهى إلى قوله (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري)طه : ١٤ . فقال عمر : دلوني على محمد ، فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت ، فقال: أبشر ياعمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » . قال: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار . قال : وعلى باب الدار حمزة وطلحة ، وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رأى حمزة وجل القوم من عمر قال حمزة : نعم ، فهذا عمر فإن يرد الله بعمر خيراً يسلم ، ويتبع النبي ﷺ ، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً ، قال : والنبي ﷺ داخل يوحى إليه ، فخرج رسول الله ﷺ حتى أتى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، وقال: ماأنت منتهياً ياعمر حتى ينزل الله بك ماأنزل بالوليد بن المغيرة، ثم قال : « اللهم اهد عمر بن الخطاب ، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب » فقال عمر : أشهد أنك رسول الله ، فأسلم وقال: اخرج يارسول الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أسلم عمر كبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد . وقال : يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال : « بلى والذي نفسي بيده » قال : ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن . قال عمر : فخرجنا في صفين؛ حمزة في أحدهما وأنا في الآخر ، له كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد ، فنظرت

قريش إلى حمزة وعمر ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها قال : فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق . قال ابن مسعود : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا لعمر ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبراً » فبكى عمر وقال : أعليك أغار يارسول الله ؟ .

وفيهما من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال لعمر : « والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه . عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب إذا غضب » وقالت عائشة رضي الله عنها : إذا شئتم أن يطيب المجلس فعليكم بذكر عمر .

كل يوم فخر ومجد يشاد   وطريف من المنى وتلادُ
وكرام المساعي جسام   عجزت عن صعابها الحساد
همم دونها الكواكب تتلو   عزمات للنار فيها اتقاد
كلما قيل قد دجا ليل خطب   فلرأي الفاروق فيها زناد
مغرم بالمكارم الغر لما   ضم أبكارها إليه الولاد
ساهر العين بالعزائم يقظا   ن وقد قيد العيون الرقاد

قويت شدة عمر في الدين ، فصلبت عزائمه ، واختال مشية الأسد فقال عند خروجه : هاأنا أخرج إلى الهجرة فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي . نبذ الدنيا من وراء ظهره فتخفف من الأثقال لأجل السباق ، وكان يخطو وفي إزاره اثنتا عشرة رقعة ، لما ولي الخلافة شمّر عن ساق جده ، وكظم على هوى نفسه ، وحمل في الله فوق طوقه .

متيقظ العزمات مذ نهضت به   عزماته نحو العُلى لم يقعد
ويكاد من نور البصيرة أن يرى   في يومه فعل العواقب في غد

كف كفه عن المال زهداً فيه حتى أملق أهله .

رأى يوماً صبية تمشي في السوق والريح تلقيها لضعفها ، فقال : من يعرف هـذه ؟ فقال ابنه عبد الله : هذه إحدى بناتك قال : أي بناتي ؟ قال : بنت عبد الله بن عمر . قال : فمابلغ بها ماأرى؟ قال : إمساكك ماعندك . فقال : إمساكي ماعندي يمنعك أن تطلب لبناتك مايطلب الناس؟! . أما والله مالك عندي إلا سهمك مع المسلمين ، وسعك أوعجز عنك ، بيني وبينكم كتاب الله .

ورآه طلحة ليلة يدخل بيتاً فلما أصبح دخل طلحة ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقال : ماصنع عندك ذلك الرجل؟ فقالت : إنه يتعاهدني منذ كذا ، ويأتيني بما يصلحني ، ويخرج عني الأذى ، فقال طلحة : ثكلتك أمك ياطلحة أعثرات عمر تتبع ، وكان يقول لومات جدي بطف الفرات لخشيت أن يحاسب الله عمر .

وكان في وجهه خطان أسودان مثل الشراك من البكاء ، وكان يمر بالآي في ورده بالليل ، فيبكي حتى يسقط ، ويبقى في البيت حتى يعاد للمرض .

وكان يصوم الدهر ، وكان رضي الله عنه بعد أعماله الجميلة يقول عند موته : الويل لعمر إن لم يغفر له .

وفي «الصحيحين» أنه لما توفي قال علي رضي الله عنه : ماخلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك ، مانفدت فضائل عمر ، وإن عمر حسنة من حسنات أبي بكر رضي الله عنهما .

فحدث ولاتحرج بكل عجيبة — عن البحر أو تلك الخلال الزواهر
ولا عيب في أخلاقه غير أنها — فرائد درّ مالها من نظائر
يقر له بالفضل كل منازع — إذا قيل يوم الجمع هل من مفاخر

فصـــل

في قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناعمة) الغاشية : ٨ .

قال المفسرون : معنى قوله (ناعمة) أي : في نعمة و كرامة . (لسعيها) في الدنيا (راضية) ، المعنى : أنهـــا رضيت ثواب عملها (في جنة عالية) المنازل . (لاتسمع فيها لاغية) . أي : كلمة لغو .

كانت أقدامهم في الدجى قائمة ، واعينهم ساهرة لا نائمة ، وقلوبهم على الطاعة عازمة ، وهذه أفعال النفوس الحازمة ، فوجبت لهم نجاة قطعية جازمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

وجوه طالما غسلتها الدموع ، وجوه طالما أذلها الخشوع ، وجوه ظهر عليها الإصفرار من الجوع ، خاطرت في المهالك فأصبحت سالمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

وجوه إذا عنت أذعنت وذلت ، وجوه ألِفت السجود فما ملت ، وجوه توجهت إلينا وعن غيرنا تولت ، زالت عنها فترة الهجر وتجلت ، فجلَّت غانمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

سهرهم الى الصباح ، قد أثر في الوجوه الصِّباح ، واقتناعهم بالخبز القفـــار . والماء القراح ، قد عمـــل في الأجسام والأشباح ، وخوفهم من اجتراح الجناح ، قد صيرهم كمقصوص الجناح ، وعلى الحقيقة فكل الأرواح من الخوف هائمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

تجري دموعهم في الخدود ، كالمياه في الأخـدود ، وتعمل نار الحذر في الكبود ، فيتمنون عدم الوجود ، فهم بين الركوع والسجود ، ونصب الأقـــدام القائمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

يتفكرون في السابقة ، ويحذرون من اللاحقة ، و كأنهم يتقون الصاعقة ، أو كأن السيوف على أعناقهم بارقة ، ، شدة قلقهم من الخاتمة (وجوه يومئذ ناعمة) .

قوله تعالى : (فيها عين جارية) الغاشية : ١٢ . طالما طالوا البكاء في الليل . تجري دموعهم جري السيل ، وتستبق في صحراء الخدود كالخيل ، وانما يكال للعبد على قدر الكيل ، فإذا أدخلوا الجنة فلكل عين جارية (فيها عين جارية) .

جنّ الليل وهم قيام ، وجاء النهار وهم صيام ، وتودعوا قبل الكلام ، وسلموا على الدنيا لدار السلام فالبطون جائعة ، والأجسام عارية (فيها عين جارية).

إئتزروا بمئزر القنوع ، وارتدوا برداء الخشوع ، واستلذوا بشراب الدموع ، ولولا صحو السهر والجوع ، ما بان عند الجبل هلال « يا سارية » .

قوله تعالى : (فيها سرر مرفوعة) قال ابن عباس رضي الله عنهما : ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والياقوت ، مرتفعة مالم يجىء أهلها ، فإذا أراد صاحبها أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ، ثم ترتفع .

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى : (وفرش مرفوعة) قال : « والذي نفسي بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض ».

قوله تعالى : (وأكواب موضوعة) وهي الأباريق التي لا عرى لها . موضوعة عندهم (ونمارق مصفوفة) وهي الوسائد مصفوفة بعضها الى جنب بعض (وزرابيّ) وهي الطنافس (مبثوثة) كثيرة متفرقة .

يا غافلًا عن هذه الدار ، راضياً عن الصفاء بالأكدار ، سابق وقوع الموت قبل فوت الاقتدار ، ويحك أما ترى سلب الجبار ، أما يشوّقك مدح الأبرار ؟ أما تخاف الشين أما تحذر العار ؟ الى كم هذا الجهل والنّفار ؟ ما هذا التقاعد والمخف قد سار ؟ طوفان الهلاك قد دار حول الدار ، إن خيرات الأسحار ، إذا رآها الطرف حار ، يا سكران الهوى كم قد قتل الخمّار ، يا بصيراً هو أعمى (فإنها لا تعمى الأبصار) الحج : ٤٦.

روي عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة ، وإن أفضلهم لمن ينظر في وجه الله عز وجل كل يوم مرتين».

قوله تعالى : (أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت) قال المفسرون : لما نعت الله سبحانه وتعالى ما في الجنة عجب الكفار من ذلك ، فذكّرهم صنعه وقدرته ، فقال : (أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت) .

وقال قتادة : ذكر الله سبحانه سرر الجنة وفرشها ، فقالوا : كيف يصعد إليها ، فنزلت هذه الآية .

وقوله : (وإلى السماء كيف رفعت) أي : عن الأرض (وإلى الجبال كيف نصبت) تمسك الأرض أن تميد (وإلى الأرض كيف سطحت) أي : بسطت . وكل ذلك يدل على خالقه .

قوله تعالى : (فذكّر إنما أنت مذكر) أي : واعظ . ما أكثر المذكّرين ، وما أقلّ المتذكرين ، كأنكم بالأمور الفظيعة قد حلت ، وبالدنيا الدنية قد تولت ، وبالنفس العزيزة عند الموت قد ذلت ، ويحها كم أخطأت وكم زلت ، متى يقال لهذه الغمرة التي جلت قد تجلت ، عجباً لنفس كلما عقدنا نفعها حلت .

إذا كنت أعلم علماً يقيناً ... بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلها في صلاح وطاعة

يا مقيماً حان سفره ، يا من عساكر الموت تنتظره ، سيعزل الصحة السقم ، وسيغلب الوجود العدم .

الساعات مراحل ، والموت ساحل ، كم أخلى الموت داراً داراً ، كم ترك المعمور قفاراً ، كم أوقد من الأسف ناراً ، كم أذاق الغصص المرة مراراً ، لقد جال يميناً ويساراً ، فما حابى فقراً ولا يساراً ، أين الجيش العرمرم ؟ أين الكبير المعظم ؟

أين الذين على هذا الثرى قطنوا ... وحكموا في لذيذ العيش واحتكموا
وملّكوا الأرض من سهل الى جبل ... وخولوا نعماً ما مثلها نعم
لم يبق منهم على ضن القلوب بهم ... إلا رسوم قبور حشوها رمم

رحل القوم فسل الأطلال ، ساروا إلى دار الجزاء على الأعمال ، وندموا على ماجمعوا من مال ، وندبوا على قبيح الخطايا والأفعال ، وأطرق حزيناً من كان يزهو ويختال ، ولم ينتفع بحيلته من طالما احتال . لا يجيبون داعياً ، القوم في أشغال آلت أموالهم الى أكفّ الآل ، وتلذذ الأهل بذكر غيرهم فسل سالياً عن سلسال ، هذا مصيركم عن قريب

أمايِر على البال (وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) إبراهيم : ٤٥ .

ومسندون تعاقروا كأس الرَّدى ودعا بشربهم الحمام فأسرعوا

خرسٌ إذا ناديت إلا أنهــم وعظوا بما يزع اللبيب فأسمعوا

عجباً لمن يبقى ذخائر مــاله ويظل يحفظهن وهو مضيّع

أتراه يحسب أنهم مــا أسأروا من كأسهم أضعاف ما يتجرع

إخواني : أحضروا قلوبكم للذكر والتواصي ، واحذروا يوم الأخذ بالنواصي ، وتذكر واجمع الداني والقاصي ، أسمعت يا من يروح في المعاصي ، ويبكر (فـذكر إنما أنت مذكر) الغاشية : ٢١ .

كم أجرى الموت دمعاً وابلاً ورذاذاً ، كم قطع البلى صحيحاً فجعله جــذاذاً ، كم متجبّر ذله فلم يجد منه معاذاً ، أتعرف هذا يا هذا ، وتتنكر (فذكر إنما أنت مذكر) .

كم موعظ زجر فارعوى ، كم معوج وُبخّ فاستوى ، كم مستقيم بالوعظ بعد ما التوى ، ثم عاد الى الزلل بموافقة الهوى ، والمحنة أن الهوى (فذكر إنما أنت مذكر) .

اللهم صحّح فيك مرامنا ، ولا تجعل في غيرك اهتمامنا ، وأذهب من الشر ما خلفنا وأمامنا . إنك على كل شيء قدير . وبالإجابة جدير .

اللهم قنا عسر الأسواء ، ولا تجعلنا محلاً للبلوى ، ورضنا اللهم بما فيه الرضــى ، والطف بنا فيما ينزل من القضاء وارحمنا ، وارزقنا وعافنا ، واعف عنا ، واقض حاجاتنا ، ونفّس كرباتنا ، وفرج همومنا ، واكشف غمومنا برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس الحادي والثلاثون

في ذكر عثمان رضي الله عنه

الحمد لله الذي لم يزل قديماً دائماً ، وخبيراً بالأسرار عالماً ، قرب من شاء فجعله قائماً صائماً ، وطرد من شاء فجعله في بيداء الضلال هائماً ، يفعل ما يريد ، وان بات العبد راغماً ، ويقبل توبة التائب إذا أمسى نادماً.

أحمده حمداً من التقصير سالماً . وأقر له بالتوحيد موقناً عالمـاً ، وأصلي على رسوله الذي سافر الى قاب قوسين ثم عاد غانماً .

صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي لم يزل رفيقاً ملائمـاً ، وعلى عمر الذي لم يعبد ربه سراً مكاتماً ، وعلى عثمان الذي قتل مظلوماً ولم يكن ظالماً ، وفيه نزل (أمَّن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً) الزمر : ٩ .وعلى علي الذي كان في العلوم بحراً، وفي الحروب صارماً ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين لم يزل قلب كلٍ منهم لذكـر الآخرة ملازماً ، وسلم تسليما .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ ، من أول الليل الى أن طلع الفجر رافعاً يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول : اللهم إن عثمان رضيت عنه فارض عنه .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن ،قال : أشرف عثمان من القصر وهو محصور ،فقال: انشدُ بالله ، من شهد رسول الله ﷺ يوم أُحد إذ اهتز الجبل ، فركله بقدمه ، ثم قال : « اسكن احد ليس عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيد » وأنا معه قال : فانتشد له رجال، قال : أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان إذ بعثني إلى المشركين أهل مكة

فقال : « هذه يدي وهذه يد عثمان » فبايع لي فانتشد له رجال . قال : أنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ . قال : « من يوسع لنا بهذا البيت في المسجد ببيت له في الجنة؟ » فابتعته من مالي ، فوسعت به في المسجد ، فانتشد له رجال . قال : وأنشد بالله من شهد رسول الله ﷺ يوم جيش العسرة قال : « من ينفق اليوم نفقة متقبلة؟ » فجهزت نصف الجيش من مالي . قال فانتشد له رجال . قال : وأنشد بالله من شهد بئر رومة . يباع ماؤها من ابن السبيل فابتعتها من مالي وأبحتها ابن السبيل فانتشد له رجال .

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، فجعل النبي ﷺ يقلبها ويقول : « ماضر عثمان مافعل بعد هذا » .

وقال عبد الرحمن بن خباب : شهدت رسول الله ﷺ حث على جيش العسرة ، فقام عثمان فقال : يارسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حث على الجيش فقام عثمان فقال : يارسول الله علي مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض رسول الله ﷺ على الجيش ، فقام عثمان فقال : يارسول الله علي ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . قال عبد الله فأنا رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول : « ماعلى عثمان ماعمل بعد اليوم » .

وقال شرحبيل بن مسلم : كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل بيته ، فيأكل الخل والزيت .

وقال ابن سيرين : قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله : إن يقتلوه أو يتركوه فإنه يحيي الليل في ركعة يجمع فيها القرآن.

وقال ابن عمر : جاء علي إلى عثمان رضي الله عنهم يوم الدار وقد أغلق الباب ، ومعه الحسن بن علي وعليه سلاحه ، فقال للحسن : ادخل إلى أمير المؤمنين ، فأقرئه السلام ، وقل له : إنما جئت لنصرتك ، فمرني بأمرك ، فدخل الحسن ، ثم خرج فقال لأبيه : إن أمير المؤمنين يقرؤك السلام ويقول لك : لاحاجة لي بقتال وإهراق الدماء ، قال : فنزع علي عمامة سوداء ، ورمى بها بين يدي الباب ، وجعل ينادي : ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ،

وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وأحرقوا الباب ، فقال عثمان : ماعندهم بعد هذا بقية ، فدخلوا فقتلوه .

وكان رأى الرسول ﷺ ، في منامه ليلة قتله ، وهو يقول « أفطر عندنا الليلة » ، فأصبح صائماً ، فلما دخلوا عليه ضربه رجل بالسيف ، فقطع يده ، فقال : أما والله إنها لأول كف خطّت المفصّل .

وكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لاتقتلوهم ... عفا الله عن ذنب امرىءٍ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم الـ ... ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار النعام الجوافل

أخرج عثمان المال راضياً ، فبات الرسول عليه راضياً ، ما كان للدنيا عنده قدر ، إذا وزنها البخيل بليلة القدر .

إخواني : قد أعذرت إليكم الأيام ، بمن سلبت من الأنام ، وأيقظت الخطوب من غفل ونام ، وما على المنذر قبل الأخذ ملام .

أما علمتم أن هذه الدنيا غدارة ، أما برد لذاتها ينقلب حرارة ، أما ربحها على التحقيق خسارة ، أما تنقص الدنيا كلما ازدادت عمارة ، ماهي إلا عارية مُعارة ، أماقتلت أحبابها وإليك الإشارة إذا قال حبيبها : إنها لي ومعي قتلته وقالت : اسمعي ياجاره .

بين محبها في بحرها قد سبح ، يسعى في جمعها على أقدام المرح ، كلما جاء باباً من أبوابها فتح ، وكلما عانى أمراً من أمورها صلح ، وكلما لاحت له رياض غياضها سرح ، فبينا هو في لذاتها يدير القدح ، قـــدح زناد الغم في حراق القرح ، فمن يستدرك مافات ومن يداوي ماجرح ؟ .

لورأيته وقت التلف شاخصاً ، وفي سكرات الأسف غائصاً ، وقد عادظل الأمل قالصاً ، ولون السرور حائلاً ناقصاً ، ولاح صائد المنون لطير بدنه قانصاً ، يتمنى وقـد فات الوقت ، وينظر بنفسه إلى عين المقت ، ويصيخ إلى نصيحه لقد صدقت ، أمّل فخانه

الامل ، وندم على الزاد لما رحل ، رب يوم معدود ليس في العدد ، رحل الإخوان ومروا على جدد ، وهذه ديارهم سلوها هل بقي أحد؟ مضت والله الخيل بفرسانها، وتهدمت الحصون على سكانها ، وخلت ديار القوم من قطانها ، فجز عليها واعتبر بشأنها .

ياخليليَّ أسعداني على الوجـد فقد يسعد الحميم الحميم

وقفا بي على الديار فعندي مقعد من سؤالها ومقيم

تنبه أيها الظلوم ، تيقظ من رقادك ، فإلى كم نؤوم؟ حصّل شيئاً ترضي به الخصوم، قتلتك هموم الدنيا وبئس الهموم ، أتلعب بالأبتر ولم تشرب درياق السموم ، قد بقي القليل فبادر تحصيل الموسوم ، هذا هاجم الموت قد تهيأ للهجوم .

أتجتلي من الهوى كل يوم عروساً ، وتدير في مجالس الغفلة كل يوم كؤوساً ، وتملأ بالأموال كيساً كيساً ، وتنسى يوماً شديداً عبوساً ، كم تلقى فيها هولاً وكم ترى فيها بؤساً؟ تخشع فيه الأبصار وقد كانت شوساً ، وينزعج لزلزاله ابراهيم وموسى ، والخلائق للفزع قد نكسوا رؤوساً ، وجاؤوا عراة لايملكون ملبوساً ، وصار له كل لسان منطلق محبوساً .

يامن يصير غداً في التراب مرموساً ، يامن لايجد في اللحد من عمله أنيساً ، يامن سيعود عوده بعد التثني يبيساً ، يامؤثراً رذيلاً وتاركا نفيساً ، من لك إذا أوقد الموت في الدار وطيساً؟ وأخلى ربعاً قد كان بجمعك مأنوساً، فالبدار البدار ، فقد رحل لك عيساً ، وتب فالتوبة تطرد الشيطان ومايلبث الدجال مع عيسى .

يا فتيء الدهر مع كبره وقليل الحظ من عمره

كن من الدنيا على حذر فأمان المرء في حذره

فصـــل

في قوله تعالى : (والله يدعو إلى دار السلام) يونس : ٢٥.

دار السلام هي الجنة. وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال أحدها : أن السلام : هو الله. وهي داره ، والثاني : أنها دار السلام الذي لاينقطع ، والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام والرابع : أن جميع حالاتها كلها مقرونة بالسلام ، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) الحجر : ٤٦. وحين استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) الرعد : ٢٣-٢٤. وعند رؤية ربهم (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الأحزاب : ٤٤ .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال : قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة مابناؤها قال : « لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لايموت ، لاتبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » .

عزّت الدار وجل المرام ، ونال سكانها فوق المرام ، فيامشغولاً عنها بأضغاث أحلام وصل كتاب الملك العلام (والله يدعو إلى دار السلام)

دار الإعزاز والإكرام ، بنيت لقوم كرام ، من يسكنها لايُضام ، ثمنها يامشتري بين الصلاة والصيام ، (والله يدعو إلى دار السلام) .

نعيمها في دوام ، ولذاتها في تمام ، والحور في القصور والخيام ، شهواتها لاتخطر على الأوهام ، انتبهوا لطلبها يانيام (والله يدعو الى دار السلام) .

قد جمعت كل المشتهى ، وزادت على الغرض المنتهى ، عجباً لمن غفل عنها وسها ، كيف ينام (والله يدعو إلى دار السلام) .

قوله تعالى : (ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يونس : ٢٥ . عمّ بالدعوة ، وخص بالهداية ؛ إذ الحكم له في خلقه . وفي الصراط المستقيم أربعة أقوال . أحدها : كتاب الله . والثاني : الإسلام ، والثالث : الحق ، والرابع : المخرج من الضلال والشبه .

قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦. ومعنى أحسنوا :

عملوا ماأمروا به ، والحسنى : هي الجنة . والزيادة : النظر الى الله عز وجل .

روي عن صهيب رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ناد مناد ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ماهو؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ويبيض وجوهنا ، ويجرنا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون الى الله عز وجل ، فمامن شيء أعطوه أحب من النظر اليه ، وهي الزيادة » رواه مسلم .

يامن لايحسن أن يحسن ، اسمع صفة المحسن ، أقلقهم الخوف والفرق ، أورثهم ذكر الموت الأرق ، أطافت بالقلوب الاحزان والحرق ، لباسهم مرقعات الخرق ، طعامهم ماحضر من حلال واتفق . يانورهم في الدجى اذا دجا الغسق ، ياحسنهم وسفح الدمع محدق بالحدق ، يالذة تضرعهم وياطيب الملق ، أذاب الخوف أجسامهم فماأبقى إلا الرمق ، ربحت تجارتهم ومتاع الغافل مانفق .

وما كل ماأومي الى العز ناله ودون العلى ضرب يدمي النواصيا

جرت دموع خوفهم في سوافي أسفهم ، الى رياض صفائهم ، فأورقت أشجار وصالهم .

دموعهم تجري كالديم ، يحذرون ناراً تجعل الجسم كالحمم ، يخافون حرها ومن لهم بتحلة القسم ، الليل قد سجا والدمع سجم ، يراوحون بين الجبهة والقدم ، كم بينك وبينهم ، عند النقد تبين القيم ، تالله ما يجعل من نام مثل من لم ينم ، جاءوا من طعام الهوى وأذتك التخم . يا قبيح العزائم ، يا سيىء الهمم ، يا مرذول الصفات يا رديء الشيم ، تالله ما نال الكرامة إلا من قال للكرى : مهْ . إن أردت لحاقهم ، فطلق الكري طلاق البتات ، اخل بنفسك في بيت الفكر ، وخاطبها بلسان النُّصح ، واعزم على الوفاق من غير تردد .

أما آن يا صاح أن تستفيقا وأن تتناسى الحمى والعقيقا
وقد ضحك الشيب فاحزن له وصار مساؤك فيها شروقا
وركبٍ أتاهم وقدْ عرَّسوا على القاع داعي المنايا طروقا

تدير عليهم كؤوس المنو ... ن صبوحاً على كربها أو غبوقاً
وما زال فيهم غراب الحما ... م يسمعهم للمنايا نعيقا
ويحمل في عرصات القصو ... ر حتى أعاد الفسيحات ضيقا
ألا فأحرز النفس عن غيها ... عساك تجوز الصراط الدقيقا
ودون الصراط لنا موقف ... به يتناسى الصديق الصديقا
فتبصر ما شئت كفا تعضُّ ... وعيناً تسح وقلباً خفوقاً
إذا أطبقت فوقهم لم تكن ... لتسمع إلا البكا والشهيقا
شرابهم المهل في قعرها ... يقطع أوصالهم والعروقا
أذلك خير أم القاصرات ... تخال مباسمهن البروقا
قصرن على حبٍّ أزواجهن ... فمشتاقة تتلقى مشوقا
وترفلن في سرقات الحرير ... فتبصر عيناك مرأى أنيقا
وأكوابهم ذهب أحمر ... يطاف بها مترعات رحيقا
إذا جرت الريح فوق الكثيب ... أثارت على القوم مسكا سحيقاً
ويوم زيارتهم يركبون ... اليه من النور نجباً ونوقا
كلوا واشربوا فلقد طالما ... أقمتم بدار الغرور الحقوقا

سبحان من اختار أقواماً للافادة ، فصارت نهمتهم في تحصيل الاستفادة ، ومازالت بهم الرياضة حتى تركوا العادة ، شغلتهم مخاوفهم عن كل عادة ، وأنالهم المقام الأسنى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

كل منهم قد هجر مراده ، وشمّر لتصحيح الإرادة ،عاملوا محبوبهم يرجون وداده ، وعلت همتهم فطلبوا السيادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

رفضوا الدنيا شغلاً بالدين ، وسلكوا منهاج المهتدين ، وسابقوا سابقي العابدين ، فصاروا أئمة المريدين وقادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

هجروا في محبته كل غرض ،وأقبلوا على أداء المفترض ، والتفتوا الى الجوهر معرضين

عن العرض ، فأنحلهم الخوف فعادوا كالحرض ، يا له من مرض لا يقبل عيادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

لو رأيتهم والليل قد سجا ، وقد أقبلوا الى باب المرتجى ، فلم يجدوا ذلك الباب مرتجى ، حلفوا في ظلام الدجى على هجر الوسادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

سبحان من أنعم عليهم وأفادهم ، وأعطاهم مناهم وزادهم ، ما ذاك بقوتهم بل هو أرادهم ، سبقت إرادته تلك الإرادة (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .

اللهم اسلك بنا سبيل عبادك الأبرار ، وانظمنا في سلك المتقين الأخيار ، (وآتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار)البقرة : ٢٠١

اللهم إن مساوينا قطعت عنا الوسائل غير أنّا علمنا أنك رب كريم ، ومولى رؤوف رحيم ، فجرأنا مع قبح أعمالنا علمنا بذلك ، وحملنا مع البعد عنك رجاؤنا وطمعنا في نوالك ، فاستجب لنا يا مولانا بفضلك ، ولا تؤاخذنا يا سيدنا بعدلك ، وارحمنا وعافنا واعف عنا ، وتب علينا وحقق رجاءنا واسمع دعاءنا ، يا أرحم الراحمين ، واغفر لنا ولوالدينا مغفرة عامة ، ولجميع المسلمين .



المجلس الثاني والثلاثون

في ذكر علي رضي الله عنه

الحمد لله الذي أصبحت له الوجوه ذليلة عانية ، وحذرته النفوس مجدّة ومتوانية ، وعظ من قدّم الدنيا الحقيرة الفانية ، وشوّق الى جنة (قطوفها دانية) الحاقة : ٢٣. وخوّف عطاش الهوى أن يسقوا من (عين آنية) الغاشية : ٦.

أحمده على تقويم شانيه ، وأستعيذه من شر شان وشانية ، وأصحّح بتحقيق التوحيد إيمانيه .

وأصلي على رسوله محمد صلاة ممهدة لعز بانية ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر السابق في الوفاق والإنفاق والدار والغربة في الغار ، أربع للفخر بانية ، وعلى عمر مقيم السياسة على كل نفس جانية ، وعلى عثمان الذي اختاره الرسول بعد موت ابنته للثانية ، وعلى علي المنزّل فيه (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) البقرة : ٢٧٤. وعلى سائر آله وأصحابه الذين نفوسهم من كل خير دانية ، وسلم تسليما .

عن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح خيبر : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، قال : فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ . كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل : هو يشتكي عينيه ، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرلك من أن يكون لك حمر النعم » .

اعلم أن علياً رضي الله عنه ، لا يُزاحم في قرب النسب ، وقد أقر الكل بعلمه وفضله ، وبُعث رسول الله ﷺ ، وهو ابن سبع سنين ، فتبعه ، ولم يزل معه يكشف الكروب عن وجهه ، وصعد على منكب رسول الله ﷺ ، فرمى صنماً كما روى أبو مريم رضي الله عنه قال : انطلقت أنا ورسول الله ﷺ حتى أتينا الكعبة ، فقال لي : اجلس ، وصعد على منكبي ، فذهبت لأنهض به ، فرأى مني ضعفاً ، فنزل ، وجلس نبي الله ﷺ ، وقال : اصعد على منكبي ، فصعدت على منكبه قال : فنهض بي قال : وإنه يخيل لي أني لو شئت لنلت أفق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس ، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله ، وبين يديه ومن خلفه ، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله ﷺ : اقذف به فقذفت به ، فتكسر كما تتكسر القوارير ، ثم نزلت ، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ . نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس .

وكان الخلق يحتاجون الى علم علي رضي الله عنه ، حتى قال عمر رضي الله عنه : آه من معضلة ليس فيها أبو حسن ، فلما ولي الخلافة لم يتغير عن الزهد في الدنيا ، وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : إن علياً ما زانته الخلافة بل هو زانها .

ما زانه الملك إذ حواه ... بل كل شيء به يزان
جرى ففاق الملوك سبقاً ... فليس قدامه عنان

وروى الكلبي عن أبي صالح قال : قال معاوية رضي الله عنه لضرار بن ضمرة : صف لي علياً ، فقال : أو تعفيني . قال : بل تصفه . قال : أو تعفيني . قال : لا أُعفيك .

قال : أما إذا لا بدّ فإنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدينا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه لهيبته ، ولا نبتديه لعظمه ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ،

ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لرأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، و كأني أسمعه وهو يقول : يادنيا إلي تعرضت أم لي تشوقت؟ هيهات هيهات غري غيري ، قد بتتك ثلاثاً . لا رجعة لي فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

قال : فذرفت دموع معاوية ، فما يملكها وهو ينشفها بكمه ، وقد اختنق القوم بالبكاء ، فقال معاوية :

رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال : حزن من ذُبح ولدها في حجرها . فلاترقأ عبرتها ، ولاتسكن حسرتها .

أهوى علياً وإيمانٌ محبته　　　كم مشرك دمه في سيفه وكفا

إن كنت ويحك لم تسمع مناقبه　　　فاسمع مناقبه من (هل أتى) وكفا

كان رضي الله عنه خليقاً بالسيادة ؟ إن نظرت في علمه فقد احتاج إليه السادة، وإن نظرت إلى زهده فلافراش ولا وساده ، كان يشبه القمر الزاهر ، والبحر الزاخر ، والأسد الحاذر ، والربيع الباكر . أشبه من القمر ضوؤه وبهاؤه ، ومن الفرات جوده وسخاؤه ، ومن الأسد شجاعته ومضاؤه ، ومن الربيع خصبه وماؤه ، كان يُظن في الكرم بحراً ، وفي لفظه من الحسن سحراً ، وإذا أنشأ فصلًا رأيته يقول فصلا ، وإذا أصَّل أصلا ، لم يستطع أحد مثله أصلا ، بادر الفضائل ، فكان في الأوائل ، وخاض بحر الشجاعة فلم يرض بساحل ، وحاز العلوم فحار لجوابه السائل ، ولازم السحر يسمع هل من سائل ، وزهد في الدنيا لأنها أيام قلائل ، سبحان من جمع له الفضائل والمناقب ، بحر من البراعة ونجمٌ من الشجاعة ثاقب

كريم النجّار عفيف الإزار　　　حوى المكرمات وساد الفخارا

كريم الصنيعة ضخم الرفيعة　　　سهل الشريعة لم يأت عارا

غنى للفقير ونيعم النصير　　　إذا المستجير إليه استجارا

يخوض الغمار ويحمي الذمار ويبني الفخار ويرعى الجوارا

طالت عليه أيام الحياة، فكان يستبطىء القاتل حباً للقائه فيقول: متى يبعث أشقاها، وجيء إليه فقيل له: خذ حذرك. فإن ناساً يريدون قتلك فقال: الأجل جُنَّة حصينة، فلما خرج لصلاة الفجر يوم قتل ألهم أن ترنم فقال:

أشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت لاقيك

ولاتجزع من الموت إذا حل بواديك

يامن لايتعظ بسلف آبائه، يامن لايعتبر بتلف أحبابه، يا أسير أغراضه وقتيل أهوائه يامن عجزت الأطباء عن صلاح دائه، يامشغولاً ببقائه عن ذكر فنائه، يامغروراً قد حل الممات بفنائه، يامعجباً بثوب صحته يمشي في خيلائه، يامعرضاً عن نصيحه مشمتاً لأعدائه يامن يلهو بأمله، ويامن أجله من ورائه، كم رأيت مستلباً من سروره ونعمائه، كم شاهدت مأخوذاً عن أحبابه وأبنائه، بينا هو في سروره دب الموت في أعضائه، بينا جرعة اللذة في فيه شرق بمائه، بينا ناظر البصر يعجبه صار عبرة لنظرائه، ماله ضيّع ماله وبقي في بلائه.

باتت همومي تسري طوارقها أكفُّ عيني والدمع سائقها

اقترب الوعد والقلوب إلى اللهـو وحب الحياة سابقها

مارغبت الناس في البقاء وإن عاشت قليلاً فالموت لاحقها

وكلما جمعت وأعجبها من عيشها مرة مفارقها

يوشك من فرَّ من منيته في بعض غرَّاته يوافقها

فصل

في قوله تعالى (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا)

الأبرار: واحدهم برٌّ وبار، وهو الصادق المطيع (يشربون من كأس) أي: من إناء فيه شراب (كان مزاجها) أي: الكأس (كافوراً) والمطلوب من الكافور

برده وريحه (عيناً يشرب بها) أي : منها (عباد الله) أي أولياوه (يفجرونها تفجيراً)

قال مجاهد : يقودونها إلى حيث شاؤوا من الجنة (يوفون بالنذر) أي : كانوا يوفون بالنذر إذا نذروا في طاعة الله تعالى (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) أي : فاشياً منتشراً إذا انشقت السماء ، وتناثرت الكواكب ، وكوِّرت الشمس والقمر ونسفت الجبال ، وغارت المياه وتكسر كل ماعلى وجه الارض من بناء وجبل (ويطعمون الطعام على حبه) . أي : على حب الطعام ، والمعنى وهم يشتهونه .

وقال أبو سليمان الداراني : على حب الله عز وجل (مسكيناً ويتيما وأسيراً) .

وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنها نزلت في علي بن أبي طالب. آجر نفسه يسقي نخلاً بشيء من شعير ليلة حتى أصبح فلما قبض الشعير طبخوا ثلثه وأصلحوا منه مايأكلون ، فلما استوى رأى مسكيناً فأخرجه إليه ، ثم عملوا الثلث الثاني ، فلما تم أتى يتيم فأطعموه ، ثم عملوا الباقي فلما تم أتى أسير من عند المشركين فأطعموه وطووا ، فنزلت هذه الآية (إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولاشكوراً)

قال سعيد بن جبير : ماتكلموا بذلك ، وإنما علمه الله تعالى من قلوبهم فأثنى عليهم (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا) العبوس : الذي تعبس فيه الوجوه ، فجعل ذلك من صفة اليوم ، والقمطرير : الشديد (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) بطاعتهم في الدنيا (ولقاهم نضرة) أي : حسناً وبياضاً في الوجوه (وسروراً) في القلوب (وجزاهم بما صبروا) على طاعته (جنة وحريراً) وهو لباس أهل الجنة (متكئين فيها على الأرائك) هي السرر في الحجال (لايرون فيها شمساً ولازمهريراً) وهو البرد الشديد (ودانية عليهم ظلالها) أي : قريبة منهم ظلال أشجارها (وذللت قطوفها تذليلاً) يتناولون منها قياماً وقعوداً ومضطجعين (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) وهي الاباريق التي لاعرى لها (كانت قواريراً ، قوارير من فضة) أي : تلك الاكواب قوارير ولكنها من فضة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لوضربت فضة الدنيا حتى تجعلها مثل جناح الذباب

لم يُر الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة في صفاء القوارير (قدروها تقديراً) فيه قولان .

أحدهما : قدروها في أنفسهم فجاءت على ماقدّروا .

والثاني : قدروها ، أي : السُّقاة والخدم على مقدار مايحتاج إليها السادة فلا تزيد على ريهم (ويسقون فيها) أي : الجنة (كأساً كان مزاجها زنجبيلا) وهو معروف في الدنيا يؤكل رطباً فشراب الجنة على برد الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك (عيناً فيها تسمى سلسبيلاً) السلسبيل : صفة لما كان عليه من غاية السلاسة ، وسهولة مدخله في الحلق (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم) منتشرين في الخدم (حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وإذا رأيت ثَمَّ) يعني: في الجنة رأيت (نعيما) لايوصف (وملكا كبيراً) أي: واسعاً لايريدون شيئاً إلا قدروا عليه ، ولا يُدخل عليهم إلا باستئذان (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق) السندس : رقيق الديباج ، والاستبرق : غليظه (وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) لايحدثون عنه ولايبولون (إن هذا) الذي وصف من النعيم (كان لكم جزاءً) بأعمالكم (وكان سعيكم) في الدنيا بطاعة الله (مشكوراً) الدهر : ١-٢٢ . قال عطاء : شكرتم عليه ، وأثبتكم أفضل الثواب .

وقد ذكرنا أن هذا نزل في حق علي رضي الله عنه وأهل بيته لإيثارهم بالطعام . كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد خطب فاطمة من رسول الله ﷺ ، فقال : أنتظر بها القضاء ، فخطبها عمر ، فقال له مثل ماقال لأبي بكر . فقال أهل علي لعلي : اخطب فاطمة ، فأتى رسول الله ﷺ فسلم عليه فقال : ماحاجتك؟ فقال: ذكرت فاطمة. فقال: مرحباً وأهلاً . فخرج فأخبر الناس بما قال فقالوا : قد أعطاك الاهل والرحب ، ثم قال له : ماتُصدقها؟ فقال ماعندي ماأُصدقها . قال : فأين درعك الحطمية ؟ قال : عندي . قال : فأصدقها إياها فتزوجها .

فأهديت إليه ومعها خميلة ومرفقة من أدم حشوها ليف ، وقربة ، ومنخل ، ورحىً ، وجرتان . ودخلت عليه ومالها فراش غير جلد كبش ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه الناضح بالنهار وكانت هي خادم نفسها ، تالله ماضرها ذلك .

وفي «الصحيحين» ان رسول الله ﷺ قال لها : ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامة أو نساء المؤمنين؟

لما تبختر جمال فاطمة في جلباب كمالها ، حين شروع الشرع في وصف جلالها ، نهض الصدّيق خاطباً لها في خطابه ، فسكت الرسول عن جوابه ، فنهض عمر نهوض الليث من غابه ، فلم يجبه فاشتد الجوى به ، فلما نقل عليّ أقدامه لخطبتها وجد الوحي قد سبقه قدامه ، إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي فتزوجها في صفر ، وبنى بها في ذي الحجة فولدت له الحسن في نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وولدت الحسين لثلاث خلون من شعبان سنة أربع .

وروى أبو سعيدعن النبي ﷺ أنه قال : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جلل الحسن والحسين وعلياً وفاطمة كساء ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

فقالت أم سلمة : وأنا معهم ؟ قال : إنك الى خير . وكان أحمد بن حنبل رحمه الله إذا سئل عن علي وأهل بيته قال : أهل بيت لا يقاس بهم أحدٌ .

يا بني بنت النبي المصطفى	حبّكم ينفي عن المرء الظنن
إن لله علينا مننا	حبكم شكر لهاتيك المنن
أنتم من لم يرد معطي الهدى	غير ودّ الناس إياكم فمن
أنا عبد الحق لا عبد الهوى	لعن الله الهوى فيمن لعن

لما وقف المسكين ببابهم ، آثر عليٌّ فوافقت فاطمة ، لما جاءت المدحة على الإيثار ، ووصف نعيم الجنة لم يذكر في ذلك الحور ، حفظاً لقلب فاطمة ، وكيف تذكر الحور ، وهم مماليك مع الحرة ، سبحان من كسا أهل البيت نورا ، وجعل عليهم خندقاً يقي الرجس وستوراً ، فإذا تلقوا يوم القيامة تلقوا حبوراً ، (إن هذا كان لكم جزاءاً وكان سعيكم مشكوراً).

ادّخرنا لكم نعيما مقيما ، ومنحنا كم فضلًا جزيلًا عميما ، وجزينـــا من كان للفقراء رحيما ، أوليس أطعمتم مسكيناً ويتيما ، ورحمتم مأسوراً (وكان سعيكم مشكوراً) .

من مثل عليٍّ ، من مثل فاطمة ؟ كم صبرا على أمواج بلايا متلاطمـــة ، وآثرا الفقراء ونار الجوع حاطمة ، فلهم نضـــارة الوجوه والأهوال للوجوه خاطمة ، يا سرعة ما انقلب حزنهم سروراً (وكان سعيكم مشكوراً) .

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ أحب الناس اليه ، وكان علي رضي الله عنه أعز الخلق عليه ، وجعل الله ريحانتيه من الدنيا ولديه ، فإذا أحضر الحق غداً عنده ولديه ، أكرمهم إكراماً عظيما موفورا (وكان سعيكم مشكورا) .

واعجباً ! ذكر في هذه الآيات نعيم الجناب من الملبوس والمشروب والمطعومات ، والآرائك والقصور والعيون الجاريات ، ولم يذكر النساء وهن غاية اللذات ، احتراماً لفاطمة أشرف البنات ، ومن يصف الزهراء لا يذكر حوراً (إن هـذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) .

اللهم يا أكرم من رجي ، ويا أحق من دعي ، ويا خير من ابتغي ، امـــنن علينا بغفرانك ، وعاملنا بفضلك وإحسانك ، وهب لنا نوراً من أنوارك ، وذكراً من أذكارك ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، واجعل لنا لسان صدق بين عبادك ، واجعلنا من ورثة جنتك ، ونجنا من عذابك ونقمتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين . آمين .



المجلس الثالث والثلاثون

في فضل عائشة رضي الله عنها وأزواج رسول الله ﷺ

الحمد لله الواحد القديم ، الماجد العظيم ، المنان الكريم ، الرحمن الرحيم ، أنعم بالعطايا فإنعامه عميم ، وستر الخطايا فهو الغفور الحليم ، ابتلى كما شاء وهو بما يكون عليم ، فالواجب في بلائه الرضا والتسليم .

سافرت عائشة مع الرسول وكان يخصها بالتقديم ، فانتزحت لشغلها والشغل بها عظيم ، فحملوا هودجها ظناً ان في الكناس الريم . فصادفها صفوان وقلب الرجل سليم . فبلغها قول من بات يأفك ويهتك الحريم . فما زال السليم يبكي مثل بكاء السليم . حتى بدأ هلال الهدى في ليل البلاء البهيم (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم لهم عذاب عظيم)النور : ١١ .

أحمده كلما عمت الغافلين غفلاتهم . وأصلي على رسوله محمد الذي هلكت به عزاهم ولاتهم . صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي سلمت اليه قبل الموت صلاتهم . وعلى عمر الذي تقومت بعدله حالاتهم . وعلى عثمان منفق المال إذا مالت بالبخلاء آفاتهم . وعلى علي الزاهد في الدنيا إذا منعت أربابها شهواتهم . وعلى أزواج النبي الطاهرات اللواتي نزهت جهاتهم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) الاحزاب : ٦ . وعلى سائر آله وأصحابه الذين حمدت مسعاتهم . وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم) :

أجمع المفسرون على أن هذه الآية وما يتعلق بما بعدها نزلت في قصة عائشة رضي الله عنها . والإفك : الكذب ، والعصبة : الجماعة .

وفي المخاطب بقوله : (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) قولان :

أحدهما : عائشة وصفوان بن المعطل ، والثاني : رسول الله ﷺ. وأبو بكر وعائشة رضي الله عنهما .

والمعنى : أنكم تؤجرون فيه . والأجر يغطي المكروه . وفي هذا تسلية للانسان فيما يصيبه من المكاره . وليعلم أنه ما سلم أحدٌ من شر الناس .

(لكل امرىءٍ منهم) يعني : من العصبة الكاذبة (ما اكتسب من الإثم) أي : جزاء ما اجترح من الذنب . على قدر خوضه فيه .

واعلم أن رسول الله ﷺ . كان يقدم عائشة على جميع أزواجه .

وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ: رأيتك في المنام ورجل يحملك في سرقة من حرير . فيقول هذه امرأتك ؟ فأقول : إن يكن هذا من عند الله يمضه .

وقد كان عليه الصلاة والسلام تزوج خديجة رضي الله عنها أول من تزوج ، فولدت له القاسم . وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ولد في الإسلام فلقب باللقبين ، ومن الإناث زينب ، ورقية وأُم كلثوم وفاطمة ، ولم يتزوج على خديجة حتى ماتت فتزوج سودة ، ثم عائشة ، وتزوج حفصة ، فطلقها تطليقة ، فقال له جبريل: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة فراجعها ،وتزوج أُم سلمة ،وأم حبيبة ، وزينب بنت جحش ،وزينب بنت خزيمة ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حُيي ، وميمونة بنت الحارث .

ولما تعبت خديجة في تربية الأود أتاه جبريل فقال : اقرىء عليها السلام من ربّها ، ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ، ولا نصب .

ولما خطب زينب بنت جحش ،قالت : ما أنا صانعة شيئاً حتى يأمرني ربي ! فقامت الى مسجدها ونزل القرآن في نكاحها ، فجاء الرسول فدخل عليها وكانت صواءة قوامة تعمل بيدها وتتصدق .

وكان آثر الكلّ عنده عائشة رضي الله عنها ، لأنها جمعت الجمال والكمال ، في الذكاء والفطنة ، وفي العلم والفصاحة ، فبنى بها وهي بنت تسع سنين .

وفي « الصحيحين » من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أيّ الناس أحب اليك ؟ قال : عائشة . قال : من الرجال ؟ قال : أبوها . قال : ثم من ؟ قال : عمر .

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه : أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء . فكان في بيت عائشة حتى مات .

وفي « أفراد البخاري » من حديث عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال لأمّ سلمة : لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها .

وعن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت رسول الله ﷺ ، واضعاً يده على معرفة فرس وهو يكلم رجلا . فقلت : يا رسول الله ، رأيتك واضعاً يدك على معرفة فرس دحية الكلبي وأنت تكلمه . قال : ورأيتِ ؟ قلت : نعم . قال : ذاك جبريل وهو يقرئك السلام ، قلت : وعليه السلام .

وقال أبو موسى : ما أشكل علينا ـ أصحاب رسول الله ﷺ ـ حديث فسألنا عائشة رضي الله عنها ، إلا وجدنا عندها منه علماً .

وقال عروة : ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ، ولا بحلال ، ولا بحرام ، ولا بشعر ولا بحديث العرب ، ولا بنسب من عائشة . وكانت غزيرة الكرم ، قسّمَت يوماً سبعين ألفاً ، وهي ترقع درعها ، وكانت كثيرة التعبُّد .

وعن ذكوان أنه جاء عبد الله بن عباس يستأذن على عائشة قال : فجئت وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن فقلت : هذا ابن عباس يستأذن . فقال لها ابن أخيها : هذا عبد الله بن عباس وهي تموت . فقالت : دعني من ابن عباس ، قال : يا أُماه ... إن

ابن عباس من صالحي بنيك يسلم عليك ويودعك . فقالت : ائذن له إن شئت . فأدخلته .

فلما جلس قال : أبشري ما بينك وبين أن تلقي محمداً ﷺ ، والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، كنت أحبَّ نساء رسول الله ﷺ اليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحبُّ إلا طيباً ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء . فأصبح رسول الله ﷺ ، في المنزل، وأصبح الناس ليس معهم ماء ، فأنزل الله تعالى أن يتيمموا صعيداً طيباً فكان ذلك في سببك ، وأنزل براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه الله ، إلا تتلى فيه آناء الليل وآناء النهار ، فقالت : دعني منك يا ابن عباس : والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً .

بادر الأيام فالمو ت من الحي قريب
بينما يخطر في أهل الحمى لا يستريب
إذ حواه اللحد يوماً مفرداً فهو غريب
خذ نصيباً قبل أن يعجزك الدهر النصيب
واحذر الأخرى لهو ل يومه يوم عصيب
يوم لا يسلم مغرو ر ولا ينجو مريب
وأصخ للناس أذ نيك فالأمر عجيب
كم ترى يسمعك النصح وكم لا تستجيب

يا من تجبّر عن مولاه وتمرد ، واستل سيف البغي وجرد ، كم ينعم عليك فتنسى وتجحد ، كم تشيّع من ميت وترى لحد ملحد ، يا قليل الزاد وألوية الرحيل تعقد ، يامن بين يديه النار بالأحجار توقد ، يا قليل الانتفاع بالوعظ الى كم تتردد ؟

يا قبيح المتجرد كم علينا تتمرد
كم نراعيك ونوليك وللاحسان تجحد
كم أناديك بوعظي أترى قلبك جلمد

كم ترى أنت على　　السر عليه تتردد
أوما تجزع من نا　　ر على العاصين توقد

فصل

في قوله تعالى : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) النور : ١١ .

قد تقدم أن هذا نزل في حق عائشة رضي الله عنها حين قذفت . ومعنى (كبره) معظمه والذي تولى ذلك هو ابن أبيّ .

وروى الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عتبة عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ . حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ! فبرأها الله عز وجل . وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض ،وأثبت اقتصاصاً وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني ، وبعض حديثهم يصدّق بعضاً .

ذكروا أن عائشة زوج النبي ﷺ . قالت : كان لرسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه .

قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، فأنا أُحمل في هودجي وأُنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل ، ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت الى الرحل فلمست صدري فإذا عقد من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرّهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي فطرحوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه . قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج ، حين رحّلوه ورفعوه ،

وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش وجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي .

فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرّس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني ، فعرفني حين رآني ، وقد كان رآني قبل أن يضرب علي الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي .

والله ما كلمني كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني . وكان الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني في وجعي ، إني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذاك يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت ، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا الى ليل ، وذاك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزّه ، وكنا نتأذى بالكنف عند بيوتنا .

فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي درهم ابن المطلب ، ويقال بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها ، مسطح بن أثاثة ، فأقبلت أنا وبنت أبي درهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا .

فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت تسبّين رجلاً قد شهد بدراً . قالت : أي هنتاه ، أولم تسمعي ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟.

فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً الى مرضي .

فلما رجعت الى بيتي فدخل علي رسول الله ﷺ ، ثم قال : كيف تيكم . قلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلها .

فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبويّ ، فقلت لأمي : يا أماه ما يتحدث الناس. قالت : أي بنية، هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : قلت : سبحان الله ! أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله ﷺ ، علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله . قالت : فأما أُسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : لم يضيّق الله عليك ، والنساء كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت : فدعى رسول الله ﷺ بريرة فقال : أي بريرة ! هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟

قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه ،أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله .

فقام رسول الله ﷺ ، فاستعذر من عبد الله بن أبي فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فقام سعد بن معاذ الأنصاري ، فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله .

فقام أُسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعُمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ ، قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ ، يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت.

قالت : وبكيت يومي ذلك لايرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لايرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي .

فبينما نحن على ذلك ، دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل لي ماقيل ، وقد لبث شهراً لايوحى إليه في شأني بشيء ، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد ياعائشة : فإنه بلغني كذا و كذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ماأحس منه قطرة . فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ ، فقال : والله ماأدري ماأقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ماأقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لاأقرأ كثيراً من القرآن : إني والله قد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة لاتصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر الله عز وجل يعلم أني بريئة ، لتصدقني ، وإني والله ماأجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) يوسف : ١٨ .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله عز وجل مبرّئي ببراءتي ، ولكن والله ماكنت أظن ان ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله جل وعز بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤياً يبرئني الله عز وجل بها .

قالت : فوالله ماقام رسول الله ﷺ من مجلسه ولاخرج من أهل بيته أحد . حتى أنزل الله على نبيه ﷺ ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدّر منه

مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي، من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت :

فلما سري عن رسول الله ﷺ، وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ أن قال: «أبشري ياعائشة أما والله عز وجل فقد برّأك».

قالت لي أمي : قومي إليه . فقلت : والله لاأقوم إليه ولاأحمد إلا الله عز وجل وهو الذي أنزل براءتي فأنزل الله عز وجل : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) النور: ١١ . عشر آيات .

قالت : فقال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره : والله لاأنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة.

فأنزل الله عز وجل (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) النور : ٢٢ .

فقال أبو بكر : بلى والله ، إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه ، وقال : لاأنزعها منه ابداً .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري ماعلمت او مارأيت أو مابلغك ؟

قالت يارسول الله : أحمي سمعي وبصري والله ماعلمت إلا خيراً .

قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله عز وجل بالورع ، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك » .

هذا حديث متفق على صحته ونحن نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من اعتقاد من لايُسمى فإنهم يعتريهم عند ذكر عائشة حمّى !

أما أهل السنة فقلوبهم بالفرح عند مدح عائشة طائشة . وأما الرافضة فتأخذهم حمى نافضة . وفضائلها كثيرة بعضها يكفيها ، وحسبها أن الله سبحانه أنزل آيات تتلى فيها . ومما أنشده عاصم بن الحسن لنفسه :

وحق من بعلها النبي ومن   والدها المرتضى أبو بكر

لا حلت عن مدحتي لها أبداً   حتى أُوارى في ظلمة القبر
طـاهرة تنتمي إلى نسب   شرَّفه الله منـــه بالفخر
لما رموهـا لادَرَّ درُّهم   بالزور والإفك عصبة الشر
برَّأها الله من مقـــالتهم   بغير شك في محكم الذكر
فمـــا لها مشبه يشاكلها   وحق طـــه وليلة القدر
وكم لهـا من فضيلة نطقت   بها وذكر يبقى على الدهر
قالت : توفى النبي خالقـه   مابين سحري وملتقى نحر
فـلا رعى الله من تنقصها   فما له في المعاد من عذر

هي اختيار العظيم العليم للنبي ، ومذ طفولتها تعرف بالعز الأبي ، ولها عقل الكبار في سن الصبي ، وهل يضرها قول الجهول الغبي ، أو يقدح في ريح المسك الذكي إلا بهيم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم .

ماتزوج الرسول بكراً سواها ، ولا أحب زوجة كحبه إياها ، جاء بهـا الملَك في سرقة فجلاها . وتكلم الله تعالى ببراءتها فسبحان من أعطاها . وما يرمي الأصحاء بالسقم إلا سقيم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

ماخفي على حسادها طهارة ذيلها ، غير أن الطباع الردية في ميلها ، هجمت عليهـا الأحزان برجلها وخيلها . فكانت طول نهارها وطول ليلها ، تبكي بكاء اليتيم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

مدوا أبواعهم إلى عرضها فما نالوا ، واكثروا القول باطناً وظاهراً واحتالوا ، ونوعوا أسباب القذف وتكلموا وطالوا ، وهي على طهارتها مما قالوا في مقعد مقيم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

تكلموا فيها بالتوهمات ، وراموا نيل السماء وهيهات ، ياعائبها إن عرفت عيباً فهات كفى الله شر عقوق الأمهات ، فإنه قبيح ذميم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم).

ما كان سوى غم تجـلى ، وانصرف الحزن وتولى ، بالفرح الذي تولى ، ولبس الممدوح أحسن الحلى وتحلى ، وحمل القاذف إثماً وكلاًّ ، أيقدح العقلاء في أمهاتهم ، كلا هي منهم عقيم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

حوشيت من ريب أو فجور . إنما زيدت بما جرى في الأجور . تنزهت أم العدول أن تجور ، وإنمـا وقعت في أغباش الظلام الديجور . ثم بان النور في سورة النور . فنزل في الكلام القديم (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) .

اللهم وفقنا لسبيل الطاعة . وثبتنا على اتباع السنة والجماعة . ولا تجعلنا ممن عرف الحق وأضاعه واختم لنا بخير منك يا كريم واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين . آمين .



المجلس الرابع والثلاثون

في فضل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله القديم الأحدي ، العظيم الصمدي ، الدائم الأبدي ، القائم السرمدي . رفع بقدرته السماء . وأجرى بحكمته الماء ، وعلم آدم الأسماء ، وأمكنه من العيش الهني فخالف بالأكل الصواب ، فكشف الخلاف عنه الجلباب ، فخرج ومايعرف الباب. لشؤم ارتكاب النهي فما زال يبكي الهفوات ، ويستدرك سالف الفوات ، حتى عطف على تلك العبرات . رحمة الراحم الحفي ، فاحذر من الأفعال الخباث ، فإنها سبب الالتياث ، وتعلق بالمستغاث ، ينقذك من جهل العمي ، تفرد بالإنعام والجود ، وأذل الأعناق له بالسجود . تنزه عن مشابهة كل موجود بالوجود الأزلي . موصوف بالرضى ، ويحذر منه السخط ، ومعروف بالكرم فإياك والقنط ، شرط عليك التقوى ، فقم بالذي شرط فإنه لاينسى أجر التقي . قضى القضاء قبل خلق الخلق وفرغ . وأنزل القرآن والزمن من النذر قد فرغ (لينذركم به ومن بلغ) باللسان العربي ، وهو المكتوب المسموع المعروف ، المحفوظ المتلو المألوف ، والمتكلم به بالكلام موصوف ، أنزله روح القدس على قلب النبي ، لايخلق على كثرة التكرار ولايبلى ، ولايقدر الخلق على مثله حاشا وكلا ، تعرف الملائكة كل بيت فيه يتلى ، معرفتهم بالكوكب المضيء.

أحمده على الفهم القويم القوي ، وأستعيذه من الشيطان الرجيم الغوي ، وأشهد بالتوحيد شهادة خالصة من الشك الردي.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله استخرجه من العنصر الزكي ، ونصره بالرعب قبل المشرفي ، وأرسله بالدليل الواضح الجلي ، وزهده في مجالسة الغني ، ورغبه في صحبة الفقير ،

الضعيف القصي ، وعاتبه في صهيب الرومي ، وبلال الحبشي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغـــداة والعشي) الانعام : ٥٢ . فصلى الله على سيدنا محمد الهاشمي القرشي ، المكي التهامي ، الزمزمي الأبطحي ، وعلى صاحبه المخصوص بفضيلة (ثاني اثنين) وهو في القبر مضاجعه كهاتين ، كيف لا وقد كانا رفيقين ، في الزمان الجاهلي ، وعلى الذي كانت الشياطين تفرق من ظله ، وتتفرق هيبة من أجله ، إذا سمعوا خفق نعله ، هربوا من الأحوذي وعلى مصابر البلاء ، من أيدي الأعداء ، الذي تستحي منه ملائكة السماء ، سلام الله على ذلك الحيي ، وعلى الذي ملىء علماً وخوفاً ، وعاهد على ترك الدنيا فأوفى ، ونحن والله بحبه أوفى من حب الرافضي ، وعلى جميع أصحابه وأزواجه وأتباعه على منهاجه ما قام مكلف بالفرض الرسمي ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (محمد رسول الله والذين معـــه أشداء على الكفار رحماء بينهم) الفتح : ٢٩

قال ابن عباس شهد له بالرسالة (والذين معه) يعني : أصحابه (أشداء) جمع شديد (رحماء) جمع رحيم ، والمعنى : أنهم يغلظون على الكفار ويتوادون بينهم (تراهم ركّعاً سجداً) يصف كثرة صلاتهم (يبتغون فضلاً من الله) وهو الجنة (ورضواناً) يعني رضا الله عنهم (سيماهم) أي : علامتهم (في وجوههم من أثر السجود) وهل هذه العلامـــة في الدنيا أو في الآخرة في ذلك قولان .

أحدهما : في الدنيا ، وهي السمت الحسن ، والخشوع والوقار ، والتواضع . وقيل : نداء الطهور ، وأثر التراب على الجباه . وقيل : اصفرار الوجه من أثر السهر .

القول الثاني : أنها في الآخرة ، وهي أن موضع السجود من وجوههم يكون أشد بياضاً يوم القيامة ، وقيل : هي أنهم يبعثون غرّاً محجلين من أثر الطهور (ذلك مثلهم) أي : صفتهم .

والمعنى : أن صفة محمد ﷺ وأصحابه في التوراة هذا ومثلهم في الانجيل ، أي هذا المثل المذكور في التوراة ، هو مثلهم في الإنجيل . وقيل : ان المتقدم مثلهم في التوراة ، وأما

مثلهم في الإنجيل، فهو كزرع . وقيل : إن مثلهم في التوراة والإنجيل (كزرع أخرج شطأه) أي : فراخه (فآزره) أي ساواه وصار مثله (فاستغلظ) أي: غلظ (فاستوى على سوقه) وهو جمع ساق (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) وهذا مثل ضربه الله عز وجل للنبي ﷺ إذ خرج وحده فأيده بأصحابه كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها ، حتى كثرت وغلظت واستحكمت .

روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (كزرع) قال الزرع: محمد ﷺ (أخرج شطأه) أبو بكر (فآزره) بعمر (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلي (يعجب الزراع) قال : المؤمنون . (ليغيظ بهم الكفار) أي : يقول عمر رضي الله عنه لأهل مكة لا يعبد الله عز وجل بعد يومنا هذا سراً .

قال مالك بن أنس رحمه الله : من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية . واعلم أن فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة وكان لسبقهم سببان .

أحدهما : خلوص البواطن من شك بقوة اليقين ، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ بقوله : « ماسبقكم أبو بكر بكثير صوم ولاصلاة ، ولكن بشيء وقر في صدره » .

والثاني : بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد ، وقد علم ماجرى لموسى مع أصحابه وعلم صبر صحابتنا .

ولما استشار رسول الله ﷺ الناس يوم بدر ، قال المقداد: لو ضربت بطونها حتى تبلغ برك الغماد لتابعناك ، ولا نقول كما قال قوم موسى . اذهب أنت وربك فقاتلا .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : كان أصحاب رسول الله ﷺ خير هذه الأمة أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً . قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه .

وروي عنه ﷺ أنه قال « إن الله اختارني واختار لي أصحاباً فجعل لي منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » .

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتسبُّوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُد أحدهم ولا نصيفه » . فسبحان من خصهم بهذه الفضائل وحرسهم من القصور والرذائل .

لله در أناس أخلصوا عملاً ... على اليقين ودانوا بالذي أُمروا
أولاهم نعماً فازداد شكرهم ... ثم ابتلاهم فأرضوه بما صبروا
وفوا له ثم وافوه بما عملوا ... وأنه سيوفِّيهم إذا نشروا

يا مؤثراً على العِرض العرَض ، ياصحيحاً قد قتله المرض ، ياجامعاً المال والعمر قد انقرض ، ياهدف البلايا سيصاب الغرض ، يابائعاً للدين بنيل الغرض . من لك إذا ضقت عند الأهوال ذرعاً ، وحالت منك الحُلا وأجدب المرعى ، واجتث منك البلاء أصلا وفرعا ، وسالت الأماقي إذ لم ينفع الراقي دمعاً ، ولم تستطع للأذى رداً ولا للردى دفعاً ، وأخرس الموت منك لساناً وأصم سمعاً ، وأضحى خشن التراب بعد لين الثياب لك درعاً ، وأصبحت ملقى بين أقوام في الثرى صرعى ، لقد نطقت الغيَر بالعبَر ، ولقد خبر الأمر من عنده خبر ، وإنما ينفع البصر ذا بصر ، فاعجبوا لمقصر عمره في قصر ، يامن لا يرى من توبته إلا الوعود ، فإذا تاب فهو عن قريب يعود ، أرضيت بفوت الحبر والسعود؟ أما علمت أن الجوارح من جملة الشهود؟ وأن حوض الموت عن قليل مورود ، وأن العمر محسوب معدود ، والله إن القيامة لتشيِّب المولود ، والوجوه غداً بين بيض وسود ، إلى كم هذا الصبا والمزاح؟ أأبقى الشيب موضعاً للمراح؟ لقد أغنى الصباح عن المصباح ، وقام حرب المنون من غير سلاح ، ونطقت ألسن القنا بالوعظ الصُّراح ، وأسفاً صمَّت المسامع والمواعظ فُصاح ، وأنَّى بالفهم لسكران غير صاح ، أسكرك الهوى سكراً شديداً لا يُنزاح ، وما تُفيق حتى يقول الموت لا براح متى تظهر عليك سيماء المتقين ، متى تتوق

إلى مقام السابقين ، كأنك بك تذكر قولي وقد عرق الجبين ، وخابت الآمال وعبثت الشمال باليمين ، وبرق البصر وجاء الحق اليقين ، ولا ينفع الانتباه حينئذ يا مسكين.

وعظتك أجداث صمت — ونعتك أزمنة خفت
وأرتك قبرك في القبور — وأنت حي لم تمت

فصـــل

في قوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الانعام: ٥٢ .

روى مسلم في «صحيحه» عن سعد بن وقاص رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهؤلاء فاطردهم عنك ، فدخل من ذلك على رسول الله ﷺ ما شاء الله فنزلت هذه الآية .

وعن خبّاب بن الأرتّ قال : جاء الأقرع بن جابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدا رسول الله ﷺ قاعداً مع عمار وصهيب وبلال وخباب في أناس من ضعفاء المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم فخلوا به فقالوا : إن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد ، فإذا جئناك فأقمهم عنا ، قال : نعم . قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ، فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب ، ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام فقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) الى قوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) .

فرمى رسول الله ﷺ الصحيفة ودعانا ، فأتيناه وهو يقول : سلام عليكم فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبتيه ، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله عز وجل : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم) الكهف: ٢٨. قال : فكنا بعد ذلك نقعد مع النبي ﷺ

فإذا بلغنا الساعة التي كان يقوم فيها ، قمنا وتركناه وإلا صبر أبداً حتى نقوم. قوله: (يريدون وجهه) أي : يريدونه بأعمالهم. كانوا يصبرون على الجماعة ، ويخلصون الطاعة، ولا يضيعون ساعة ، فيا فخرهم إذ قامت الساعة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار ، وإما كساء قد ربطوها في أعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته . رواه البخاري .

وأقبل مصعب بن عمير يوماً الى رسول الله ﷺ وعليه قطعة من نمرة قد وصلها بإهاب ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد رأيت هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة في حب الله ورسوله » .

ولما كان يوم أحد كان معه لواء المهاجرين فضربه ابن قمئة فقطع يده، ومصعب يقول: (وما محمد إلا رسول) آل عمران: ١٤٤. وأخذ اللواء بيده اليسرى فقطعها فجثا على اللواء وهو يقول : (وما محمد إلا رسول) فقتل ولم يوجد له كفن إلا نمرة ، كانوا إذا وضعوها على رأسه ، خرجت رجلاه فجعلوا على رجليه شيئاً من الاذخر .

وقال سعد بن أبي وقاص : لقيت عبد الله بن جحش يوم أحد فقال : يا سعد ألا تدعو الله عز وجل : فدعا عبد الله ، فقال : يا رب إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه أقاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله ، من جدع أنفك وأذنك فأقول : فيك وفي رسولك فتقول : صدقت .

قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار ، وإن أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط .

لله در أقوام جليت أبصارهم فشاهدوا ، وأعطوا سلاح المعونة فجاهدوا ، تأملوا الدنيا وسبروها ، وعرفوا حالها وخبروها ، فجدت ركائب سيرهم في إدلاج سراها ، وزادها نشاطاً حادي الهمة لما حداها ، فسبقت إلى الحلال الكرائم ، ووصلت الى الافضال وأنت نائم .

قال كعب : إذا وضع العبد الصالح في قبره احتوشته أعماله الصالحة ، فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه ؛ فتقول الصلاة : اليكم عنه لا سبيل لكم عليه ، فقد أطال القيام لله عز وجل .

فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله في في دار الدنيا .

فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : اليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه .

فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله عز وجل .

فيقال له نم هنيئاً ، طبت حياً وميتاً ، وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرشه فراشاً من الجنة ، ودثاراً من الجنة ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة ، فيستضيء بنوره الى يوم القيامة .

وقف بعض الحكماء على المقابر فقال : يا أهل القبور ، أصبحتم نادمين على ما خلفتم في البيوت . وأصبحنا نقتتل على ما ندمتم عليه ، فما أعجبنا وأعجبكم .

يا أيها الواقف بالقبور	بين أُناس غيّب حضور
قد سكنوا في خرب معمور	بين الثرى وجندل الصخور
ينتظرون صيحة النشور	لا تك عن حظك في غرور

يا من يوعظ وكأنه لا يسمع ، يا مشغولاً بما يفنى وهو يحوي ويجمع ، يا من شاب وما تاب ، في أي شيء تطمع ؟ يا غافلا ، والموت على أخذه قد أزمع ، ستعلم يوم عرض الكتاب ، وسوء الحساب ، عين من تدمع ، إذا جاء يوم الرحيل ، وضاق رحب السبيل ، ما تصنع ؟ ليت شعري بماذا تتقي هول ذلك المصرع ؟ عجباً لك تؤثر ما يفنى ، وتعلم أن ما يبقى أنفع ، يا من أمارات طرده من وجه صده تلمع ، لقد نادانا لسان حالك بدوام القبيح من أعمالك . غير أنا فيك نطمع .

كم تعذلون وعذلكم لا ينفع ، ضاع الحديث فكلموا من يسمع .

يا هذا : لو صحت منك العزيمة ، أوقعت جيش الهوى في هزيمة ، إن أردت النعيم في حضيرة القدس ، أو اشتاق سمعك الى نغمات الأنس ، فصم عن لذات النفس ؛ وشهوات الحدس ، واصبر على مفاوز الحزن ، واقطع أمل الهوى بسهم العزم ، واقرع فضول الكلام بسوط الصمت ، وفرّغ دار عزلتك من شواغل القلب .

وقد صمت عن لذات دهري كلها　　　ويوم لقاكم ذاك فطر صيام

لله در أقوام أخلصوا الأعمال وحققوها وقيدوا شهواتهم بالخوف وأوثقوها ، وسابقوا الساعات بالطاعات فسبقوها ، وخلصوا أعمالهم من إشراك الرياء وأطلقوها ، فعن إبعاد مثلهم وقع لهم نهي النبي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

صعدت أعمالهم بالإخلاص صافية ، وأصبحت نفوسهم عن الدنيا متجافية ، فالناس في اختلاط ، والقوم في عافية ، ففاق المولى منهم على الرئيس القرشي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

دموعهم بالاحداق محدقة ، رؤوسهم في الاسحار مطرقة ، وأكفهم مما تكسبه في الخير منفقة ، ونفوسهم بعد الجد من اللوم مشفقة ، يردون من حياض المصافاة على أوفى الريّ الهني (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

ابتلاهم فرضوا وصبروا ، أنعم عليهم فاعترفوا وشكروا ، وجاءوا بكل ما يرضى ثم اعتذروا ، وجاهدوا العدو فما انقشعت الحرب حتى ظفروا ، فنالوا غاية الإمكان في المكان العلي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

يقطّعون أنفسهم عتباً ولوماً ، بين هلاّ ولولا ولوماً ، قطعوا الليل سهراً وقطعته نوماً ، وأذهبوا النهار طاعة وصوماً ، بادروا أعمارهم لعلمهم أنها ساعات تنقضي ، فأمدهم بالعون السرمدي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) .

اللهم اجعلنا من حزبك المفلحين ، وعبادك الصالحين ، الذين أهلتهم لخدمتك ، ونعّمتهم بأنسك وحضرتك ، وسقيتهم لذيذ شرابك ، وخلعت عليهم خلع أحبابك ، وها نحن عبيدك قد ألقينا نفوسنا بين يديك وطمعنا بحسن وعدك ، وجميل رفدك ، فما لديك ، فاغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .

المجلس الخامس والثلاثون

في فضل أمة محمد ﷺ

الحمد لله خالق الجامد والحساس ، ومبدع الأنواع والأجناس . القوي في سلطانه الشديد الباس ، المتنزه عن السِّنة والنعاس ، المخرج رطب الثمار من يابس الأغراس ، لا يعزب عن سمعه حركات الأضراس ، ولا دبيب ذرٍ بالليل في مطاوي قرطاس ، نفذ قضاؤه فلم يمتنع باحتراس ، ومضت مشيئته فكم مجتهد عاد باليأس ، يفعل ما يريد لا بمقتضى تدبير الخلق والقياس ، قدَّم نبينا على كل نبي ، دبَّر وساس ، فسبحان من أجزل له العطاء ، وقال لأمته (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) البقرة : ١٤٣ .

أحمده حمداً يدوم بدوام اللحظات والأنفاس ، وأُصلي على رسوله محمد الذي شرعه مستقر ثابت الأساس ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الثابت بالعزم وقد ارتد الناس ، وعلى عمر قاهر الجبابرة الأشواس ، وعلى عثمان الصابر يوم الشهادة على مرير الكاس ، وعلى علي أهدى الجماعة إلى النص والقياس ، وعلى جميع الآل والأصحاب ومن تبعهم بإحسان من سائر الناس ـ وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) أي : عدولاً خياراً ومثله : قال أوسطهم ، أي : خيرهم وأعدلهم (لتكونوا شهداء على الناس) أي : لتكونوا شهداء يوم القيامة لأنبيائهم على أممهم .

روي عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة ، فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم ؟ فيقولون :

ماأتانا من نذير ، فيقال لنوح : من يشهد لك؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) قال : الوسط : العدل . قال : فيدعون فيشهدون له بالبلاغ . قال : ثم أشهد عليكم .

واعلم أنه كما فُضل نبينا على سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فضلت أمتنا على سائر الامم .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى ، كرجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي من صلاة الصبح الى نصف النهار على قيراط؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر الى غروب الشمس على قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم .

فغضبت اليهود والنصارى . فقالوا : نحن كنا أكثر عملا ، وأقل عطاء قال : هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا : لا . قال : فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء » .

واعلم أن فضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة ، وأن كل ذلك باختيار الحق لها ، وتقديمه إياها . إلا أنه جعل لذلك سبباً ، كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم علمه بما جهلوا. فكذلك جعل لتقديم هذه الأمة سبباً ، هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس ، واعتبر حالهم بمن قبلهم ، فإن قوم موسى رأوا قدرة الخالق في شق البحر . ثم قالوا : (اجعل لنا إلهاً) الأعراف : ١٣٨ ثم مال كثير منهم الى عبادة العجل ، وعرضت لهم غزاة فقالوا (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل ، وأمروا بقول : حطة فقالوا : حنطة ، وقيل لهم : (ادخلوا الباب سُجَّداً) فدخلوا زحفاً وقالوا عن نبيهم : هو آدر ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم . وهذا من أعظم التعطيل ؛ لأن الجسم مؤلف ، ولابد للمؤلف من مؤلف .

ومن غفلة النصارى: اعتقادهم أن الله تعالى جوهر ، والجواهر تتماثل ولا مثل للخالق. ثم يقولون: عيسى ابنه ، وقد علم أن الابن بعض ، والخالق لايتجزأ ، ثم قد علموا أن عيسى لايقوم إلا بالطعام ، والإله هو من قامت به الأشياء لا من قام بها .

وقد عرف يقين أُمتنا ، وبذلهم أنفسهم في الحروب ، وطاعة الرسول ، وحفظهم للقرآن ، وأولئك كانوا لايحفظون كتابهم ، فلهذا فضلوا . فهم أول أُمة يدخلون الجنة . وقد قال ﷺ : « أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ، أمتي منهم ثمانون صفاً » وعنه ﷺ أنه قال : « ألا إنكم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » فالحمد لله الذي أعطانا بجوده وفضله مالسنا من أهله .

طلبتك يادنيا فأعددت في الطلب ... فلم أر إلا الهم والغم والنصب
فلما بدا لي أنني لست واصلا ... إلى لذة إلا بأضعافها تعب
وأسرعت في ديني ولم أقض شهوتي ... هربت بذنبي منك إن نفع الهرب
تسربلت أخلاقي قنوعاً وعفة ... فعندي بأخلاقي كنوز من الذهب
ولم أر حظاً كالقنوع لأهله ... وإن عمل الإنسان ماعاش في الطلب

ياهذا : الدنيا دار المحن ودائرة الفتن ، ساكنها بلا وطن ، واللبيب قد فطن ، أين من مال إلى حب المال بالآمال؟ وصبا وتقلب بجهله في روضتي هوى وصبا ، وأصبح بين غبوقه وصبوحه لايعرف وصبا ، وأضحى علم شهواته على قاب عزه منتصبا ، فظل ربيع ربعه بوفور جمعه خصباً ، وكلما دعي إلى نفعه في عاقبته أبى ، أما شارك بصرعه الفاجع له أماً وأباً ، أما صار بناء إذ رحل ونبا ، أتراه تزود لمذهبه إذ ذهب ذهبا ، لقد لقي والله إذ نصب له الموت شركه نصبا ، أين من كان مجلسه بين الناس في الصدور؟ وهيبته تزعج بواطن الصدور ، أما اغتاله الموت بين الورود والصدور؟ أين من كانت همته تضاد القصور؟ أما استلبه الموت من المنازل والقصور ، أين من كانت تقوى ببقائه بينها الظهور؟ أماعدم الظهير عند الموت حين الظهور ؟ حام الحمام حول حماه ، فلم ينفعه الحمى ، ورام راميه مراميه فرماه إذ رمى ، كأن لم يعلق راحته براحة الهوى ، إذ زلّ قدمه في التلف وهوى ،

وكأنه ماعزم على غرض ولانوى ، ولاتحرك في مراد ولا التوى ، حين أدركه سكون التلف والتوى ، صاحت به هاتفات الفراق على فيها ، ولفظته المنازل كأن لم يكن فيها ، فأخرج عن الإنس كأنه ليس من الجنس ، وكف كفه في الرمس ، بعد تصرف الخمس ، وأصبحت منازله إذلم يصبح بها ولم يمس ، (كأن لم تغن بالأمس) يونس: ٢٤ فياعرض الآفات ترشقه سهامها رشقا ، لابد مما وصفنا حتماً وحقا ، فتأهب للفناء فقل ماتبقى ، وأصخ لهاتف العبر فقد حادثك نطقا . واحذر على نفسك أن تخسر أو تشقى ، واعمل ليوم ترى مدامع الخلائق لاترقى ، وهم في أمر عظيم وأكرمهم عند الله الأتقى .

روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن مثلي ومثل مابعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : ياقوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان . فالنجاء النجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ماجئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » أخرجاه في «الصحيحين» .

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « مامن أحد يموت إلا ندم ، قالوا : ماندمه يارسول الله؟ قال : إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون نزع » .

ما أقرب ماهو آت ، ما أبعد ما قد فات ، ما أغفل الأحياء عما حل بالأموات ، يامن لايسمع قول ناصح ، أما هذا الشيب دليل واضح ، تجمع التقصير الى التفريط وتضم ، وتنوي فعل الذنوب فتعزم وتهم ، ويحك تأمل هلال الهدى فما خفي ولا غم ، واسمع واعظ العبر فقد زعزع الجبال الشم ، وأيقظ قلبك الغافل وهيهات لاتسمع الصم ، فلقد بالغنا في زجرك يامن بالزجر قد أم ، فإذا رضيت أن تكون لنفسك مُبيراً ، فلحى الله ظئراً أشفق من الأم .

أخي إنما الدنيا محلّـة نُغصة وداد غرور آذنت بفراق
تزود أخي من قبل أن تسكن الثرى ويلتف ساقٌ للمـمات بساق

فصـــل

في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) آل عمران : ١١٠ .

قال أبو هريرة رضي الله عنه في هذه الآية : تجيؤون بهم فيدخلون في الإسلام ، وقال عطية : تشهدون للأنبياء بالتبليغ .

واعلم أن الخيرّية تشمل أمتنا أولها وآخرها ، وإن كان للأول فضل السبق .

روى ثابت البُناني عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره » فإن قيل : فهذا يوجب تردداً في تفضيل الصحابة ؟ فالجواب : أنه أراد تقريب آخر أمته الى أولها في الفضل كما تقول : لا أدري أوجه هذا الثوب خير أم مؤخره ؟ وقد علم أن وجهه أفضل ، لكنك تريد تقريب مؤخره من وجهه من الجودة . ذكره ابن قتيبة .

فأما فضل الصحابة رضي الله عنهم فلا شك فيه ، إذ لهم صبر على الحق لا يشاركهم فيه أحد . كان بلال رضي الله عنه يعذب في الرمضاء ويقولون له قل : اللاّت والعزى ، وهو يقول : أحد أحد .

وكان عم الزبير يعلقه ، يدخن عليه بالنار ويقول : ارجع الى الكفر فيقول : لا أرجع .

ولقد جاء من الصحابة سادات برزوا في العلم والعمل .

كان أبو مسلم الخولاني قد علق في مسجده سوطاً يؤدب به نفسه ، كلما فترت ويقول : أيظنّ الصحابة أن يستأثروا بمحمد دوننا ؟ والله لأزاحمنهم عليه زحاماً ، حتى يعلموا أنهم قد خلفوا رجالاً .

وكان عامر بن قيس يصلي كل يوم ألف ركعة ، وكان كهمس بن الحسن يختم في

الشهر تسعين ختمة ، وصلى سليمان التيمي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة .

وكان سفيان الثوري غاية في العلم والعمل ، فغلبه الخوف ، فصار يبول الدم ، وحمل ماؤه الى الطبيب ، فقال : هذا لا يشبه بول المسلمين ، هذا ماء الرهبان ، هذا رجل قد فتت الخوف كبده . وحمل ماء سري السقطي الى الطبيب فلما نظر اليه قال : هذا بول عاشق ، قال حامله : فصعقت وغشي علي ، ثم رجعت الى سري فأخبرته فقال : قاتله الله ما أبصره .

إذا أنا واجهت الصبا عاد بردها ... ومن حر أنفاسي علي لهيب
وقد أكثرت في الأطباء قولهم ... وما لي إلا أن أراك طبيب
يسالم قلبي الهم فهو حليفه ... وبين جفوني والرقاد حروب

قال الشبلي : جزت براهب فقلت : لمن تعبد ؟ فقال : لعيسى ، قلت : ولم ؟ قال : بقي أربعين يوماً لم يأكل قلت : فعدها علي ؟ فأقمت تحت صومعته أربعين يوماً لا آكل . فأسلم ، وكان أبو عبيدة الخوص يقول : واشوقاه الى من يراني ولا أراه .

كانت قلوبهم بالحق متعلقة ، وأنوارهم على الظواهر متألقة ، دموعهم في الدجى ذوارف ، لما بين أيديهم من المخاوف ، يغسلون بالبكاء ذنوب الصحائف ، خوفهم شديد وما فيهم مخالف ، إذا جن الليل فالقدم واقف . يحنون الى الحبيب حنين شارف ، الدمع مساعد والحزن مساعف ، يفزعون الى التذكر إذا مسهم طائف ، أحوالهم عجائب ، وأمورهم طرائف ، علموا أن الدنيا متاع يفنى ، فعبروها وما عمروها للسكنى ، واشتغلوا بدار كلما نقضت هذه تبنى ، طرق الوعظ أسماعهم فتلمحوا المعنى ، يأخذون أهبة الرحيل ، ولا يأخذون عرض هذا الأدنى ، لا كبر عندهم تراهم بين المساكين والزمنى . لو تأملتهم رأيت ضلوعاً على المحبة تحنى ، حلف صادقهم على هجر الهوى فلا والله ما استثنى ، وأقبلوا على الفقر فلما رآهم أغنى ، ذكروا الجنة فاشتاقوا ، ولا شوق قيس الى لبنى .

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « اشتاقت الجنة الى علي وعمار وسلمان » .

إلى الزُّهاد في الدنيا جنانُ الخلد تشتاق
عبيد من خطاياهم الى الرحمن أُبَّاق
حدتهم نحوه الرغبة والرهبة فانساقوا
وراقت لهم الدنيا وعاقتهم فما انعاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراق
وقد قاموا ولا يهجع من ذاق الذي ذاقوا
يضجون الى المولى ودمع العين مهراق

قال بعض الصالحين : لقيت غلاماً في طريق مكة يمشي وحده فقلت : ما معك مؤنس ؟ قال : بلى ! قلت : أين هو ؟ قال : أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي . قلت : أما معك زادٌ ؟ قال : بلى ؟ قلت : أين هو ؟ قال : الإخلاص والتوحيد والإيمان والتوكل . قلت : هل لك في مرافقتي ؟ قال : الرفيق يشغل عن الله ولا أحب أن أرافق من يشغلني عنه طرفة عين . قلت : أما تستوحش في هذه البرية قال : إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة فلو كنت بين السباع ما خفتها . قلت : أَلك حاجة ؟ قال : نعم ، إذا رأيتني فلا تكلمني ، قلت : ادع لي قال : حجب الله طرفك عن كل معصية ، وألهم قلبك الفكر فيما يرضيه ، قلت : حبيبي ، أين ألقاك ؟ قال : أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي ، وأما الآخرة فإنها مجمع المتقين ، فإن طلبتني هناك ، فاطلبني في زُمرة الناظرين إلى الله عز وجل . قلت : وكيف علمت ذلك ؟ قال : بغضّ طرفي له عن كل محرَّم ، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم ، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر اليه ، ثم صاح ، وأقبل يسعى حتى غاب عن بصري .

قلبي بحبك ما يفيق وجفن عيني ما ينام
قد طال فيك الليل حتى ما يقال له الصرام
والنجم فيه راكد والفجر يمنعه الظلام

ليل بغــــير نهـاية   ولكل مفتاح ختام

في وصلك العيش الهني   وهجرك الموت الزؤام

سبحان من قدمنا على جميع الناس ، وسقانا من معرفته أروى كاس ، وجعل نبينا أفضل نبيٍّ رعى وساس ، فلما فضله على الأئمة وأنعم علينا بعلو الهمة ، قال لنا : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أفي الأمم مثل أبي بكر الصديق ؟ أو عمر الذي أغص كسرى بالريق ، أو عثمان الصابر على مرّ الريق ، أو علي بحر العلم الخضم العميق ، أو مثـل حمزة والعباس ، أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين ، أو سعدٍ وسعيد هيهـــات ومن أين ؟ أو خبَّاب وخبيب ومن مثل الاثنين ؟ إن شبهناهم بهم أبعدنا القياس ، هل شجرة الرضوان في أشجارهم ؟ هل وقعة بدر من أسمارهم ؟ إنما عرضت لهم غزاة في جميع أعمارهم ، وجهادنا مع الأنفاس .

غمرهم التغفيل وتناهى ، واعتقدوا للخالق أشباها ، فقـــالوا يوم اليم : (اجعل لنا إلها) ومافي عقائدنا نحن التباس ، أعند رهبانهم كزهد أُويس ؟

أفي متعبِّديهم كعامر بن قيس ؟ أفي خائفيهم كالفضيل ؟ هيهات ليس ضوء الشمس كالمقباس ، أفيهم مثل بشر ومعروف ؟ أفي زهادهم مذكور معروف؟ أفي طوائفهم طائفة صلت وقد سُلت السيوف ، ورنت الاقواس ؟ أفيهم مثل أبي حنيفـــة ومالك ؟ أو كالشافعي الهادي الى المسالك . كيف نمدحه وهو أجلُّ من ذلك ؟ ما أحسن بنيانه والأساس .

أفيهم أعلى من الحسن وأنبل ؟ أو ابن سيرين الذي بالورع تبتَّل ؟ أو كأحمد الذي بذل نفسه للحق وسبَّل ؟ تالله مـا فيهم مثل ابن حنبـل . ارفع صوتك بهـذا ولا باس .

اللهم اسلك بنا مسلك الصادقين الأبرار وألحقنا بعبادك المصطفين الأخيـار (وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

اللهم أحي قلوباً أماتها البعد عن بابك ، ولا تعذبنا بأليم حجابك ، يا أكرم من سمح بالنوال ، وأوسع من جاد بالإفضال .

اللهم أيقظنا من غفلتنا بلطفك وإحسانك ، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك، واسلك بنا سبيل أرباب الإخلاص ، وانظمنا في سلك أولئك الأشخاص ، وارزقنا مارزقتهم من نعيم قربك ولذة مناجاتك ، وصدق حبك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس السادس والثلاثون

في ذكر فضائل شهر شعبان وليلة النصف منه

الحمد لله أحق من شُكر ، وأولى من حمد ، وأكرم من تفضل ، وأرحم من قصد. المعروف بالدليل وبالدليل عبيد ، القديم لم يولد ولم يلد ، أحاط علماً بالمعلومات وحواها ، وأنشأ المخلوقات بالقدرة وبناها ، وأنفذ الحكم في الموجودات إذ براها ، ومن تأمل حكمها لما رآها ، فلينظر بالفهم ولينتقد ، تعرّف إلى خلقه بالبراهين الظاهرة ، وأظهر في مصنوعاته العجائب الباهرة ، وتفرد في ملكه بالقدرة القاهرة ، ووعد المتقين الفوز في الآخرة ، فيابشرى للموعود بما وعد . تعالى أن يشبّه بما صنعه ، وأن يقاس بما جمعه ، سبحانه لاوزير له ولاشريك معه ، نادى موسى ليلة الطور فأسمعه ، فاعلم هذا واعتقد ، تمسك بالكتاب والسنة ولاتمل عنهما ، وسلم إليها وتسلم منهما ، ولاتنطق برأيك وظنك فيهما ، هذا مذهب أهل السنة لاتنقص ولاتزد .

أحمده حمداً إذا قُبل صعد ، وأشكره والشاكر قد سعد ، وأصلي على رسوله محمد خير مولود ولد ، وعلى صاحبه أبي بكر رفيقه في الغار ومنفرد ، وعلى عمر الذي كان يكسر الجبابرة ويضطهد ، وعلى عثمان الذي كان إذا جن الليل سهد ، وعلى علي الذي كلما كررت مناقبه قال السامـــع أعد ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين كل منهم في طاعة مولاه مجتهد .

اللهم وفر نصيبنا في هذا الشهر من الخير وزد ، وسهل لنا مشارع الأرباح لـنرد ، وآنسنا بقربك لنخلوعن خلقك وننفرد ، وانفعني والحاضرين فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد.

عباد الله : اعلموا أن هـذا شهر مبارك الأيام ، وهو سبب لمحو الذنوب والآثام ،

فيه يتوفر جزيل الأجر والأنعام ، وتكتب أسماء من يموت في جميع العام :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يصوم شعبان كله يصله برمضان ، ولم يكن يصوم شهراً تاماً إلا شعبان . فقلت : يارسول الله إن شعبان لمن أحب الشهور إليك أن تصومه ، قال : «نعم ياعائشة، إنه ليس من نفس تموت في سنة إلا كتب أجلها في شعبان . فأحب أن يكتب أجلي وأنا في عبادة ربي وعمل صالح » .

وعنها أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « ليلة النصف من شعبان تكتب فيها الآجال والأرزاق » .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه ، إذا كان هلال شعبان دُفع إلى ملك الموت صحيفة يقبض من فيها إلى شعبان من قابل ، فإن الرجل ليغرس ويبني البنيان ، وينكح ويولدله ، ويظلم ويفجر ، وماله في السماء اسم ، وما اسمه إلا في صحيفة الموتى إلى أن يأتي يومه الذي يقبض فيه أو ليلته » .

فيا أيها الغافل : تنبه لرحيلك ومسراك ، واحذر أن تستلب على موافقة هواك ، انتقل إلى الصلاح قبل أن تنقل ، وحاسب نفسك على ماتقول وتفعل .

ومكاسب الدنيا وإن كثرت فما | يبقى سوى تبعاتها والمأثم
فعليك بالفعل الجميل فإنه | أنس المقيم غداً وزاد المعدم

أما يكفي العاقل تجاربه ، أما أيقظ الفطن نوائبه ، غالب الموت فمن ذا يغالبه ، قهر الخلق فمن ذا يحاربه ، كأنكم به قد دبت عقاربه ، قل للمفرط وقد حانت مصائبه ، القلب غائب فكيف نعاتبه .

زار عمر بن عبد العزيز قبور آبائه ثم رجع وهو يبكي . فقال لأصحابه : ناداني التراب ألا تسألني عما صنعت بأحبابك ؟ فصلت الكفين من الساعدين ، والقدمين من الساقين ، وفعلت وفعلت . فلما وليت ناداني : ألا أدلك على كفن لايبلى؟ قلت : بلى ! قال: التقوى.

وكان حبيب العجمي إذا أصبح بكى وإذا أمسى بكى ، فسئلت زوجته فقالت :

يخاف والله إذا أمسى ألا يصبح ، وإذا أصبح ألا يمسي ، يقول لي : إن مت فافعلي كذا ، واصنعي كذا .

وكان يزيد الرقاشي يقول : الى متى تقول غداً أفعل كذا ، وبعد غد أفعل كذا، أغفلت سفرك البعيد ، ونسيت الموت؟ أما علمت أن دون غد ليلة تخترم فيها النفس ، أما رأيت صريعاً بين أحبابه لايقدر على رد جوابهم .

مضى أناس وأصبحنا على ثقة إنا سنتبع بالأشجان نعتلج
إن أدلجوا وتخلفنا وراءهم وما نسير فإنا سوف ندّلج

إخواني : المعاصي تنكس الراس ، وما مخلّط كمن كاس ، ولا بانٍ على رمل كمحكم أساس ، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس ، فعلى وجه الطائع نور طاعته ، وعلى وجه العاصي ظلام مخالفته ، وعند الموت يتلقى هذا بالبشارة ، ويقع ذاك في الخسارة، وفي القبر هذا يفترش مهاد الفلاح ، ويلقى ذاك على حسك القباح ، وعند الحشر هذا يركب وذاك يسحب ، ثم يقال للعصاة: هلا ادكرتم ، وللطائعين: سلام عليكم بما صبرتم ، بين خجل يُذل وبين طائع يُدل ، يامن إذا صلى خفف ، وإذا كال طفف ، وإذا دعي تخلف ، وإذا قيل له: تب سوّف ، مايؤثر عنده قول من حذّر وخوّف ، ثم يطمع في لحاق الصالحين فما أنصف ، جدّ القوم وأنت قاعد ، وقربوا وأنت متباعد ، كم بين راغب وزاهد ، كم بين ساهر وراقد ، شغلهم حب مولاهم عن لذة دنياهم ، اسمع حديثهم إن كنت ماتراهم ، خوفهم الشديد قد أزعج ، وحذرهم العظيم قد أتلف وأحرق ، وحادي جدهم مُجد مايترفق ، وكيف يحسن الفتور وأوقات السلامة تسرق دموعهم في أنهار الخدود تجري وتتدفق ،يشتاقون الى الحبيب والحبيب اليهم أشوق ، ياحسنهم في الدجى ونورهم قد أشرق فإذا جاء النهار دخلوا سوراً من التقى بعد خندق ، تعرفهم بسيماهم وللصدر رونق ، اسلك طريقهم وسل معينهم توفق ، كانوا يصومون وأنتم مفرطون ، ويقومون وأنتم نائمون ، ويبكون خوفاً وأنتم تضحكون .

ياقليل النظر في أمره ، ياغافلاً عن ذكر قبره ، أما نقل الموت واحداً واحداً ،

وهاهو قد أضحى يجول قاصداً ، كم سلب ولداً وأخذ والداً ، إلى متى تصبح جاهلاوتمسي مارداً ، وتحث على النهوض وماتبرح قاعداً ، متى يذوب دمع مايزال جامدا. ومتى ينقص جهل مايفتأ زائدا . يامن إذا قاربه النصح أضحى متباعدا . لقد نظرت لنفسك نظراً فاسداً ، كم أشمت بك عدواً وأفرحت حاسدا ، يانائماً عن خلاصه راقدا ، يامريضاً مانرى له عائداً ، كم نوضح الأمثال ونضرب وإنما نضرب حديداً بارداً ، أترضى هذه الحال أن تكون زاد الارتحال ، تذكر عبث اليمين والشمال ، إذا خابت جميع الآمال ، ورأيت حسرة ماجمعت من مال ، وتيقنت فراق الأيتام والأطفال ، وحملت هما خفت عنده الجبال ، وبان لك أن حديث المنى مُحال ، لقد رضيت لنفسك الغبينة ، وبعت الدار الشريفة بالدار المهينة ، وأعجبك مع عقلك مايعجب الأطفال من الزينة ، إن ذكر الصالحون فلست فيهم وإن عد الأبرار فما أنت منهم ، وإن أقام العبّاد فلم تر بينهم ، ويحك! أتطمع في الحصاد ولا بذر لك ، أترجو الارباح ولاتجارة معك ، تالله لتعظمن على أهل المخالفات الآفات ، ولتنقطعن أفئدة المفرّطين بالزفرات ، ولتسيلن الدماء بعد الدموع على الوجنات ، وليتحسرنّ أهل المعاصي إذا لاحت درجات الجنات ، وليناديـن مناد الجزاء يخبر بتفاوت العطاء ووقوع السيئات (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

قد آن بعد ظلام الجهل إبصاري　　الشيب صبح يناجيني بإسفار
كم اغتراري بالدنيا وزخرفها　　أبني بناها على جرُف لها هار
ووعد زور وعهدٍ لا وفاء له　　تعلم الغدر منها كل غدار
فليت إذ صفرت مما كسبت يدي　　لم تعتلق من خطاياها بأوزار
ليس السعيد الذي دنياه تسعده　　إن السعيد الذي ينجو من النار

فصــل

في قوله تعالى (حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة) الدخان : ١-٣ فيها قولان . أحدهما : أنها ليلة القدر ، والثاني : ليلة النصف من شعبان (إنا كنا منذرين) أي : مخوفين عقابنا (فيها يفرق) أي: يفصل (كل أمر حكيم).

عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فخرجت فإذا هو بالبقيع رافع رأسه إلى السماء ، فقال لي : أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قلت: يارسول الله ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال : « إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من شعر غنم بني كلب » .

وعنها أيضاً قالت : « كانت ليلة النصف من شعبان ليلتي ، فبات رسول الله ﷺ عندي ، فلما كان في جوف الليل فقدته ، فأخذني عليه ما يأخذ النساء من الغيرة فتلفعت بمرطي » .

أما والله ما كان مرطي خزاً ولا قزاً ولا حريراً ولا ديباجاً ولا قطنا ولا كتاناً قيل : ممّ كان ؟ قالت : سداه كان شعراً ، ولحمته أوبار الإبل .

فطلبته في حجر نسائه فلم أجده ، فانصرفت إلى حجرتي ، فإذا به كالثوب الساقط على وجه الأرض ساجداً ، وهو يقول في سجوده : « سجد لك سوادي وخيالي ، وآمن بك فؤادي ، هذه يدي وما جنيت بها على نفسي ، يا عظيماً يرجى لكل عظيم ، اغفر الذنب العظيم » .

«أَقول كما قال داود عليه السلام : أُعفّر وجهي بالتراب لسيدي وحق له أن يسجد ، سجد وجهي للذي خلقه وشقّ سمعه وبصره» .

ثم رفع رأسه ﷺ فقال : «اللهم ارزقني قلباً نقياً تقياً من الشرك ، برياً لا كافراً ولاشقياً » ثم سجد وقال : «أعوذ بك من سخطك ،وأعوذ بعفوك من معاقبتك،لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

قالت : ثم انصرف ، ودخل معي في الخميلة ، ولي نفسٌ عال فقال : ما هذا النفس يا حميراء ؟ قالت : فأخبرته ، فطفق يمسح بيده على ركبتي ويقول : ويس هاتين الركبتين ماذا لقيتا في هذه الليلة ، ليلة النصف من شعبان إن الله تعالى ينزل الى السماء الدنيا ، فيغفر لعباده إلا لمشرك أو مشاحن » .

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال لها : يا حميراء أما تدرين ما هذه الليلة ؟ هذه ليلة النصف من شعبان . إن لله عز وجل في هذه الليلة عتقاء من النار بعدد شعر غنم بني كلب ، قلت يا نبي الله ، وما بال غنم بني كلب ؟ قال : ليس في العرب قوم أكثر غنماً منهم ، لا أقول فيهم ستة : مدمن خمر ، ولا عاقٌ والديه ، ولا مصر على ربا أو زنا ، ولا مصارم ، ولا مصور ، ولا قتات » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة النصف من شعبان يغفر الله لعباده إلا لمشرك ، أو مشاحن » .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : « إذا كان ليلة النصف من شعبان قال الله تعالى : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من مسترزق فأرزقه ؟ حتى ينفجر الفجر ، فأمرنا رسول الله ﷺ ، بقيام ليلها وصيام نهارها » .

وعن عكرمة في قوله تعالى : (يفرَق كل أمر حكيم) قال : في ليلة النصف من شعبان يدبّر الله تعالى أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ، ويكتب حاجّ بيت الله فلا يزيد فيهم أحدا ولا ينقص منهم أحد .

وقد رويت لهذه الليلة صلوات ليس في أسانيدها شيء صحيح ، فلذلك سكتنا عن ذكرها .

سهم المنايا أبداً صائبٌ ... يدعو إليها الناس مستعرضاً
بينا الفتى في عيشه ناعم ... تغره الأيام حتى قضى
فكل يوم مر من عمره ... يحدو به الترحال مستنهضاً
والنفس دين الموت عند الورى ... ودينه لا بد أن يقتضى

أين الذين استبقوا للهنـــا　　　واغتبقوا بالمشرب المرتضى
طوتهم الأجداث في ضيقها　　　وعـــاد من يهواهم معرضاً

أين الحبيب والخليل ودّعا ؟ أين الرفيق رحل عنكم ودعا ؟ أأبقى الموت لكم في الحياة مطعما ؟ أخذ الكبير والصغير معا ،صاح بالوالد والولد فأسرعا ، جز على القوم ترى القوم ُخشّعاً ، أين من فسح لنفسه في الزلل ؟ أين من خانها بقبيح العمل ؟ بينما هو يعمر رباعها ، وقد اشتراها وما باعها ، يحفر فيها الأنهار ، ويغرس فيها الأشجار ،والمماليك تدور حول الدار ، والتخوت تملأ والصناديق ، وركن العز في الدنيا وثيق ، والمال يجمع فوق المال ، والخيل في الجلال ، والمراكب في الحلية تصاغ ، وقد ُضمت الصحة الى الفراغ ،ثم ساعدَ ساعدُ الشباب ، كف الهوى على الاستلاب؛ صاحت بين البين أغربة البين ،فمزقت العين وأسخنت العين ، تالله لقد استلب صاحب القصـــر بكف القسر ، فصار بالقهر احدوثة الدهر ، ولقد كان في غاية المنى في أول الشهر ، فواعجباً لجنة صارت كالصريم بعد الزهر .

نودي بصوت أيما صوت　　　ما أقرب الحي من الموت
كأن أهل الغيّ في غيهم　　　قد أخذوا مناً من الفوت

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه ، يا غافلاً عن الموت وقد دنا اليه ، يا ساعيـــاً إلى ما يضره بقدميه ، كم عاين ميتاً واعتبر بعينيه ، أينفعه يوم الرحيل دمع علا على خديه ، يا من يجول في المعاصي قلبه وهمه ، يا معتقداً صحته فيما هو سقمه ، يا من كلما زاد عمره زاد إثمه . يا طويل الأمل وقد دق عظمه ، أما وعظك الزمان وزجرك ملمه ، أين الشباب قل لي قد بان رسمه ، أين زمان الفرح لم يبق إلا اسمه ؟ أين اللذة رحـل المطعوم وطعمه ؟ يا لديغ الأمل قد بالغ فيه سمه ، يا قليل العبر وقد رحل أبوه وأمه ، يا من سيجمعه اللحد عن قليل ويضمه ، كيف نعظ من لا يعظه قلبه ولا فهمه ؟ كيف نوقظ من قد نام قلبه لا عينه ولا جسمه ؟

تزود من الدنيا فإنك هالك ... وتترك للأعداء ما أنت مالك
ووسع طريقاً أنت سالكه غداً ... فلا بد من يوم تضيق المسالك

إخواني : اجتهدوا هذه الليلة في محو ذنوبكم ، واستغيثوا إلى مولاكم من عيوبكم ، هذه ليلة الإنابة ، فيها تفتح أبواب الإجابة ، أين اللائذ بالجناب ؟ أين المتعرض بالباب ؟ أين الباكي على ماجنى ؟ أين المستعد لأمر قد دنا ؟ ألا رب فرح بما يؤتى ، قد خرج اسمه في الموتى ، ألا رب غافل عن تدبّر أمره ، قد انفصمت عرى عمره ، ألا رب معرض عن سبيل رشده قد آن أوان شق لحده ، ألا رُب رافل في ثوب شبابه ، قد أزف فراقه لأحبابه ، أَلا رب مقيم على جهله ، قد قرب رحيله عن أهله ، أَلا رب مشغول بجمع ماله ، قد حانت خيبة آماله ، أَلا رب ساع في جمع حطامه ، قد دنا تشتت عظامه ، أَلا رب مجدٍّ في تحصيل لذاته ، قد آن خراب ذاته .

أَين من كان في مثل هذه الأيام في منازله ؟ مشغولاً بشهواته ، مغروراً بعاجله ، أما أصاب مقاتله سهم مقاتله ، أما ظهرت خسارته عند حساب معامله ، أَين المعتذر مما جناه ؟ فقد اطلع عليه مولاه ، أين الباكي على تقصيره قبل تحسره في مصيره ؟

إذا لم تكن دنياك دار إقامة ... فما لك تبنيها بناء مقيم
وما صحّ ودّ الخل فيها وإنما ... يغر بود في الحياة سقيم
وجدت بني الأيام في كل موطن ... يعدون فيها شقوة كنعيم
نزيدك فقراً كلما ازددت ثروة ... فتلقى غنياً في ثياب عديم

هذه ليلة أمرها عظيم ، والخير فيها جزيل عميم ، وكفى وصفها في الكلام القديم (فيها يُفْرقُ كل أمر حكيم)[١] الدخان : ٤ .

فيها تقسم الآجال والأعمار ، فيها يكتب الحجاج والعمار ، كم جامع ديناراً إلى دينار ، وأكفانه عند القصار ، وهو يعمر الدار عمارة مقيم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

---

(١) هذه الآية وصف لليلة القدر ، وما قبلها يدل على ذلك ، وإلى ذلك ذهب المحققون .

كم مؤمِّل أملاً خاب ، كم منقول على ذمٍ وعاب ، يا هذا ، مضى زمان الشباب ، يا من كبر على الزلل وشاب ، قد استشنّ الأديم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

يا سيء السر والعلن ، يا جارياً على أَقبح سنن ، يا ناسياً لحاق من ظعن ، يا سليماً في الجسم والبدن ، لكنه سليم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

إخواني : إلى كم البلايا ؟ الام تأمنون الرزايا ؟ أين الاستعداد للمنايا ؟اعتذروا الليلة من الخطايا ، فالمولى كريم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

أقبلوا بالقلوب الليلة اليه ، وقفوا بالخضوع والخشوع لديه ، وتعلقوا بجوده تعويلاً عليه ، وانكسروا بالذل بين يديه ، فإنه رحيم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

مدوا أنامل الرجاء إلى بابه ، واتبعوا البكاء عن طريق أحبابه ، وتعرضوا الليلة لجزيل ثوابه ، واحذروا من سطوته وعقابه ، فعقابه أليم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

بين أيديكم يوم لا كالأيام ، ينتبه فيه كل من غفل ونام ، وتزفر جهنم على أهل الآثام ، فيجثوا الخليل والكليم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

قوموا بنا إلى مطلوبنا ، قفوا بنا على باب محبوبنا ، هلمُّوا لنستغيث من ذنوبنا ، لعله يهبّ على قلوبنا ، من العفو نسيم (فيها يفرق كل أمر حكيم) .

اللهم يا من خلق الإنسان وبناه ، واللسان وأجراه ، يا من لا يخيّب من دعاه ، هب لكل منا في هذه الليلة ما رجاه ، وبلغه من الدارين مناه ، يا أكرم كل كريم .

اللهم وإذا اطّلعت في ليلتنا هذه على خلقك ، فعد علينا بمنك وعتقك ، وقدّر لنا من الحلال واسع رزقك ، واجعلنا ممن عرفك وقام بحقك، وارحمنا برحمتك يا رحيم .

اللهم من قضيت بوفاته فاقض مع ذلك رحمتك ، ومن قدّرت طول حياته ، فاجعل في ذلك نعمتك ، وأسبل على الجميع سترك ومغفرتك ، وعاملنا بعفوك يا حكيم .

اللهم إن كنت كتبتنا في أم الكتاب عندك أشقياء أو محرومين أو مضيقاً علينا في الرزق أو قصيري الأعمار ، فامح يا ألله من أُم الكتاب شقاوتنا وحرماننا ، وتضييق

أرزاقنا وتقصير أعمارنا ، فإنك قلت في تنزيل الكتاب (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)الرعد : ٣٩. وقلت : (ادعوني أستجب لكم)غافر : ٦٠. فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ، بحولك وقوتك ياذا الجلال والإكرام ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأنام وآله وأصحابه البررة الكرام يا كريم .

اللهم اشف في هذه الليلة مرضانا ، وارحم بفضلك موتانا ، واستر علينا عيوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس السابع والثلاثون

في ذكر شهر رمضان

الحمد لله اللطيف الرؤوف، العظيم المنان ، الغني العلي القوي السلطان، الحليم الكريم الرحيم الرحمن ، الكبير القديم الديان ، الأول فلا سبق لسبقه ، المنعم فما قام مخلوق بحقه، المولي بفضله على جميع خلقه ، بشرائف المنائح على توالي الزمان .

جل عن شريك وولد ، وعز عن الاحتياج إلى أحد ، وتقدس عن نظير وانفرد ، وعلم مايكون وأوجد ما كان ، أنشأ المخلوقات بحكمته وصنعها ، وفرق الأشياء بقدرته وجمعها ، ودحى الأرض على الماء وأوسعها (والسماء رفعها ووضع الميزان) الرحمن: ٧ .

يعز ويذل ، ويفقر ويغني ، ويسعد ويشقي ، ويبقي ويفني ، ويُشين ويزين ، وينقض ويبني (كل يوم هو في شأن) الرحمن: ٣٩.

مد الأرض فأوسعها بقدرته ، وأجرى فيها أنهارها بصنعته ، وصبغ ألوان نباتها بحكمته ، فمن يقدر على صبغ تلك الألوان .

ثبّت بالجبال الراسيات نواحيها ، وأرسل السحاب بمياه تحييها ، وقضى ربك بالفناء على جميع ساكنيها (كل من عليها فان) الرحمن: .

أنعم على هذه الأمة بتمام إحسانه ، وعاد عليها بفضله وامتنانه ، وجعل شهرها مخصوصاً بعميم غفرانه (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) البقرة: ١٨٥.

أحمده على ماخصنا به من الصيام والقيام ، وأشكره على بلوغ الآمال وسبوغ الإنعام ، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لاتحيط به العقول والأذهان ، وأن محمداً أفضل خلقه وبريته ، المقدم على الأنبياء ببقاء معجزته ، الذي انشق ليلة ولادته الإيوان ، صلى

الله عليه وعلى أبي بكر رفيقه في الغار ، وعلى عمر فتاح الأمصار ، وعلى عثمان شهيد الدار ، وعلى علي راسخ الإيمان ، وعلى سائر الآل والأصحاب على توالي الزمان ، وسلم تسليماً .

اللهم أهل علينا شهرنا بالسلامة والإسلام ، والأمن والإيمان ، واغفر لنا كل قبيح سلف وكان ، واعتقنا فيه من لفحات الجحيم والنيران ، وأعنا على الخير يامن إذا استعين أعان ، برحمتك يا كريم يامنان .

قال الله عز وجل : (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) .

في معنى إنزال القرآن فيه أربعة أقوال . أحدها : أنه أنزل القرآن ، في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوماً . الثاني : أنزل القرآن بفرض صيامه . الثالث : أنزل بفضله القرآن . الرابع : ابتدىء فيه بإنزال القرآن .

(هدى للناس) أي : بياناً لهم (وبينات من الهدى والفرقان) البينات : هي الآيات الواضحات .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الرحمة ، وغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين وفتحت أبواب الجنة » .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ، صفّدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح لها باب ، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي مناد : ياباغي الخير أقبل ، وياباغي الشر أقصر ، ولله عتقاء من النار ، وذلك في كل ليلة » .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن الجنة لتجدد وتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبت ريح من تحت العرش ، يقال لها المثيرة، فتصفق ورق أشجار الجنة وحلق المصاريع فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه فيشرفن الحور العين حتى يقفن على شجر

الجنة ، فينادين هل من خاطب إلى الله عز وجل فيزوّجه ، ثم يقلن : يارضوان ، ماهذه الليلة؟ فيجيبهن بالتلبية ياخيرات حِسان ، هذه أول ليلة من شهر رمضان... الحديث .

من ناله داءٌ دوٍ بذنوبه | فليأت من رمضان باب طبيبه
فخلوف هذا الصوم ياقوم اعلموا | أشهى من المسك السحيق وطيبه
أوليس هذا القول قول مليككم | الصوم لي وأنا الذي أجزي به

إخواني : تفكروا لماذا خلقتم فالتفكر عبادة ، وامتثلوا أمر الإله فقد أمر عباده ، وانتقلوا عن أسباب الشقاء إلى أسباب السعادة ، واعلموا أنكم في نقص من الأعمار ، لا في زيادة ، آه لنفس أقبلت على العدو وقبلت ، وبادرت مايؤذيها من الخطايا وعجلت ، من لها إذا نوقشت على أفعالها وسئلت ، وقررت بقبائح فعلها يوم الحشر فخجلت ، وقيدت بقيود الندم على التفريط وكبلت ، وشاهد يوم الجزاء ما كانت عملت ، وسل عليها سيف العتاب يوم الحساب فقتلت ، أيها الغافل عن فضيلة هذا الشهر اعرف زمانك ، ياكثير الحديث فيما يؤذي احفظ لسانك ، يامسؤولاً عن أعماله اعقل شانك ، ياملوثاً بالزلل اغسل بالتوبة ماشانك ، يامكتوباً عليه كل قبيح تصفح ديوانك ، يامن قدشانت بالمعاصي أخباره ، يامن قد قبح إعلانه وإسراره ، يافقيراً من الهدى أهلكه إعساره ، ياكثير الذنوب وقد دنا إحصاره ، يامحترقاً بنار الحرص متى تخبو ناره ، ياكثير القبائح غداً تنطق الجوارح ، أين الدموع السوافح؟ على تلك الفضائح ، ياذا الداء الشديد الفاضح ، ماأعسر مرض الجوارح ، هذا الشيب دليل واضح ، وهو في المعنى عدول ناصح ، جانحته لاتشبه الجوائح ، أين زادك أيها الرائح؟ أين ماحصلت هل أنت رابح؟ يا أسفاً لهذا النازح كيف حاله في الضرائح؟ من له إذا أوثقه الذابح؟ من له إذا قام النائح ؟ واستوى إليه العائب والمادح ، ولم ينفعه في بطون الصفائح . إلا عمل إن كان له صالح ، أتراه يعتقد أن النصيح مازح ، ضاعت المواعظ لأن الموعوظ سكران طامح .

إخواني : أين من كان معكم في رمضان الماضي؟ أما أتته آفات المنون القواضي . أين من كان يتردد في المساجد في الظُلَم؟ سافر عن دياره منذ زمان ولم . أين الذين ارتفعت

أصواتهم بالأدعية؟ خرجت تلك الجواهر من تلك الاوعية . أين من جمع مالاً ووفرا ؟ وأعلق من ظفره بالمراد ظفرا ، أما اعاد الموت دياره قفرا ، ونقلته الاحداث وقد أثقل بالوزر ازرا ، ثم طال عذابه وانما نال نزراً ، وأوطأته جمراً لايشبه جمراً ، فبات في اسره اذل الاسرى .

سل الايام مافعلت بكسرى ... وقيصر والقصور وساكنيها

اما استدعتهم للموت طراً ... فلم تدع الحليم ولا السفيها

دنت نحو الدنيّ بسهم خطبٍ ... فأصمته واوجهت الوجيها

اما لو بيعت الدنيا بفلس ... أنفت لعاقل ان يشتريها

إخواني : هذه ايام رمضان ، هي كالتاج على رأس الزمان ، وصل توقيع القدم من ترسيم الرحمان (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) .

ياله من وقت عظيم الشان ، تجب حراسته مما إذا حل شان ، كأنكم به قد رحل وبان ، ووجه الصالح مابان (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن) .

ياواقفاً في مقام التحيُّر ، هل انت على عزم التغير؟ الى متى ترضى بالتديّر في منزل الهوان (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن) .

عينك مطلقة في الحرام ، ولسانك منبسط في الآثام ، ولأقدامك على الذنوب إقدام ، والكل مثبَّت في الديوان ، قلبك غائب في صلواتك وفكرك ينقضي في شهواتك ، فإن ركن اليك معامل في معاملاتك ، رحلت به من خان الى خان ، تا لله لو عقلت حالك ، أو ذكرت ارتحالك ، أو تصورت أعمالك ، لبنيت بيت الأحزان ، سيشهد رمضان عليك بنطق لسانك ، ونظر عينيك ، وسيشار يوم الجمع اليك ، شقي فلان وسعد فلان .

كأنك بالمضي الى سبيلك ... وقد جد المجهز في رحيلك

وجيء بغاسل فاستعجلوه ... بقولهم له افرغ من غسيلك

ولم تحمل سوى خرق وقطن ... اليهم من كثيرك أو قليلك

وقد مد الرجال إليك نعشاً ... فأنت عليه ممدود بطولك

وصلوا ثم إنهم تـداعوا بحملك في بكورك أو أصيلك
فلما أسلموك نزلت قـبراً ومن لك بالسلامة في نزولك
فسوف تجاور المولى طويلًا فدعني من قصيرك أو طويلك
أعانك يوم تدخله رحـيم رؤوف بالعباد على دخولك
أخي إني نصحتك فاستمع لي وبالله استعنت على قبولك
ألست ترى المنايا كل يوم تصيبك في أخيك وفي خليلك

فصـل

في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) البقرة: ١٨٣ .

كُتب بمعنى : فُرض . سأل المأمون علي بن موسى الرضى ، أي شيء فائدة الصوم في الحكمة ؟ فقال : علم الله تعالى ما ينال الفقير من الجوع ، فأَدخل على الغـني الصوم ليذوق طعم الجوع ضرورة حتى لا ينسى الفقير من الجوع ، فقال المأمون : أُقسم بالله لا كتبت هذه إلا بيدي .

وللصوم آداب يجمعها حفظ الجوارح الظاهرة ، وحراسة الخواطر الباطنة ، فينبغي أن يتلقى رمضان بتوبة صادقة وعزيمة موافقة ، ولا بد من ملازمة الصمت عن الكلام الفاحش والغيبة ، فإنه ما صام من ظل يأكل لحوم الناس ، ولا بد من كفّ البصر عن النظر إلى الحرام .

عن أبي هريرة رضي الله عنة قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يدعْ قول الزور والعمل به ، فليس لله عز وجل حاجة أن يدع طعامه وشرابه » رواه البخاري .

حقُّ شهر الصيام شيئان إن كنـت من الموجبين حق الصيام
تقطع الصوم في نهارك بالذكـر وتفني ظـلامه بالقيـام

كان أصحاب أبي هريرة رضي الله عنه يعتكفون في رمضان ويقولون : نطهر صيامنا .

واعتكف أبو محمد الجريري في الحرم سنة ، فلم يمد رجله ولم يضطجع فقيل له : كيف قدرت على هذا ؟ فقال : عِلم صدقَ باطني فأعانني على ظاهري.

وكان قتادة يقول : كان يقال: من لم يغفر له في رمضان فلن يغفر له .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ارتقى رسول الله ﷺ المنبر فقال : «آمين ثم ارتقى ثانية ، فقال : آمين ، ثم استوى عليه فقال : آمين ».

فقيل : علام أمّنت يا رسول الله فقال : «أتاني جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرىء أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة . فقلت : آمين .

فقال : رغم أنف امرىء أدرك شهر رمضان فلم يغفر له . فقلت : آمين .

ثم قال : رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصلّ عليك يا محمد . فقلت : آمين .

عباد الله إن شهركم هذا لا قيمة له ، ولا يمكن استدراك ما ضاع بالتفريط فيا أيها المحسن فيما مضى زد على إحسانك ودُم ، ويا أيها المسيء وبخ نفسك على التفريط ولُمْ ، إذا خسرت في هذا الشهر فمتى تربح ؟ وإذا لم تسافر فيه نحو الفوائد ، فما تبرح.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله » يقول الله تعالى : (إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدعُ طعامه وشهوته من أجلي) .

للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة » أخرجاه في « الصحيحين » .

يا هذا ، إنما شرع الصوم ليقع التقلل ، فإذا استوفيت العشاء تكدر الليل بالنوم ، وإذا استوفيت السحور تخبط النهار بالكسل وإنما شرع السحور ليتقوى المتقلل من العشاء لينتبه الغافل للتذكر ، وما أرى رمضان إلا زادك شبعاً وغفلة .

واعجباً لو عرض عليك أن تشرب شربة ماء في رمضان ما شربت فيه ولو ضربت وأنت تغشّ في البيع وتطفف في الميزان ، تالله لو قيل لأهل القبور تمنوا لتمنوا يوماً من أيام رمضان ، إذا صمت فقدم دستور الحساب ، قبل الغروب ، فإن وجدت خللاً فارقعه

برُقعة الاستغفار ، فإذا جاء السحر فاعقد عقد الزُّهد في الدنيا عند نية الصوم ، وتجرّع جرعة دمعة في إناء ركعة ، لعلك تطلع على خبايا خفايا ما أعد الله للصائمين من ستور (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) السجدة : ١٧ .

قل للمؤمن إن الموت في أثرك ⁂ وليس يخفى عليك الأمر في نظرك
فيمن مضى لك إن فكرت معتبراً ⁂ ومن يمت كل يوم فهو من نذرك
دار تسافر عنها من غدٍ سفراً ⁂ فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك
تضحي غداً سمراً للذاكرين كما ⁂ كان الذين مضوا بالأمس من سمرك

يا مضيّع الزمان فيما ينقص الإيمان ، ما أراك إلا كجمادى وشعبان ، أما يسوقك إلى الخير ما يشوق ، أما يعوقك عن الضير ما يعوق ، متى تصير سابقاً يا مسبوق ، إلى متى سوق الشوق إلى سوق الفسوق ، أول الهوى سهل ، ثم تنخرق الخروق ، إنما لذات الدنيا كخطف البروق ، ميز بين ما يفنى وما يبقى ترى الفروق ، خلِّ خلَّ التواني إن شئت أن تفوق ، طوبى لعبد بالغ في حذاره ، واحتفر بكف فكره قبل احتفاره . وانتهب زمانه بأيدي بداره ، وأعذر في الأمر قبل شيب عذاره ، ولم يرض من زادٍ بتقليله واختصاره ، ورأى عيب الهوى فلم يصطل بناره ، ودافع الشهوات وصابر المكاره ، إن بحثت عنه رأيته صائم نهاره ، وإن سألت عن غيبه فقائمٌ أسحاره ، وإن تلمحته فالزفير في أسعاره ، والدمع في انحداره ، لا يتناول من الدنيا إلا قدر اضطراره ، باعها فاشترى بها ما يبقى باختياره ، هل فيكم متشبِّه بهذا وعلى نجاره ؟

يا هذا ، عليك حافظ وضابط ، ليس بناس ولا غالط ، يكتب الألفاظ السواقط ، وأنت في ليل الحديث خابط ، تتعرض في الصباح والمساء للمساخط ، يا من قد شاب إلى كم تغالط ؟ أما تستحي وأنت في الإثم وارط ، يا قاعداً عن التقى وفي الهوى ناشط ، كلما رُفعت لم ترد إلا الهابط ، تيقظ لنفسك فقد مضى الفارط ، وانظر لمن تعاشر واعرف لمن تخالط .

تيقظ فإنك في غفلة ... يميد بك السكر فيمن يميد
وأي منيع يفوت البلى ... إذا كان يبلى الصفا والحديد
إذا الموت دنت له حيلة ... فتلك التي لست منها تحيد
أراك تؤمل والشيب قد ... أتاك بنعيك منه بريد

لله در أقوام تفكروا فأبصروا ، ولاحت لهم الغاية فما قصروا ، جعلوا قيام الليل روح قلوبهم ، والصيام غذاء أبدانهم ، والصدق عادة ألسنتهم ، والموت نصب أعينهم .

كتب رجل إلى داود الطائي : عظني ، فكتب إليه : أما بعد فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضي أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم والسلام .

كان داود الطائي ورث من أبيه عشرين ديناراً ، فأنفقها في عشرين سنة ، وكان جالساً في داره ، فإذا وقع عليه سقف تقدم إلى موضع آخر ، إلى أن بقي دهليز الدار ، فمات فيه ، وتحت رأسه لبنة ، فدخل عليه ابن السماك فقال : اليوم ترى ثواب ما كنت تعمل .

لقي راهب راهباً فقال : أترضى حالك التي أنت عليها للموت ؟ قال : لا . قال : فهل عزمت على توبة من غير تسويف؟ قال : لا . قال : فهل تعلم داراً يعمل فيها سوى هذه؟ قال : لا . قال : فهل للانسان نفسان ، إذا ماتت واحدة عملت بالأخرى ؟ قال : لا . قال : فهل تأمن هجوم الموت على حالتك هذه ؟ قال : لا . قال : فما أقام على ما أنت عليه عاقل .

قال صالح المرّي : كان عطاء السلمي قد اجتهد حتى انقطع . فقلت له يوماً : إني مكرمك بكرامة فلا ترد كرامتي ، فبعثت إليه بشربة من سويق مع ولدي وقلت له : لا تبرح حتى يشربها . فجاء فقال : قد شربها ، فبعثت اليه في اليوم الثاني بمثلها فجاء فقال : ماشربها . فأتيته فلمته ، وقلت رددت علي كرامتي ، وهذا يقويك على العبادة . قال : يابشر لقد شربتها أول يوم واجتهدت في اليوم الثاني ، أقدر كلما هممت بشربها ذكرت قوله تعالى (وطعاماً ذا غصّة) المزمل: ١٣ . قال : أنا في واد وأنت في واد .

لله در تلك القلوب الطاهرة . أنوارها في ظلام الدجى ظاهرة ، رفضت حلية الدنيا وإن كانت فاخرة ، كم تركت شهوة وهي عليها قادرة ، باتت عيونها والناس نيام ساهرة ،

يندبون على الذنوب وإن كانت نادرة ، كم بينك وبينهم يابائع الآخرة ، شيب وعيب أمثال سائرة ، أمل مع هرم هذه نادرة .

ياهذا ، إنما أنت ضيف أصبحت في منزلك ، وما في يديك وديعة عندك ، ويوشك للضيف أن يرتحل ، والوديعة أن ترد ، إبك على نفسك أيام الحياة بكاء من ودع الدنيا . كم أقوام أمّلوا هذا الشهر فخاب الأمل ، أين هم خلوا في الالحاد بالعمل؟ تالله إن نسيان النقل في العقل خلل ، أما يكفي زجر المقيم إذا رحل ؟

ياعـــامراً مايقطن	يا هالكاً مايفطن
ياساكن الحجرات ما	لك غير قبرك مسكن
أحدث لربك توبةً	وسبيلها لك ممكن
فكأن شخصك لم يكن	في الناس ساعة تـدفن
وكان اهلك قد بكوا	سرّاً عليـك واعلنوا
فإذا مضت بك ليلةٌ	فكأنهم لم يحزنـوا
الناس في غفـلاتهم	ورحى المنية تطحن
مادون دائرة الردى	حصن لمن يتحصـن
مــالي رأيتك تطمئـ	ـن إلى الحياة وتركن
وشككت فيما أنت	في الدنيا بـه متيقن
أظننت أن حوا	دث الأيام لاتتمكن

يامن طول سنته قد نام ، انتبه لهذه الايام ، واحذر غفلة الطغام ، وخذ قدر البلغة من الطعام ، واسمع قول الملك العلام ، (كتب عليكم الصيام) يامريضاً لايقبل من طبيبه ، هذا شهر الحمية قد جاء لتهذيبه ، صُن لسانك عن اللغو فكم تهذي به ، فالصوم لي وانا الذي أجزي به .

ولكن أين الصوّام .. هذا شهر عمارة المحراب ، هذا زمان حضور الباب ، هذا أوان تلاوة الكتاب ، للمتقين فيه على الباب ، كل وقت زحام ، شهر فيه تملأ المساجد ،

ويخشع فيه الراكع والساجد ، وينهض إلى الخير كل قاعد ، ويصير الراغب كالزاهد، من قلة الطعام ، شهر التعبد والتراويح ، شهر التهجد والمصابيح ، شهر المتجر الربيح ، شهر يترك فيه القبيح ، وتهجر الاثام ، فيه تغل الشياطين ، فيه يعرف قدر الدين ، فيه يتشبه المسيء بالمحسنين ، وبالكبير العاقل الغلام ، فيه ترق القلوب ، فيه تغفر الذنوب ،وتتجافى عن المضاجع الجنوب ، لتجفو لذيذ المنام ، لازموا المساجد وترددوا ، واجتمعوا على الصلاح ولاتبددوا ، وتصبّروا على الخطايا وتشددوا ، فإنما هي أيام ، اعزموا على ترك القبائح واعملوا مايصح للضرائح ، هذا غاية مايقوله الناصح ، والسلام .

اللهم اغفر لنا جميع الزلات ، واستر علينا كل الخطيئات ، وسامحنا يوم السؤال والمناقشات ، وانفعني والحاضرين بما أوردته من الكلمات يامجيب الدعوات .

اللهم أهل هذا المجلس قد نقلوا أقدامهم للاقدام إلى بابك ، مامنهم إلا من له قصة، بعضهم قد غلب عليه الخجل ، إما حياء منك أو احتقاراً لنفسه أو خوفاً من ذنوبه .

اللهم ابعث رسول عفوك يلتقط القصص من أيدي تائبيهم .

اللهم كل قصة ترجمتها (مسّنا وأهلنا الضر) وختامها (لئن لم تغفر لنا وترحمنالنكونن من الخاسرين)يوسف :٨٨ .

اللهم وقع على قصصنا بسماحة (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) يوسف : ٩٢ .

اللهم اغفر لنا ذنوباً ، قطعتنا عن بابك ، وجد علينا بكرمك ، وهب لنا ماوهبت لأحبابك .

اللهم كيف تكون ذنوبنا عظيمة مع عظمتك ، أم كيف نرحم نفوسنا بشيء وخزائن الرحمة بيدك .

اللهم لاتعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا فنشغل ونفرح بوجود مرادنا أونحزن أونسلم تسليم النفاق عند الفقد وأنت اعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الاكبر والمزيد الافضل،والنور الاكمل وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، وعمّنا بفضلك ورحمتك وسامحنا بعفوك ومغفرتك ووالدينا وجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين . آمين .

المجلس الثامن والثلاثون

في ذكر ليلة القدر

الحمد لله عالم السر والجهر ، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر ، محصي قطرات الماء وهو يجري في النهر ، موفر الثواب للأحباب ومكمل الاجر ، وباعث ظلام الليل ينسخه نور الفجر ، يعلم خائنة الاعين وخافية الصدر ، المُوالي رزقه فلم ينس النمل في الرمل والفرخ في الوكر ، جل أن تناله أيدي الحوادث على مرور الدهر ، أحصى عدد الرمل في الفيافي والنمل في القفر ، أغنى وأفقر فبإرادته وقوع الغنى والفقر ، وفضل بعض المخلوقات على بعض حتى أوقات الدهر (ليلة القدر خير من ألف شهر) .

أحمده حمداً لا منتهى لعدده ، وأشهده بتوحيده شهادة مخلص في معتقده ، وأن محمداً عبده ورسوله الذي نبع الماء من بين أصابع يده ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر رفيقه في شدائده ، وعلى عمر كهف الإسلام وعضده ، وعلى عثمان جامع القرآن في رقّه بعد تبدده ، وعلى علي كافي الحروب وشجعانها بمفرده ، وعلى سائر آله وأصحابه المحسن كل منهم في مقصده ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) الهاء في أنزلناه كناية عن القرآن وذلك أنه أنزل جملة فى تلك الليلة الى بيت العزة ، وهو بيت في السماء الدنيا (وما أدراك ما ليلة القدر) هذا على سبيل التعظيم لها والتشويق إلى خيرها (ليلة القدر خير من ألف شهر) في هذا الألف الشهر قولان .

أحدهما : أنها من زمان بني إسرائيل وذلك أن رسول الله ﷺ ذكر له رجل من بني إسرائيل حمل السلاح ألف شهر على عاتقه في سبيل الله تعالى ، فعجب رسول الله ﷺ

لذلك ، وتمنى أن ذلك في أمته ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وقال : هي (خير من ألف شهر) التي حمل الاسرائيلي فيها السلاح في سبيل الله ، وقيل . إن الرجل كان فيما مضى لا يستحق أن يقال له : عابد حتى يعبد الله ألف شهر ، فجعل الله تعالى (ليلة القدر ،خير من ألف شهر) كانوا يعبدون فيها .

القول الثاني: أن الألف شهر من هذا الزمان ليس فيها ليلة القدر ، (تنزّل الملائكة والرُّوح فيها) .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : الملائكة ـ ليلة القدر ـ في الأرض أكثر من الحصى.

وفي (الرُّوح) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جبريل قاله الأكثرون ، وفي حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبْكبةٍ من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل » .

والثاني : أن الرُّوح طائفة من الملائكة ، لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ، ينزلون من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

والثالث : أنه ملك عظيم من الملائكة (بإذن ربهم) أي : بأمر ربهم ،والمعنى: بما أمر به وقضاه (من كلّ أمر) أي : بكل أمرٍ .

قال المفسرون : تنزّل بكل أمر قضاه الله تلك السَّنَة إلى قابل (سلامٌ هي حتى مطلع الفجر) أي : ليلة القدر (سلام) القدر : ١-٥. في معنى السلام قولان :

أحدهما: أنه لا يحدث فيها داء ، ولا يرسل فيها شيطان. والثاني : أن معنى السلام: الخير والبركة . واعلم أن ليلة القدر باقية إلى القيامة .

قال أبو ذرٍ رضي الله عنه : سألت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله أخبرني عن ليلة القدر أفي رمضان هي أو في غيره ، قال : «بل هي في رمضان، قلت : تكون مع الانبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال: بل هي إلى يوم القيامة ، قلت : في أي رمضان هي ؟ قال : التمسوها في العشر الاول والعشر الاخير ، قلت : في

أي العشرين هي؟ قال: ابتغوها في العشر الاواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها ، ثم حدث وحدث فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك بحقي لما أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضباً شديداً لم يغضب مثله . قال التمسوها في السبع الاواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها » .

وقد ذهب قوم الى أنها ليلة سبع عشرة من رمضان ، والجمهور على أنها في العشر الاواخر ، وأنها تختص بالافراد ، واختلفوا في الاخص بها .

فذهب الشافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين ، ويدل عليه حديث ابن مسعود وهو في « الصحيحين » قال : أُري رسول الله ﷺ ليلة القدر ثم أنسيها ، وقال : أُراني أسجد في ماء وطين » فوالذي أكرمه لرأيته يصلي صلاة المغرب ليلة إحدى وعشرين ، وإن جبهته وأرنبة أنفه في الماء والطين .

وقيل : إنها ليلة ثلاث وعشرين ، وقيل : ليلة خمس وعشرين ، وقيل : ليلة سبع وعشرين ، ويدل له حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان متحرياً فليتحرها ليلة سبع وعشرين ، أو قال : تحرّوها ليلة سبع وعشرين » رواه مسلم .

والحكمة في إخفائها أن يتحقق اجتهاد الطالب ، كما أخفيت ساعة الليل وساعة الجمعة وقد كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر مالا يجتهد في غيره ، وكان يسهر ليله كله .

وعن أبي سلمة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ فقال : قولي : « اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني » .

وقد كان السلف يتأهبون لها ، فكان لتميم الداري حُلة بألف درهم يلبسها في الليلة التي تدعى أنها ليلة القدر ، وكان ثابت وحميد يغتسلان ويتطيبان ويلبسان أحسن ثيابهما ويطيبان مساجدهما في الليلة التي ترتجى فيها ليلة القدر .

إخواني : والله ما يغلو في طلبها عشر ، لا والله ولا شهر ، لا والله ولا دهر ، فاجتهدوا في الطلب فرب مجتهد أصاب .

اكدح لنفسك قبل الموت في مهل ... ولا تكن جاهلاً بالحق مرتابا
إن المنية مورود مناهلها ... لا بد منها ولو عمّرت أحقابا
وفي الليالي وفي الايام تجربة ... يزداد فيها ذوو الالباب ألبابا
بعد الشباب يصير الصلب منحنياً ... والشعر بعد سواد كان قد شابا
تفنى النفوس ولا يبقى على أحد ... ليل سريع وشمس كرها دابا
خلوا بروجاً وأوطانا مشيدة ... ومؤنسين وأصهاراً وأنسابا
فياله سفر بُعداً ومغترباً ... كسيت منه لطول النأي أثوابا
كم من مهيب عظيم المجد متخذ ... دون السّرادق حراساً وحجابا
أضحى ذليلاً صغير الشأن منفرداً ... وما يُرى عنده في القبر بوابا
أدرج لنفسك من دار تزايلها ... ولا تكن للذي يؤذيك طلابا

يا من أمله إلى أجله يقوده !! ما أنت على يقين من نيل ما تريده ، كم من غصن كسر عوده ، كم من ملك غاب تفرقت جنوده .

إخواني : تأملوا حق هذه الايام مهما أمكنكم ، واشكروا الذي وهب لكم السلامة ومكنكم ، فكم مؤمّل لم يبلغ ما أمل ، وإن شككت فتلمح جيرانك وتأمل كم أناس صلوا معك في أول الشهر التراويح ، وأوقدوا في المساجد طلباً للأجر المصابيح ، اقتنصهم قبل تمامه الصائد فقهروا ، وأسرتهم المصائد فأسروا ، ولم ينفعهم المال والآمال ، لما قبروا ، إذا أدارت عليهم المنون رحاها ، وأحلت وجوههم بالثرى فمحاها ، فأعدمتهم صوماً وفطراً ، وزودتهم من الحنوط عطرا ، وهذا حالك يا من لا يعقل أمرا .

وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا ... إذا استوقدت نيرانه في عذاره
وأي أمرىءٍ يرجو من العيش غبطة ... إذا اصفر منه العود بعد اخضراره
ولله في عرض السموات جنة ... ولكنها محفوفة بالمكاره

إخواني : ليلة القدر يفتح فيها الباب ، وتقرّب الاحباب ، ويسمع الخطاب ، ويرد الجواب ، ويكتب للعاملين عظيم الاجر (سلام هي حتى مطلع الفجر).

ليلة تتلقى فيها الوفود ، ويحصل لهم المقصود ، من القبول والفوز والسّعود ، أتُرى ما يؤملك أيها المطرود هذا البحر (سلام هي حتى مطلع الفجر) .

هذه أوقات يربح فيها من فهم ودرى ، ويصل الى مراده كل من جد وسرى ، ويفك فيها العاني وتطلق الاسرى ، تقدم القوم وأنت راجع الى ورا ، أوليس كل هذا قد جرى ، وكأنه لم يجر (سلام هي حتى مطلع الفجر).

فصل

في قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب اليّ عبدي بشيء أحب الي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لاعطينّه ، ولئن استعاذني لاعيذنه ، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

وفي حديث أنس عن النبي ﷺ عن جبريل عن ربه عز وجل قال : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لاسرع شيء الى نصرة أوليائي ».

وعن وهب بن منبه قال : قال الحواريون : يا عيسى من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؟ فقال عليه السلام : هم الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها ، والذين نظروا الى آجل الدنيا ، حين نظر الناس الى عاجلها ، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا ما علموا أنه سيتركهم ، فصار استكثارهم منها استقلالاً ،

وذكرهم إياها فراقاً ، وفرحهم بما أصابوه منها حزناً ، فما عارضهم من نائلها رفضوه ، ومن رفعتها بغير الحق وضعوه ، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها ، وخربت فليسوا يعمرونها وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها ويبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها ، فيشترون مايبقى لهم ، رفضوها فكانوا برفضها فرحين ، وباعوها فكانوا ببيعها رابحين ، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات ، فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة ، يحبون الله ويحبون ذكره ويستضيئون بنوره ، لهم خبر عجيب ، وعندهم الخبر العجيب ، بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، ليسوا يرون نائلا دون مايطلبون ولا أماناً دون مايرجون ، ولاخوفاً دون مايحذرون .

ياهذا ، أمت نفسك حتى تحييها فعاقبة الصبر حلوة ، كم صبر بشر عن مشتهى حتى سمع كُل ، يامن لم يأكل. إن الألم ليحمد إذا كان طريقاً إلى الصحة ، وإن الصحة لتذم إذا كانت سبيلًا إلى المرض ، أي فائدة في لذة ساعة أعقبت غماً طويلًا؟ مافهم مواعظ الزمان من أحسن الظن بالأيام ، إياك أن تسمع كلام الأمل ، فإنه عدو محض ، إذا استوطنت السلامة فتذكر العطب ، وإذا طال بك الأمل فتفكر في المخاوف ، وإذا لذت لك العافية فلاتيأس قرب النقم ، وإن كنت محباً لنفسك فلاتسيء إليها بالزلل ، إن طالب الدنيا لاينال منها حظاً إلا بفوت من الآخرة .

هل العمر إلا ثلاثة أيام؛ يوم قد انقضى بما فيه ذهبت لذته وبقيت تبعته ، ويوم منتظر ليس في اليد منه إلا الأمل ، ويوم أنت فيه قد صاح مؤذناً بالرحيل ، فاصبر فيه عن الهوى فإن الصبر إذا أوصل إلى المحبوب سهل .

إخواني : ان شهر رمضان قد قرب رحيله ، وأزف تحويله ، وهو ذاهب عنكم بأفعالكم ، وشاهد عليكم غداً بأعمالكم ، فياليت شعري ماذا قد أودعتموه ، وبأي الأعمال ودعتموه ، أتراه يرحل حامداً صنيعكم أو ذاماً تضييعكم .

ما كان أعظم ساعاته ، وما كان أحلى جميع طاعاته ، كانت لياليه عتقاً ومباهاة ، وأسحاره أوقات خدمة ومناجاة ، ونهاره زمان قربة ومصافاة ، وساعاته أحيان اجتهاد

ومعافاة ، فبادروا البقية بالتقية ، قبل فوات البر ونزول البرية . أين المخلص المتعبد؟ أين الراهب المتزهد؟ أين المنقطع المتفرد ؟ أين العامل المجود؟ هيهات بقي عبد الدنيا ومات السيد ، وهلك من خطاياه خطأ وعاش المتعمد ، وصار مكان الخاشعين كل منافق متمرد.

رحل عنك شهر الصيام ، وودعك زمان القيام، ولج النصيح وقد لام، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام ؟ فاستدرك مابقي من الأيام.

يا راكباً تطوي المهامه عيسُه ... فتريه رضراض الحصى مترضرضاً

بلّغ رعاك الله سكان الغضى ... مني التحية إن عرضت معرّضا

وهل انقضى زمن الوصال ودنا ... باقٍ على مر الليالي ما انقضى

واعلم أنه ينبغي أن يكون الاجتهاد في أواخر الشهر اكثر من أوله لشيئين. أحدهما: شرف هذا العشر ، وطلب ليلة القدر . فقد روي : «اطلبوها في خمس بقين ، أو ثلاثٍ بقين ، أو آخر ليلة » والثاني لوداع شهر لا يدري هل يلقى مثله أم لا .

ومن المتعلق بالصيام اخراج زكاة الفطر ، فعن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ان شهر رمضان متعلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر».

وينبغي إخراجها في يوم العيد قبل الصلاة فإن صلى العيد ولم يخرجها أخرجها بعد ذلك وينبغي لمن وسّع عليه أن يوسع على الفقراء في هذا اليوم ، ويتطوع باطعام من قدر لحديث كان رسول الله ﷺ يقول : « من فطّر واحداً يعتق من النار ، ومن فطر رجلين كتب الله له براءة من النيران وبراءة من النفاق. ومن فطر ثلاثة وجبت له الجنة . وزوّجه الله من الحور العين » .

ويستحب أن يأكل قبل الصلاة بخلاف الأضحى ، وأن يغتسل ويبكر ويخرج على أحسن هيئة . وإذا صلى العبد رجع من غير الطريق .

ويستحب اتباع رمضان بست من شوال، لقول رسول الله ﷺ « من صام رمضان وأتبعه بست من شوال كان كمن صام الدهر » رواه مسلم .

فيامن عزم على المعاصي في شوال . الشهر احترمت أم لرب الشهر ؟ ويحك رب

الشهرين واحد تقول : أصلح رمضان وأفسد غيره ، عزمك على الزلل في شوال أفسد رمضان هيهات ليس المحب من غيَّره البعد والهجر ، ولا المخلص من حرّكه الثواب والأجر ، لكنه من تساوى عنده الوصل والصد ، وأكب في كل حال على الجد والكد .

إخواني : كم فرِح بيوم العيد مسرور ، وهو مطرود ومهجور ، فيامن يفرح بالعيد لتحسين لباسه ، ويوقن بالموت وما استعد لبأسه ، ويغتر بأقرانه وجلاسه ، وكأنه قد أمن سرعة اختلاسه ، كيك تسر بالعيد عين مطرود عن الصلاح؟ كيف يضحك سنُّ مردود عن الفلاح؟ كيف يسر من يصر على الأفعال القباح؟ كيف لايبكي من قد فاته جزيل الأرباح؟ النوح أحق بك من السرور يامغرور ، والحزن أجدر بك من جميع الأمور . والجد أولى بك من التواني والفتور . كيف يُسر بعيده من تاب ثم عاد؟ كيف يفرح من آثامه في ازدياد ؟

روي عن إبراهيم بن موسى قال : رأيت فتحاً الموصلي يوم عيد وقد رأى على الناس الطيالسة والعمائم فقال لي : ياابراهيم أما ترى ثوباً يبلى وجسداً يأكله الدود غداً . هؤلاء قوم قد أنفقوا خزائنهم على بطونهم وظهورهم ويقدمون على ربهم مفاليس .

وقال أبو بكر المروزي : دخلت على أبي بكر بن مسلم يوم عيد فوجدت عليه قميصاً مرقعاً وقدامه قليل خرُّوب يقرضه ، فقلت : ياأبا بكر يوم عيد الفطر تأكل الخروب؟ فقال لي : لاتنظر الى هذا ولكن انظر إن سألني من أين لك أي شيء أقول ؟ .

كان الشبلي يوم العيد ينوح ويصيح ، ويصرخ وعليه ثياب سود وزرق فاجتمع الناس اليه وسألوه عن نوحه وبكائه فأنشد .

تزين الناس يوم العيد للعيد — وقد لبست ثياب الزرق والسود
وأصبح الناس قد سرُّوا بعيدهم — ورحت فيك الى نوح وتعديد
فالناس في فرح والقلب في ترح — شتان بيني وبين الناس في العيد

كانوا إذا ابتلاهم مولاهم يصبرون ، وإذا أعطاهم مناهم يشكرون ، وإذا استراح البطالون يدأبون ، لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ، (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) .

زال الخوف عنهم واندفع ، فأفادهم حزنهم في الدنيا ونفع ، وتم السرور لهم واجتمع ، وزال الحجاب الذي بينهم وبينه وارتفع ، فهم إلى وجه الكريم ينظرون ، (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) .

سلبتهم والله أيدي المنون ، فأنزلهم قفراً ليس بمسكون ، وهكذا أنتم عن قريب تكونون ، وهذه الدنيا تنذركم وماتسمعون . أما في يوم غادياً تشيعون ، أما ترون الأتراب كيف ينقلون (أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) .

اللهم اسلك بنا سبيل الأبرار ، واجعلنا من عبادك المصطفين الأخيار ، وامنن علينا بالعفو والعتق من النار ، واحفظنا عن المعاصي فيما بقي من الاعمار .

اللهم واسلك بنا سبيل الصدق ، وأعذنا من خوف الخلق وهمّ الرزق ، واكفنا كل همٍ وغم دون الجنة ، واكفنا كل عذاب من فوقنا أو من تحت أرجلنا أو يلبسنا شيعاً ويذيق بعضنا بأس بعض ، واكفنا سوء ما تعلق به علمك مما كان ويكون ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم انصرنا بالخوف منك حتى لا نخاف غيرك ، ولا نرجو غيرك ولا نعبد شيئاً سواك ، يا من بيده ملكوت كل شيء انصرنا باليقين ، وأيدنا بالروح الأمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين ، الأحياء منهم والميتين ، برحمتك يا أرحم الراحمين .



المجلس التاسع والثلاثون

في فضل عشر ذي الحجة و يوم عرفة

الحمد لله العالم بعدد الرمل والنمل والقطر ، ومصـرف الوقت والزمن والدهر ، والخبير بخافي السر وسامع الجهر ، القدير على ما يشاء بالعز والقهر ، أقرب الى العبـد من العنق الى النحر ، هو الذي يسيّركم في البر والبحر ، الذي لهيبة عظمتـه تحرك الساكن وارتج ، والى كثير عطائه قطع قاصدوه العميق الفج ، وشرع في شهركم هـذا الى بيته الحج ، استدعى من شاء الى زيارة بيته العتيق ، وحرك عزم القاصد وأعـانه بالتوفيق ، وسهل للسالكين الى حرمه مستوعر الطريق ، فأقبلوا بين ماش على قدميه استسعاه يقين التصديق (وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق) .

أحمده حمد من آمن به وعرفه ، وأشكره على إدراك ذي الحجّ ويوم عرفة ،وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مثل له في اسم وصفة ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بالرحمة ، وبالرأفة وصفه .

صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الذي حالفه وما خالفه ، وعلى عمر الذي رفض الدنيا أنفة ، وعلى عثمان الذي جهز جيش العسرة وأسعفه ، وعلى عليٍّ الذي ما أُشكل علمٌ إلا كشفه ، وعلى سائر آله وأصحابه صلاة دائمة ما تحرك لسان وشفة ، وسلم تسليما .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أفضل أيام الدنيا أيام العشر . قالوا :يا رسول الله، ولا مثلهن في سبيل الله ؟ قال : لا ، إلا من عُفر وجهه في التراب » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : في هذه الأيام يعـدل صيام كل يوم بصيام سنة ، وقيام كل ليلة كقيام ليلة القدر .

قال أبو عثمان النهدي : كانوا يعظمون ثلاث عشرات :العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأواخر من رمضان ، والعشر الأول من المحرم .

واعلموا رحمكم الله تعالى . أن هذه العشر تحتوي على فضائل عشر :

الأولى : أن الله عز وجل أقسم بها فقال : (وليال عشر) .

والثانية : سماها الأيام المعلومات ، فقال تعالى: (ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) الحج :٢٨ .قال ابن عباس: هي أيام العشر.

والثالثة : أن الرسول شهد لها بأنها أفضل أيام الدنيا .

الرابعة : أنه حث على أفعال الخير فيها .

الخامسة : أنه أمر بكثرة التسبيح والتحميد والتهليل فيها .

السادسة : أن فيها يوم التروية ، وقد ورد أن صيامه بصيام سنة .

السابعة: أن فيها يوم عرفة وصومه بسنتين .

الثامنة : أن فيها ليلة جمع وهي ليلة المزدلفة ، وقد ورد أنها تعدل ليلة القدر .

التاسعة : أن فيها الحج الأكبر الذي هو ركن من أركان الإسلام .

العاشرة : وقوع الأضحية التي هي علم للملة الإبراهيمية والشريعة المحمدية .

وأما يوم عرفة فقد عظم الله أمره ، ورفع على الأيام قدره ، وقد أقسم الله به ، فقال تعالى : (والشفع والوتر) فذكر عن النبي ﷺ ، أن الشفع : يوم النحر ، والوتر: يوم عرفة .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : في قوله تعالى : (وشاهد ومشهود) قال : « الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة » .

ومن فضائله أن الله تعالى أنزل فيه (اليوم أكملت لكم دينكم) ومنها أن الله يباهي بالحاج فيه ملائكته ويعم بالغفران ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم عرفة ينزل الله تبارك وتعالى الى السماء الدنيا ، فيباهي بكم الملائكة ، فيقول : انظروا الى عبادي أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق ، أشهدكم

أني قد غفرت لهم . فتقول الملائكة : رب فيهم فلان وفلانة ، فيقول الله عز وجل : قد غفرت لهم . قال رسول الله ﷺ : فما من يوم أكثر عتيقاً من يوم عرفة » .

وأما يوم النحر فهو يوم عظيم ، فعنه ﷺ أنه قال : « أفضل الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم الفطر » ومن المتأكد فيه التضحية لمن استطاعها ، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال في الأضحية : « إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها ، وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الارض فطيبوا بها نفساً » .

ما لنفسي عن معادي غفلت ... أتراها نسيت ما فعلت
أيها المغرور في لهو الهوى ... كل نفس ستوى ما عملت
أف للدنيا فكم تخدعنا ... كم عزيز في هواها خذلت
رب ريح لأناس عصفت ... ثم ما إن لبثت أن سكنت
وكذاك الدهر في تصريفه ... قدمٌ زلت وأخرى ثبتت
ويد الايام من عاداتها ... أنها مفسدة ما أصلحت
أين من أصبح في غفلته ... في سرور ومرادات خلت
أصبحت آماله قد خسرت ... وديار اللهو منه خربت
جز على الدنيا بقلب حاضر ... ثم قل يا دار ماذا فعلت
أوجه كانت بدوراً طلعاً ... وشموساً طالما قد أشرقت
قالت الدار تفانوا ومضوا ... وكذا كل مقيم إن ثبت
عاينوا أفعالهم في تربهم ... وسل الاجداث عما استودفت
كلُّ نفس سوف تلقى فعلها ... ويح نفس بهواها شغلت
إنما الدنيا كظل زائل ... وكأحلام منام ذهبت

عباد الله : هذه الايام مطايا أين العدة قبل المنايا ، أين أين الانفة من دار الاذايا ؟ أين العزائم أرضيتم بالدنايا؟ إن بلية الهوى لا تشبه البلايا ، وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا ، يا مستورين ستظهر الخفايا ، سرية الموت لا تشبه السرايا ، قضية الزمان لا تشبه القضايا ،

رامي المنون يصمي الرمايا ، ملك الموت لا يقبل الهدايا .

أيها الشباب ستسأل عن شبابك ، أيها الكهل تأهب لعتابك ، أيها الشيخ تدبَّر أمرك قبل سد بابك .

يا مريض القلب قف بباب الطبيب ، يا منحوس الحظ اشك فوات النصيب ، لذ بالجناب ذليلاً ، وقف على الباب طويلاً ، واتخذ في هذا العشر سبيلاً ، اجعل جناب التوبة مقيلاً ، واجتهد في الخير تجد ثواباً جزيلاً ، قل في الاسحار: أنا تائب ، وناد في الدجى قد قدم الغائب .

اعف عني واقلني عثرتي	يا غياثي لملمات الزمن
لا تعاقبني فقد عاقبني	ندم أقلق روحي في البدن
لا تطير وسناً عن مقلة	أنت أهديت لها طيب الوسن
إن تؤاخذني فمن ذا أرتجي	وإذا لم تعف عن ذنبي فمن ؟

لله در أقوام أعيادهم قبول الاعمال ، ومرادهم أشرف الآمال ، وأحوالهم تجري على كمال ، وحلاهم التقى وياله من جمال .

أين من ضحى بشهوات نفسه فأمات حظها ؟ أين من حثها على لحاق السلف الصالح وحضها ؟ أين من خوفها حسابها وحذرها عرضها ؟ أين من قطع من طريق المجاهدة طولها وعرضها ؟ أين من أدرك من مقامات المقبولين ولو بعضها؟

يا من يسر بعيده وقد تعدى الحدود ، ابك مصيبتك فإنك مهجور مطرود ،يامن عمره ينتهب وما الماضي مردود ، أترى أن تخسر فتتحسر لفوات المقصود .

لقد أسمعتك المواعظ من إرشادها نصحاً ، وأخبرك الشيب أنك بالموت تقصد وتنحى ، وشرح الزمان حال من كان قبلك شرحاً ، أين من فرح بعيد الفطر وعيد الاضحى ؟ أما تزود الحنوط من العطر وفي القبر أضحى ، (يا أيها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحا) .

ستعلم أيها العاصي ما أتيت ، وستدري يوم الحساب من عصيت ، وستبكي دماً

لقبح ماجنيت ، كأنك بالموت قد جاءك فانتهيت وارعويت ، وتذكرت تلك الخطايا فتنفست وبكيت ، وأخلي منك البيت شئت أو أبيت ، وصحت بلسان الأسف رب ارجعون وليت ، انهض ناجياً قادراً قبل أن تسمى باسم ميت ، إن سهام الموت قد زفت إليك ، اقبل نصحي وقم نادماً على قدميك .

يا أيها النفس اسمعي لقولي ... أنت من الحياة في أصيل
وفي غرور أمل طويل ... فلا يغرنك ضحى التأميل

فصــل

في قوله تعالى (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً)

قال المفسرون : لمافرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يارب ومايبلغ صوتي؟ قال: أذّن وعلي البلاغ ، فعلا على أبي قبيس وقال : أيها الناس إن ربكم قد بنى بيتاً فحجوه ، فسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء فمن سبق في علم الله تعالى أن يحج أجابه لبيك اللهم لبيك .

وقوله رجالاً أي : مشاة . وقد حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين. وحج الحسن بن علي خمساً وعشرين حجة ماشياً ، والنجائب تقاد بين يديه ، وحج أحمد بن حنبل ماشياً مرتين .

أمر الله عز وجل نبيه الخليل ، بعد بناء بيته الجليل ، أن ينادي عنده إلى الفضل الجزيل ، ليحط عنهم مولاهم كل وزر ثقيل ، فقال سبحانه وتعالى : (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً) ياإبراهيم نادهم ، لتحصيل نفعهم في معادهم ، وأزعجهم بندائك عن بلادهم ، وأخرجهم عن أهلهم وأولادهم ، فليقصدوا بابي مسرعين عجالاً (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً) .

يا غافلا عني أنا الداعي ، يامختلفاً عن زيارتي أنا للقاء ساعي ، يامشغولا عن قصدي لوعرفت اطلاعي ، أنا أقمت خليلي يدعو الى سبيلي وأقبلت بتنويلي على محبي إقبالا .

(وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا) .

لله در أقوام فارقوا ديارهم ، وعانقوا افتقارهم ، وآثروا غبارهم ، وطهروا أسرارهم بين يدي مولاهم سبحانه وتعالى ، يدعون عندالبيت قريباً سميعاً ، يقفون بين يديه بالذل جميعاً ، ويسعون في مراضيه سعياً سريعاً ، وقد ودعوا مطلوب شهواتهم توديعاً ، فأفادهم مولاهم أن رجعهم كيوم أخرجهم أطفالا .

هجروا الكدر وهاجروا إلى الصفا ، وقصدوا المروة بعد أن أمُّوا الصفا ، وأعدوا الزاد وخافوا الجفا ، وتعلقت آمالهم بمن هو حسبهم و كفى .

فارقوا لأجل مولاهم أولادهم ، وأعروا عن رقيق الثياب أجسادهم ، وتركوا في مراضي محبوبهم مرادهم ، فأصبحوا قد أعفاهم مولاهم ، وأمسوا قد أفادهم .

استسعاهم اليه فاجتهدوا وجدوا ، فتزودوا التقوى في طريقهم واستعدوا واتبعوا الأعضاء في خدمته و كدوا ، وطرقوا بأنامل الرجاء باب اللجاء فما ردوا .

ناداهم وهم في الاصلاب والارحام ، واستصلحهم لزيارة بيته الحرام ، وأكرمهم بالغفران فيانعم الإكرام ، ورحم شعث الرؤوس وغبار الاقدام ، وأنتم إن بعدتم عن ذلك المقام ، فقد شاركتموهم في الإيمان والإسلام ، فارغبوا بالتضرع إلى الملك العلام ، فانه معروف بالفضل موصوف بالإنعام ، قد أحرم القوم عن الحلال فأحرموا أنتم عن الحرام ، منعوا أنفسهم من الطيب فاحذروا أنتم جيفة الهوى .

يامن كلما حُذر عن لهوه رسب ، هذا بريد الموت لك في الطلب ، بادر قبل الفوات فالزمان نُهَب ، وانتظر سلب الدهر ماقد وهب ، أين الجامع المانع للذهب ذهب ؟ أين مخاصم الاقدار قل لي من غلب؟ أتاه الفاجع فاقترب وما ارتقب ، وأبرزه من قصره وطالما احتجب ، يـامعرضاً عنا عناك التعب ، ياهاجراً لنا إلى كم ذا الغضب؟ ، يامضغة ياعلقة خدمتنا نسب ، يامؤثراً غيرنا بعت الدر بالمخشلب .

متى ترجع حراً يامرقوق؟ متى تصير سابقاً يامسبوق؟ إياك والهوى فكم قتل عاشقاً معشوق؟ أول الهوى سهل ثم تنخرق الخروق ، كلما حصدنا نباته بمنجل الصبر خرجت

العروق ، وإنما لذات الدنيا مثل خطف البروق ، ميز بين مايفنى وبين مايبقى ترى الفروق كف ٌ كف التواني إن شئت أن تفوق ، تالله مانصحك إلا محب أو صدوق .

ذكر عن مالك بن أنس رحمه الله قال : صحبت جعفر الصادق في طريق الحج ، فلما أراد أن يلبي تغير وجهه ، وارتعدت فرائصه ، فقلت : مالك يا ابن رسول الله ؟ فقال : أردت أن ألبي ، قلت : فماتوقفك ؟ قال : أخاف أن أسمع غير الجواب .

وقف مطرف وبكر بن عبد الله ، فقال مطرف : اللهم لاتردهم من أجلي ، وقال بكر ماأشرفه من مقام لولا أني فيهم .

وقف الفضيل بن عياض بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة ، فلما كادت الشمس تسقط قبض على لحيته ، ثم رفع رأسه الى السماء ، وقال : واسوأتاه منك وإن عفوت .

وعن أبي الأديان قال : مارأيت خائفاً إلا رجلا واحداً . كنت بالموقف فرأيت شاباً مطرقاً منذ وقف الناس إلى أن سقط القرص ، فقلت : ياهذا ابسط يدك للدعاء ، فقال لي : ثم وحشة . فقلت له : فهذا اليوم يوم العفو عن الذنوب ، قال : فبسط يده ففي بسط يده وقع ميتاً .

وعن ابن الجلاء قال : كنت بذي الحُليفة ، وشاب يريد أن يحرم ، فكان يقول : يارب أريد أن أقول لبيك وأخشى أن تجيبني بلا لبيك ولا سعديك ، يردد ذلك مراراً ثم قال : لبيك اللهم مدّ بها صوته فخرجت روحه .

قال سريٌ : لقيت في طريق الحج جارية حبشية فقلت إلى أين ؟ فقالت : الحج ، قلت : الطريق بعيد ، فقالت :

بعيد على كسلان أوذي ملالة   وأما على المشتاق فهو قريب

ثم قالت : ياسري (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً)

سبحان من إلى بيته حملهم ، وإلى حرمه أوصلهم ، وبفنائه أنزلهم ، وبإخلاص قصده جملهم ، فلقد جمع الخير الجم لهم ، ليشهدوا منافع لهم . حركهم بتوفيقه فثاروا ،

واستدعاهم إلى بيتـه فساروا ، وأوصلهم إلى حرمه فزاروا ، فياحسنهم في الطواف إذ سعوا وداروا ، فضافهم من أضافهم إلى الاحباب ، وأنزلهم ليشهدوا منافع لهم .

يا كثرة ماأغفاهم من الخطايا ، ياشرف ماأنالهم من الهدايا ، لقد تلقاهم بالجود والتحايا ، وحط عنهم من الذنوب والخطايا ، هاأثقلهم ، ليشهدوا منافع لهم .

أتعبهم المشي ، وأزعجهم المركوب ، وكان ذلك هيناً في قرب المحبوب ، وأنعم عليهم بكل مطلوب ، وقابلهم بالعفو عن الذنوب ، وقبلهم ليشهدوا منافع لهم .

إخواني : ان لم نصل الى ديارهم ، فلنصل انكسارنا بانكسارهم ، ان لم نقدر على عرفات ، فلنستدرك ماقد فات ، ان لم نصل الى الحجر فلنُلن كل قلب كالحجر ، ان فاتنا نزول منى ، فلننزل دموع الحسرات هاهنا . أين المنيب الموافق؟ أين المجدّ المسابق؟ هذا يوم يرحم فيه الصادق ، هذا أوان يطلع فيه الخالق ، ياموءملاً مثله قد لاتوافق .

أسفاً لعبد لم يغفر له اليوم ماجنى ، حضر مواسم الارباح فما حصَّل خيراً ولا اقتنى ، ليت شعري من منا خاب ومن منا نال المنى .

اللهم ياغفار الذنوب اغفر ذنوبنا ، ياستار العيوب استر عيوبنا ، يا كاشف الكروب اكشف كروبنا ، يامنتهى الآمال بلّغنا مطلوبنا برحمتك ياأرحم الراحمين .



المجلس الاربعون

في ذكر خلق ابن آدم

الحمد لله الخالق بقدرته ما دب ودرج ، الدال على وحدانيته بالبراهين والحجج ، أنشأ الأبدان من النطف وحفظ فيها المهج ، ونوّر العيون فأحسن في تركيبها الدعج ، وأنطق اللسان فأبان سبيل المراد ونهج ، وعلم الإنسان البيان فإذا خاصم فلج ، بقدرته سكن المتحرك فما زال ولا اختلج ، ولهيبته تحرك الساكن فتغير وانزعج ، طوى اللطف في تكاليف الخلائق ودرج ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، خلق البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ومرج ، واستخرج بدائع الودائع من بواطن اللجج ، وعلم ماظهر من الأرض وما فيها ولج ، بصير يرى جريان الدماء في باطن الودج ، سميع يدرك بسمعه صوت الباكي إذا نشج ، أنزل كلاماً قديماً من ورد نحوه ارتوى وابتهج ، قرآناً عربياً غير ذي عوج .

أحمده حمد من جمع المحامد في حمده ودرج ، وأشهد أنه العظيم القدير الرفيع الدرج ، وأصلي على رسوله محمد الذي إلى قاب قوسين عرج .

صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق الذي لا يبغضه إلا الرعاع الهمج ، وعلى عمر الذي يفوح من ذكره أذكى الأرج ، وعلى عثمان الذي جمع الإنفاق الى الصهر فازدوج ، وعلى علي المجمع على حبه فإن خرج شخص من الإجماع خرج ، وعلى سائر آله وأصحابه الذين بهم الدين ابتهج ، وسلم تسليما .

قال الله عز وجل : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون : ١٢ المراد بالإنسان هاهنا آدم عليه السلام ، والسلالة القليل مما ينسل ، فاستل من كل الارض .

وقد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض » (ثم جعلناه نطفة) يعني : ابن آدم ، والنطفة : المني (في قرار) يعني : الرحم (مكين) أي : حريز ، قد هُيئ لاستقراره فيه (ثم خلقنا النطفة علقة) والعلقة : دم عبيط جامد (ثم جعلنا العلقة مضغة) والمضغة : لحمة صغيرة ، وسميت بذلك لأنها بقدر ما يمضغ (فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله) أي : تعالى وارتفع (أحسن الخالقين) أي : المصورين المقدرين .

روى زيد بن وهب عن عبد الله قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقيٌّ أم سعيد . فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجاه في «الصحيحين».

وفي أفراد مسلم من حديث حذيفة بن أُسيد عن النبي ﷺ قال : « إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله اليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها وبصرها ، وجلدها ولحمها وعظمها ، ثم قال : يا رب ذكرا أم أنثى ، فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب أجله ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول : يا رب رزقه ، فيقضي ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد في أمر ولا ينقص .

عليك بتقوى الله واقنع برزقه ... فخير عباد الله من هو قانع
فلا تلهك الدنيا ولا طمع لها ... فقد تهلك المغرور فيها المطامع
وصبراً على نوبات ماناب واعترف ... فما يستوي صبر الصبور وجازع
أعاذل ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت بالنفس منه الاضالع

الدنيا معبر فاقنع باليسير ،وليكن همك في الرحيل والمسير ، من قنع فيها بالبلغة سلم ، ومن أكثر منها أسف وندم .

مر أبو حازم بجزار ، فقال له : يا أبا حازم خذ من هذا اللحم ، فقال : ليس معي درهم ، قال : أنا أنظرك ، قال : أنا أَنظر نفسي .

وكان وهب بن منبّه يعظ عطاء الخراساني ويقول له : ألم أُخبر أنك تأتي الملوك وأبناء الملوك ، وتحمل عِلمك اليهم ؟ يا عطاء : ارض بالدون من الدنيا مع الحكمة ولا ترض بالدون من الحكمة مع الدنيا ، ويحك ياعطاء : إن كان ما يغنيك ما يكفيك ، فليس من الدنيا شيء يكفيك ، وكان ابن السماك يقول :

إني أرى من له قنوع يعدل من نال ما تمنى
والرزق يأتي بلا عناء وربما فات من تعنى

عري أويس حتى جلس في قوصرة ، وقدم بشر الحافي ، من عبادان ليلا وهو متزر بحصير ، وكان أبو معاوية الأسود يلتقط الخرق من المزابل ، ويغسلها ويلفقها ، فيقال له : إنك تكسى خيراً من هذا ، فيقول : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله تعالى لهم بالجنة كل مصيبة .

وأتى إبراهيم بن أدهم بستين ألفاً فردها ، وقال : كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء .

كتب حكيم الى حكيم أخ له أما بعد : فاجعل القنوع ذخراً ولا تعجل على ثمرة لم تدرك فإنك تدركها في أوانها ، عذبة والمدبر لك أعلم بالوقت الذي يصلح لما تؤمل ، فثق في خيرته لك في أمورك كلها .

إذا ضنّ من ترجو عليك بنفعه فدعه فإن الرزق في الارض واسع
ومن كانت الدنيا مناه وهمه سباه المنى واستعبدته المطامع
ومن عقل استحيا وأكرم نفسه ومن قنع استغنى فهل أنت قانع

يا من هو على محبة الدنيا متهالك ، أَما علمت أنك عن قليل هـالك ، أَما تيقنت أن الدنيا محبوب فارك ، ثم لست لها بعد العلم بها بتارك .

قدّر أَنك ملكت الممالك ، أَما الأخير سلبك عن أَهلك ومالك ،هذا حسام الموت مسلول ليس بكالّ ولا مغلول ، كل دم أَراقه مطلول ، أذل والله أصعب الحمس ،وفتك قهراً بالاسود الشمس . وساوى في القسر بين الزنج والفرس ، وأَعاد الفصحاء تحت البلى كالخرس ، ومحا بالترح أثر الفرح بالعرس .

أَين الوالدون وما ولدوا ؟ أَين الجبارون وأَين ما قصدوا ؟ أَين أَرباب المعاصي على ماذا وردوا ؟ أَما جنوا ثمرات مـا جنوا وحصدوا ؟ أَما قدموا على أعمـالهم في مالهم ووفدوا ؟ أَما خلوا في ظلمات القبور بلى وانفردوا ؟ أَما ذلوا وقلوا بعد أن عتوا ومردوا؟ أَما طلبوا زاداً يكفي في طريقهم ففقدوا ، أَما حل الموت بهم فحل عقد مـا عقدوا ؟ عاينوا والله كل ما قدموا ووجدوا ، فمنهم أقوام شقوا ومنهم أقوام سعدوا .

لا والد خـالد ولا ولد وكل جلد يخونه الجلد
كان أهل القبور لم تسكنوا الدور ولم يجيء منهـم أحـد
ولم يكونوا إلا كهيئتهم لم يولـدوا قبلها ولم يلدوا

أين الذين ملكوا ونالوا؟ زالوا ، وسنؤول الى ما اليه آلوا ، هذا مصيرنا يا معاشر الغافلين ، واللحود بيوتنا بعد الترف واللين ،والقيامة تجمعنا وتنصب الموازين ،والاهوال عظيمة فأين المكتفي الحزين ؟ (إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) .

يا رهـين الآفات والمصائب ، يا أسير الطـارقات النوائب ، إياك وإيا الآمـال الكواذب ، فالدنيا دار ولكن لست لها بصاحب ، اما أرتك في تقلبها العجائب ، بمن مشى في المشارق والمغارب ، ثم أرتك فيك شيب الذوائب ، إن سهام الموت لصوائب ، لا يردها محارب ولا يفوتها هارب ، تدب الينا دبيب العقارب ، بينما تسمع صوت من سر بها صار صوت نادب ، يا اسير حب الدنيا إن قتلتك من تطـالب ؟ كأنك بك قـد بتّ

فرحا مسرورا ، فأصبحت ترحاً مثبوراً ، وتركت مالك لغيرك موفوراً ، وخرج عن يدك فصار الكل شورى ، وعاينت مافعلت في الكتاب مسطوراً ، وعلمت أنك كنت في الهوى مغروراً ، واستحالت صبا الصبر فعادت دبوراً ، وأسكنت لحداً تصير فيه مأسوراً ، ونزلت جدثاً خرباً إذا تركت قصراً معموراً ، ودخلت في أمر كان (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)

وماهذه الدنيا بدار إقامة ... فيحزن فيها القاطن المترحل

هي الدار إلا أنها كمفازة ... أزاح بها ركب وركب تحولوا

وما خلفنا منها مفر لهارب ... فكيف لمن رام النجاة تحيّل

وكل وان طال الثواء مصيره ... إلى مورد ما عنه للخلق معدل

فصل

في قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد)

خوف المخالفين مافعل بنظائرهم . وفي إرم أربعة أقوال. أحدها : أنه اسم أمة من الامم ، ومعناه القديمة . والثاني : أنه اسم قبيلة من قوم عاد . والثالث : أنه اسم لجد عاد لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . والرابع : أنه اسم بلدة فيخرج في قوله ذات أربعة أقوال . أحدها : انهم كانوا أهل عمُد وخيام . والثاني : أن المراد بالعماد الطويل ، يقال معمد إذا كان طويلا . والثالث : ذات الشدة . والرابع : ذات البناء المحكم . (التي لم يخلق مثلها في البلاد) فيه قولان . أحدهما : القبيلة في قوتها وطولها . والثاني : المدينة .

روي عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت ، فبينما هو في صحارى عدن أبين في تلك الفلوات إذ هو وقع على حصن ، حول ذلك الحصن قصور كثيرة، فلما

دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله ، فإذا لا خارج ولا داخل ، فنزل عن ناقته فعقلها، ثم استل سيفه ، ودخل من باب الحصن ، فإذا هو ببابين عظيمين لم يُر في الدنيا شيء أعظم منهما ولا أطول ، وفي البابين نجوم من ياقوت أبيض وياقوت أحمر ، يضيء البابان ما بين الحصن والمدينة .

فلما رأى ذلك الرجل أعجبه وتعاظمه الأمر ، فدخل فإذا هو بالمدينة لم ير الراءون مثلها قط ، فإذا هو في قصور كل قصر معلق تحته أعمدة من زبرجد وياقوت ، ومن فوق كل قصر منها غرف ، ومن فوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وكل مصاريع تلك القصور وتلك الغرف مثل مصاريع باب المدينة بالياقوت الأبيض والأصفر والأزرق ، مفروشة تلك القصور وتلك الغرف باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ، فلما عاين الرجل ذلك ولم ير أحداً أهاله ذلك وأفزعه ، ثم نظر في الأزقة فإذا هو بشجر في كل زقاق منها قد أثمر ، وتحت الأشجار أنهار مطردة يجري ماؤها في قنوات من فضة ، فقال الرجل : إن هذه هي الجنة التي وصف الله تعالى ، فحمل معه من لؤلؤها وزبرجدها ثم عاد الى بلده ، فأظهر ما كان معه وأعلم الناس أمره ، فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان . فكتب الى صنعاء ، فجيء به فسأله ما رأى فحدثه ، فأنكر ذلك، فأراه مما أخذ منها لؤلؤة قد اصفرت وبنادق مسك لم يجد لها رائحة ، ففتها فإذا ريح المسك، فبعث الى كعب وقال : إن دعوتك لأمر ورجوت أن يكون علمه عندك ، فهل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة عمدها زبرجد وياقوت وحصباؤها لؤلؤ ؟ فقال : نعم هي إرم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد . قال : حدثني حديثها .

قال : إن عاداً الأول كان له ابنان : شديد وشداد، فهلك عاد فملكا البلاد ولم يبق أحد إلا في طاعتهما ، ثم مات شديد ، فملك شداد وحده ، فكانت له الدنيا جميعها ، وكان مولعاً بقراءة الكتب ، وكلما مر بذكر الجنة دعته نفسه أن يبني مثلها عتواً على الله تعالى فأمر على صنعتها مائة قهرمان ، مع كل قهرمان ألف من الأعوان ، ثم قال : انطلقوا الى

أطيب فلاة في الأرض وأوسعها فاعملوا لي مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد ، وفوق القصور غرف ومن فوق الغرف غرف ، واغرسوا تحت تلك القصور في أزقتها أصناف الثمار وأجروا تحتها الأنهار ، فإني أسمع في الكتب صفة الجنة وأنا أحب ان أعمل مثلها في الدنيا ، فقالوا : كيف تقدر على ماوصفت لنا من الزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ فقال : ألستم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي؟ قالوا : بلى ، قال : فانطلقوا الى معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة وخذوا مافي أيدي الناس من ذلك ، و كتب الى كل ملك في الدنيا يأمره أن يجمع له مافي بلاده من الجواهر ، ويحفروا معادنها ، فجمعوا ذلك في عشر سنين ، وكان عدد الملوك مائتين وستين ملكا ، وخرج الفعلة فتبددوا في الصحارى ، فوقعوا على صحراء عظيمة نقية من الجبال والتلال وإذا هم بعيون مطردة ، فقالوا : هذه صفة التي أمرنا بها ، فأخذوا بقدرالذي أمرهم من الطول والعرض وأجروا قنوات بالأنهار ، ووضعوا الاساس وأرسلت اليهم الملوك بالزبرجد والياقوت والذهب والفضة واللؤلؤ والجواهر ، واقاموا في ذلك ثلاثمئة سنه ، وكان عمر شداد سبعمائة سنة ، فلما أتوه وأخبروه بفراغهم منها قال: انطلقوا ، فاجعلوا فيها حصناً ، واجعلوا حول الحصن الف قصر عند كل قصر الف علم يكون في كل قصر وزير من وزرائي ، ففعلوا ، ثم أخبروه فأمر بألف وزير من خاصته ومن يثق به أن يتهيأ للنقلة الى إرم ذات العماد ، وامر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز، فأقاموا في جهازهم عشر سنين ، ثم سار بمن أراد ، فلما بلغ الى مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء ، فأهلكتهم جميعاً . ولم يدخل ارم ولا أحد ممن كان معه ، ولم يقدر أحد على ذلك حتى الساعة .

وروى الشعبي عن دغفل الشيباني عن علماء حمير قالوا : لما هلك شداد بن عاد ومن معه من الصيحة ، ملك بعده ابنه وقد كان أبوه خلفه بحضرموت على ملكه وسلطانه ، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة الى حضرموت ، وامر فحفرت له حفيرة في مغارة فاستودعه

فيها على سرير من ذهب وألقي عليه سبعين حُلة منسوجة بقضبان الذهب ، ووضع عند رأسه لوحاً عظيماً من ذهب وكتب عليه :

اعتبر بي أيها المغرو ر بالعمر المديد
أنا شداد بن عاد صاحب الحصن العميد
وأخو القوة والبأ ساء والملك الحشيد
دان أهل الأرض لي من خوف وعدي ووعيد
وملكت الشرق والغر ب بسلطان شديد
وبفضل الملك والعدّ ة فيه والعديد
فأتى هود وكنا في ضلال قبل هود
فدعانا لو قبلنا ه في الأمر الرشيد
فعصيناه فنادي ت ألا هل من محيد
فأتتنا صيحة تهوي من الأفق البعيد
فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد

قوله تعالى : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) أي : قطعوه ، ونقبوه (وفرعون ذي الأوتاد) فيه ستة أقوال :

أحدها : أنه كان يعذب الناس بأربعة أوتاد يشدهم فيها ، ثم يرفع صخرة ، فتلقى على الإنسان فتشدخه . والثاني : أن المعنى ذو البناء المحكم . والثالث : أن المراد بالأوتاد الجنود كانوا يشدون ملكه . والرابع : أنه كان يبنى مناراً يذبح عليه الناس . والخامس : أنه كان له أربع أُسطوانات يأخذ الرجل ، فيمد كل قائمة منه إلى أُسطوانة فيعذبه . والسادس : أنه كانت له أوتاد وأرسال وملاعب يلعب عليها (الذين طغوا في البلاد) يعني : عاداً وثمود وفرعون عملوا بالمعاصي ، تجبروا على أنبياء الله تعالى (فأكثروا فيها

الفساد) بالقتل والمعاصي (فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) أي : به بالعذاب .

تساوى الناس في طرق المنايا فما سلم الصريح ولا الهجين
تدينّا البقاء من الليالي ومن أرواحنا توفى الديون
كأنا قد شككنا في المنايا وعند جميعنا الخبر اليقين

قل للمشغولين بالفساد ، الواقفين مع العناد ، الى متى ظلم العباد ، كم مستلب مانال المراد (إن ربك لبالمرصاد)الفجر: ١-١٤.

أَما عاد العذاب على عاد ، أما أمرض وما عاد ، أين من ادعى الربوبية أو كاد ؟ كاده الجبار فيمن كاد (إن ربك لبالمرصاد) .

بينما هو في ظلم المظالم ، سلب على أقبح فعله الظالم ، فبات يقرع سن نادم،ولكن لما عثر الجواد أخذوا الله في مضيقه ، فأغصه الموت بريقه ، وبقي متحيراً في طريقه ، لا ماء ولا زاد ، كأنك بك قد بلغتك النوبة ، وصرعت صرعة تعجزك الأوبة، فقمت تعرض حينئذ سلع التوبة ولكن وقت الكساد.

فلا تغتر بمالك وقصرك ، ولا تعجب بنهيك وأمرك ، يا طائر الهوى ستؤخذ من وكرك ، وما تعجز الصياد .

كم أرشدك الى رشادك ، وأنت مقيم على فسادك ، كم أدعوك الى استعدادك ، وأنت مع سعادك ، ضرب بوق رحيلك وما اهتممت بزادك ، أنا في واد وأنت في واد .

قد بالغت لك في المصالح ، وقمت منذراً غب القبائح ، والطريق واضح ، والعلم لائح (ومن يضلل الله فما له من هاد) غافر : ٣٣ .

اللهم يا منور قلوب العارفين ، يا قاضي حوائج السائلين ، يا قابل توبة المذنبين ،

يا مفرجاً عن المكروبين ، يا مروّحاً عن المغمومين ، تب علينا واغفر لنا ، وعافنا واعف عنا يا خير العافين .

اللهم كن بنا رؤوفاً ، وعلينا عطوفاً ، وخذ بأيدينا اليك أخذ الكرام عليك ، وقوّمنا إذا اعوججنا ، وأعنا إذا استقمنا ، وكن لنا حيث كنا .

اللهم افتح لنا فإنك خير الفاتحين ، وانصرنا فإنك خير الناصرين ، وارحمنا فإنك خير الراحمين ، وارزقنا فإنك خير الرازقين ، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين .



المجلس الحادي والاربعون

في ذكر السموات والارض ومافيهما

الحمد لله رافع السماء مزينة بالنجوم ، ومثبّت الأرض بجبال في أقاصي التخوم ، عالم الأشياء بعلم واحد وإن تعدد المعلوم ، ومقدّر المحبوب والمكروه والمحمود والمذموم لا ينفع مع منعه سعيٌ فكم مجتهد محروم ، ولا يضر مع إعطائه عجز ، فكم عاجز وافر المقسوم ، اطلع على بواطن الأسرار وعلم خفايا المكتوم ، وسمع صوت المريض المدنف المرحوم ، وأبصر وقع القطر من سحاب مركوم ، (وما ننزله إلا بقدر معلوم) ، جل أن تحيط به الأفكار أو تتخيله الوهوم ، وتكلم فكلامه مسموع مقروءٌ مفهوم ، وقضى فقضاؤه إذا شاء إنقاذه محتوم (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) البقرة: ٢٥٥. قضى على الأحياء بالممات (فإذا بلغت الحلقوم) فات المقصود المراد وعز المطلوب المروم ، ونقل الآدمي عن جملة الوجود الى حيز المعدوم ، وبقي أسير أرضه الى يوم عرضه والقدوم ، وإذا حضر حسابه نشر كتابه المختوم ، وجوزي على ما حواه الكتاب وجمعه المرقوم (وعنت الوجوه للحيّ القيوم).

أحمده حمداً يتصل ويدوم ، وأُصلي على رسوله محمد صلاة تبلغه أعلى المروم ، صلى الله عليه وعلى صاحبه أبي بكر الصديق المتصدق على السائل والمحروم ، وعلى عمر المنتصف من الظالم للمظلوم ، وعلى عثمان المجتهد إذا رقد النؤوم ، وعلى علي الذي حاز الشرف والعلوم ، وعلى سائر آله وأصحابه بالخصوص والعموم ، وسلم تسليماً .

قال الله عز وجل : (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج) خلق الله عز وجل الماء ، فثار منه دخان فبنى منه السماوات .

قال الرَّبيع بن أنس : السماوات أولها موج مكفوف ، والثانية : من صخرة ، والثالثة : من حديد ، والرابعة : من صفر أو نحاس ، والخامسة : من فضة ، والسادسة: من ذهب ، والسابعة : من ياقوتة حمراء.

وقال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة . وفي حديث العباس عن النبي ﷺ أنه قال : « هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، وكثف كل سماء خمسمئة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ».

قال العلماء : وكذلك الأرضون السبع في كثافتها وبُعد ما بين الواحدة والأخرى سوى ما تحت الأرض من الظلمة والنور، وما فوق السماوات من الحجب والظلمة الى العرش وهذا على قدر سير الآدمي الضعيف ، فأما الملك فإنه يخرق ذلك في ساعة .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الشمس تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل ، فتستأذن في الرجوع ، فيؤذن لها » . وأصغر النجوم بقدر الدنيا مراراً .

وفي السماء السابعة البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون اليه ، وبعد السماء السابعة سدرة المنتهى اليها ينتهي ما يعرج به الى الأرض فيقبض منها واليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، وبعد هذا الكرسي قال النبي ﷺ : « ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة » ثم العرش وهو ياقوتة حمراء فأما الملائكة فمن أعظمهم خلقاً حملة العرش وعددهم أربعة ، فإذا جاءت القيامة زيد فيهم أربعة .

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أُذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسير سبعمائة سنة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه تحت العرش وهو يقول سبحانك ما أعظمك ربنا فيرد عليه ما يعلم ذلك الذي يحلف بي كاذباً ».

وعن عبد الله بن سلام قال : لما خلق الله عز وجل الملائكة واستووا أقدامهم رفعوا رؤوسهم الى السماء فقالوا : ربنا مع من أنت ؟ قال : مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه .

وأما أعمال الملائكة فجمهورهم مشغول بالتعبد كما قال عز وجل (يسبحون الليل والنهار لايفتُرون) الانبياء : ٢٠ .

ومن الملائكة موكل بعمل ، فمنهم حملة العرش قد وكلوا بحمله ، وجبريل صاحب الوحي والغلظة فهو ينزل بالوحي ، ويتولى إهلاك المكذبين . وميكائيل صاحب الرزق والرحمة ، وإسرافيل صاحب اللوح والصّور ، وعزرائيل قابض الأرواح ، وله أعوان . وهؤلاء الأربعة هم (المقسمات أمراً) ، ومنهم كتّاب على بني آدم والمعقبات: ملكان بالليل وملكان بالنهار ، ومنهم موكل بالقطر . والرعد: صوت ملك يزجر السحاب ، والبرق: ضربه إياه بمخاريق ، ومنهم موكل بالرياح والبحار ، ومنهم ملائكة سياحون في الأرض يتتبعون مجالس الذكر ، وملائكة يبلّغون رسول الله ﷺ من أمته السلام ، ومن الملائكة موكلون بمكة والمدينة ليمنعوا عنها الدجال إذا خرج ، ومن الملائكة من هو مشغول بغرس شجر الجنة . قال كعب : إن في الجنة ملكاً يصوغ حلية أهل الجنة منذ يوم خلق إلى أن تقوم الساعة .

نائبات في كل يوم تنوب ... وخطوب تمضي وتأتي خطوب
ماعجيب مكر الزمان ولكن ... ثقة الناس بالزمان عجيب
كم دعتني الى زخارفها الدنـ ... ـيا فنادت من الذي لايجيب
ومتى سامحت خليلاً بحظ ... خالفتها فاسترجعته الخطوب
وصلاح الأجساد سهل ولكن ... في صلاح القلوب يعيى الطبيب

ياغافلاً قد طليب ، يامخاصماً قد غلب ، ياواثقاً قد سلب ، ياحازماً قد خُلب ، كأنه به قد قلب .

إياك والدنيا فما الدنيا مامونة ، وتزود للسفر فلابد من مئونة ، وإذا قدرت على الكمال فلا ترض دونه ، واصدق في أمرك تأتك المعونة .

أين المغرورون بغرورها؟ أين المسرورون بسرورها؟ صاح بهم الموت فأجابوا ، واستحضرهم البلاء فغابوا ، ظنوا بلوغ الآمال وتوهموا ، واعتقدوا دوام السلامة فلم يسلموا ، وعلموا الرحيل فكأنهم لم يعلموا ، وناولوا أنفسهم أعنة الهوى وسلموا ، كم هتف بهم نذير الفراق فلم يفهموا ، وقد بلغوا منتهى الآجال ولم يظلموا ، خلوا في إلحادهم بما كانوا قدموا ، ولسنا بأبقى منهم غير أننا أقمنا قليلا بعدهم وتقدموا .

أين من أصبح بلذاته مغتبطاً؟ أمسى في مماته مختبطاً . أين من كان أمره فرطاً؟ ندم إذا ارتكب غلطاً أين من سلك سبيلاً شططاً؟ لقي الأمر المر مما امتطى ، أين من كان قاهراً مسلطاً؟ نزل لحداً مافيه وطا ، وجاءه الملكان فأفزعاه وأفرطا ، وافتضح بقبيحه وانكشف الغطا .

لقد بان السبيل ولاح المنهج ، فما للقلب عن الهدى عرَّج . أما يزعجك الترهيب؟ أما يشوقك الترغيب؟ إلام تروغ عن النصح روغان الذيب؟ وتلتفت الى أحاديث المنى والأكاذيب ، قف على باب (وإن كنا لخاطئين) لتسمع الجواب (لاتثريب) .

إخواني : تأملوا العواقب ، تأمل من يراقب ، تفكروا في النهاية ، فعين العقل ترى الغاية . الموت قريب فكم أهلك من أمم ، قد ارتهن الذمم ، وشيب اللمم ، فيامن سيحلق الرمم ، أسماع أم صمم ، من علم سر شرف المطلوب جد وعزم ، إنما يكون الاجتهاد على قدر الهمم .

إخواني : نذيركم قد صدق ، والمجتهد قد سبق ، وآخر جرعة اللذة الشرق وصاحب الدنيا منها على فرق . أين الرفيق ساقه سواق مارفق؟ هذا وكلكم يدري أين انطلق . أما رأيتم مضجعه في القبر بالحدق . واعجباً للقلب المتفكر كيف ما احترق؟ أما شاهدتموه وقد تقطعت منه العُلق ، وتقمص بعد عزته جلباب الخوف والفرق ، وخرس لسانه وقد طالما مانطق .

فمـــا تزود مما كان يجمعه   إلا حنوطاً غداة البين في خِرَق

وغير نفحة أعواد تشبُّ له   فقلَّ ذلـك من زاد لمنطلق

فصـــل

في قوله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيهـا من كل شيء موزون)الحجر : ١٩ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : خلق الله تعالى الماء فـكان على متن الريح ، وخلق الحوت فوق المـــاء ، ثم كبس الأرض عليه ، فاضطرب النون ، فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال .

قال السدّي عن أشياخه : أخرج الله عز وجل من الماء دخاناً ، فسمى عليه فسماه سماءً ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ، فالارض على الحوت ، والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح .

قال قتادة : عمران الارض أربعة وعشرون ألف فرسخ في مثلها ؛ فالسند والهند من ذلك اثنا عشر ألف فرسخ في مثلها وهم أولاد حام ، والصين ثمانية آلاف فرسخ في مثلها وهم أولاد يافث ، والروم ثلاثة آلاف فرسخ في مثلها، والعرب ألف فرسخ ، وهم الروم من ولد سام .

وعن أَنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال ، فقالت يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد ، قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال : نعم النار ، قالت : يارب فهل شيء من خلقك أشد من النار؟ قال : نعم الماء ، قالت : يارب فهل شيء من خلقك أشد من الماء؟ قال : نعم

الريح ، قالت : يارب فهل شيء من خلقك أشد من الريح ؟ قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله » .

قال العلماء : أول جبل وضع على الأرض جبل أبي قُبيس ، فكان أول من بنى فيه رجل يقال له : أبو قبيس ، فسمي بذلك.

ومن مشاهير الجبال جبل ثور بمكة ، وأُحد بالمدينة ، وجبل العُرج بين مكة والمدينة ، يمضي الى الشام ، حتى يتصل بلبنان ، ثم يتصل بجبال أنطاكية ، فسمي هناك اللُّكام ، وسرنديب الجبل الذي أهبط آدم عليه ، وجبل الروم ، الذي سد فيه ذو القرنين على يأجوج ومأجوج طوله سبعمائة فرسخ وينتهي الى البحر المظلم ، وقد أُحصيت المعادن ، كالجص والنورة فوجدوها سبعمائة معدن ، والأقاليم سبعة :

الأول : الهند ، والثاني : الحجاز ، والثالث : مصر ، والرابع : بابل ، والخامس : الروم ، والسادس : الترك ، ويأجوج ومأجوج ، والسابع : الصين ، ومقدار كل إقليم ، سبعمائة فرسخ في مثلها ، والبحر الأعظم محيط بذلك كله يحيط به جبل قاف ، وأما الأنهار فمنها : النيل والفرات ودجلة وسيحان وجيحان .

أضحك سنّك بعد الأمل ولم تبك عيناك قرب الأجل
كأنك لم تر حياً يساق ولم تر ميتاً على مغتسل

انتبهوا يا نيام ، افهموا هذا الكلام ، قد بقيت لكم الأيام ، هذا عود الحياة قد يبس ، ونور الشباب بالشيب ينطمس ، ولسان الفرح بالترح قد خرس ، وسواء من الموت المهمل والمحترس ، ولا فرق عنده بين اللين والشرس ، كم رأيتم من قبر مندرس ، كم تلي عليكم زجر ودرس ، كأنكم في كف المختلس ، إنما هو نفس مطلق وكان قد حبس ، ترى متى ينقى هذا القلب الدنس ، إلى كم ذا المريض كل يوم ينتكس ؟ إنما أنت بقية الراحلين فاعتبر بهم وقس .

الدنيا بحر عجّاج ، ليس راكبه بناج ، الدنيا كظلمة ليل داج ، ليس فيها إلا الزهد سراج ، هدوؤها انزعاج ، وسكونها اختلاج ، ضيّقة الفجاج ، كدرة المزاج ، ولا تغرنك

ولو ألبستك التاج ، تُريك السلامة تغريراً وتمويهاً ، وتظهر المحاسن والقبائح تخفيها .

هي الدنيافلايغررك منها زخارف تستفزٌّ ذوي العقول
أقل قليلها يكفيك منها ولكن لست تقنع بالقليل

محن الدنيا ولذاتها أنموذج ما في الآخر ، فلو أصغى سمع القلب فهمَ .

لما أُهديت معاذ العدوية إلى الصلت بن أشيم أدخله ابن أخيه الحمام ، ثم أدخله بيتاً مطيباً ، فقام يصلي حتى برق الفجر ، فقامت فصلت قال : فأتيته فقلت : يا عمِّ أُهديت لك ابنة عمك فقمت تصلي ، فقال : يا ابن أخي ، أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار ، ثم أدخلتني الليلة بيتاً أذكرتني الجنة ، فما زال ذكري فيهما إلى الصباح .

يا أيها الراحل وماله رواحل ، متى تسمع قول العاذل ،هذا العدو ينصب الحبائل؟ إلى كم ترضى باسم الجاهل ، كم تعد بالتوبة وكم تماطل؟ .

كم أسمعك الموت وعيدك ، فلم تنتبه حتى قطع وريدك ، ونقص منزلك وهدم مشيدك ، ومزق مالك وفرق عبيدك ، وأخلا دارك وملأ بيدك ، أما رأيت قرينك ، أما أبصرت فقيدك ، يا ميتاً عن قليل مهد تمهيدك ، لقد أمرضك الهوى وفي عزمه أن يزيدك ، أُفٍّ لعيش آخره الندامة ، آهٍ من سفر بدايته القيامة ، هذا نذير الموت قدغدا، يقول لكم : الرحيل غدا كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصور بالصور ، فخرجت تسعى من تحت المدر وقد رجّت الأرض وبست الجبال وشخصت الأبصار لتلك الأهوال ، وطارت الصحائف فروع الخائف ، وشاب الصغار ، وزفرت النار ، وأحاطت الأوزار ، ونصب الصراط وحضر الحساب ، وقرب العذاب . وشهد الكتاب ،وتقطعت الأسباب ، فكم من شيخ يقول : وا شيبتاه ، وكم من كهل ينادي : وا خيبتاه ،وكم من شاب يصيح : وا شباباه ، برزت النار فأحرقت ، وزفرت غضبى فمزقت ، وتقطعت الأفئدة وتفرقت والأحداق قد سالت ، والأعناق قد مالت ، والألوان قد حالت ، والمحن قد توالت .

أَين عدّتك لذلك الزمان ؟ أين تصحيح اليقين والإيمان ؟ أترضى يومئذ بالخسران؟

أما تعلم أنك كما تدين تدان ؟ يا من قد ملأ كتابه بالقبيح ، وهو عن قليل رهن الضريح ، كم في كتابك من زلل ، كم في عملك من خلل ، هـذا وقد قرب الأجل ، كم ضيعت واجباً وفرضاً ، ونقضت عهداً محكما نقضاً ، وأتيت حراماً صريحاً محضاً ، يا أجساداً صحاحاً فيها القلوب مرضى ، عباد الله أطول الناس حزناً في الدنيا ، أكثرهم فرحاً في الآخرة ، وأشد الناس خوفاً في الدنيا ، أكثرهم أمناً يوم القيامة ، يقول الله عز وجل : « لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة » .

وعظ أعرابيٌ ولده فقال : أي بنى : إنه من خاف الموت ، بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات ، أسرعت به التبعات ، والجنة والنار أمامك .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاب يلازم المسجد والعبادة ، فعشقته امرأة ، فأتته في خلوة فكلمته ، فحدثته نفسه بذلك فشهق شهقة فغشي عليه فجاءه عمٌ له فحمله الى بيته ، فلما أفاق قال : يا عم انطلق الى عمر ، فأقرئه مني السلام ، وقل له ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فانطلق عمه ، فأخبر عمر ، فأتاه عمر ، وقد شهق فمات فوقف عليه عمر فقال : لك جنتان .

يا دائم الخطايا والعصيان ، يا شديد البطر والطغيان ، ربح المتقون ولك الخسران ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

لو رأيت أهل الزيغ والعناد ، وأرباب المعاصي والفساد ، (مقرّنين في الاصفاد سرابيلهم من قطران) ابراهيم : ٤٩-٥٠ . (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

قد سدت في وجوههم الابواب ، وغضب عليهم رب الارباب ، والنار شديدة الالتهاب ، والعذاب فيها ألوان (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

قد أعرض عنهم الرحيم ، ومنعهم خيره الكريم ، يتقلبون في الجحيم (يطوفون بينها وبين حميم آن) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) الرحمن : ٤٤و٤٦ .

سعيرهم قد أحرق ، وزمهريرهم قد مزق ، ونور المتقين قد أشرق (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان) الرحمن : ٥٤ .

أيها العاصي قد اجتهدنا في صلاحك ، وعرضنا في التجارة لارباحك ، وأنت على المعاصي في مسائك وصباحك ، وبعد فما نيأس من صلاحك (كل يوم هو في شأن) .

اللهم اجمع بيننا وبين طاعتك على بساط مشاهدتك ، واجعل همنا أنت واملأ قلوبنا بمحبتك ، وامنن علينا بالغفران .

اللهم علمنا وذكّرنا وفهمنا ، وفرحنا ، وفرغنا من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك ومحابك ومحاب رسولك ﷺ .

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك والشوق اليك ، والانس بك ، والرضى عنك ، والطاعة لامرك . لا إله إلا أنت سبحانك ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا اليك قولاً وعقداً ، فتب علينا جوداً وعطفاً واستعملنا بعمل ترضاه ، وأصلح لنا في ذرياتنا ، إنا تبنا إليك ، وإنا من المسلمين .



فهرس هذا القسم

الصفحة	الموضوع
٧٠	المجلس العاشر في قصة لوط عليه السلام
٧٤	فصل في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)
٧٧	المجلس الحادي عشر في قصة ذي القرنين
٨٠	فصل في قوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها)
٨٤	المجلس الثاني عشر في قصة يوسف عليه السلام
٨٨	فصل في قوله تعالى (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً)
٩٢	المجلس الثالث عشر في قصة أيوب عليه الصلاة والسلام
٩٦	فصل في قوله تعالى (إني جزيتهم اليوم بما صبروا)
٩٩	المجلس الرابع عشر في قصة شعيب عليه السلام
١٠٣	فصل في قوله تعالى (كلا إذا بلغت التراقي)
١٠٧	المجلس الخامس عشر في قصة موسى عليه السلام
١١٤	فصل في قوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم)
١١٧	المجلس السادس عشر في قصة موسى والخضر عليهما السلام
١٢١	فصل في قوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون)
١٢٤	المجلس السابع عشر في قصة قارون
١٢٧	فصل في قوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل)
١٣١	المجلس الثامن عشر في قصة بلعام
١٣٥	فصل في قوله تعالى (فاعتبروا يا أولي الابصار)
١٣٩	المجلس التاسع عشر في قصة داود عليه السلام
١٤٣	فصل في قوله تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى)
١٤٧	المجلس العشرون في قصة سليمان عليه السلام

الموضوع	الصفحة

الصفحة	الموضوع
٢٣٦	فصل في قوله تعالى (وجوه يومئذ ناعمة)
٢٤٠	المجلس الحادي والثلاثون في ذكر عثمان رضي الله عنه
٢٤٤	فصل في قوله تعالى (والله يدعو الى دار السلام)
٢٤٨	المجلس الثاني والثلاثون في ذكر علي رضي الله عنه
٢٥١	فصل في قوله تعالى (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً)
٢٥٨	المجلس الثالث والثلاثون في فضل عائشة رضي الله عنها وأزواج رسول الله ﷺ
٢٦٠	فصل في قوله تعالى (والذي تولى كبره منهم له عذاب أليم)
٢٦٧	المجلس الرابع والثلاثون في فضل الصحابة رضي الله عنهم أجمعين
٢٧١	فصل في قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي)
٢٧٥	المجلس الخامس والثلاثون في فضل أمة محمد ﷺ
٢٧٩	فصل في قوله تعالى (كنتم خير أمة أُخرجت للناس)
٢٨٤	المجلس السادس والثلاثون في ذكر فضائل شهر شعبان وليلة النصف منه
٢٨٨	فصل في قوله تعالى (حم ، والكتاب والمبين ، إن أنزلناه في ليلة مباركة)
٢٩٤	المجلس السابع والثلاثون في ذكر شهر رمضان
٢٩٨	فصل في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)
٣٠٤	المجلس الثامن والثلاثون في ذكر ليلة القدر
٣٠٨	فصل في قوله تعالى (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
٣١٣	المجلس التاسع والثلاثون في فضل عشر ذي الحجة ويوم عرفة
٣١٧	فصل في قوله تعالى (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً)
٣٢١	المجلس الأربعون في ذكر خلق ابن آدم

